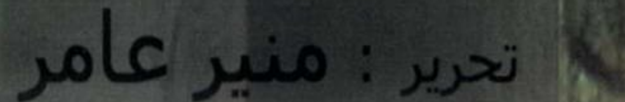




د. بنجامين سبوك

فن الحياة مع المراهق



إصدارات خاصة

فن الحياة مع المراهق

د. بينجامين سبوك
تحرير: منير عامر



سلسلة
الإصدارات الخاصة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

76

تعنى بنشر الأعمال الفكرية والثقافية والأعمال الخاصة لأبرز
الكتاب فى مصر والعالم

• فن الحياة مع المراهق
• تأليف: د. بنجامين سبوك
تحرير: منير عامر
• الطبعة الثانية
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
216ص 16,5 × 23,5 سم
• تصميم الغلاف: أحمد الجنايني
• المراجعة اللغوية:
محمد أحمد عبدالمطلب
عادل سميح
• رقم الإيداع: ٥٦٨٢/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-479-973-3
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

فن الحياة مع المراهق

المحتوى

مقدمـة

لكل كتاب فى العالم رحلتان. لكن هذا الكتاب له أكثر من عشر رحلات؛ فالكتاب التقليدى يبدأ كرحلة أولى عند البدء فى إعداده كفكر، وتنتهى الرحلة الأولى بأن ترى أنت ـ عزيزى القارئ ـ هذا الكتاب مطبوعاً . وأما الرحلة الثانية فى الكتاب التقليدى فتبدأ أثناء قراءتك له: هل تسمع أنت به؟ هل يغير من أفكارك؟ هل تلتقى مع الكتاب أم تختلف؟ وتنتهى الرحلة الثانية إما بإلقائك الكتاب بعيداً عنك، أو بالاحتفاظ به فى مكتبك.

لكن هذا الكتاب، كما قلت لك، له فى حياتك أكثر من عشر رحلات؛ فهو كتاب يقتحم منطقة حرجة فى حياة الأسرة عموماً ، وحياة الأسرة العربية على وجه الخصوص. إنه يتحدث إلى الشباب من عمر الخامسة عشرة وحتى العشرين عن حقائق أجسادهم وكيف تنمو، ثم يدخل بهم إلى فن التعامل مع المجتمع، وفى دنيا الإحساس بالحب، تلك الكلمة التى تملأ حياتهم ووجدانهم، ويطلبون بها ومن خلالها الاستقلال عن الكبار.

ولا أحد من الآباء ينسى أيام شبابه، وكيف كانت تصرفاته وأساليب إدارته لحياته. إن الأب دائماً يتذكر بالصوت العالى أمام الابن كيف كان متفوقاً فى الدراسة، وكيف نال احترام الجميع، وينسى اندفاعاته فى الاتجاهات كافة من أجل البحث عن شخصيته المميزة.

والأمهات ينسين كيف كانت أيام المراهقة، وتخبر كل أم ابنتها عن حدود الطاعة المطلقة

التى عاملت بها والدتها، وتنسى الأم رحلة السعادة والألم التى بدأت منذ وصولها إلى أول دورة شهرية وحتى بلوغ الابنة أول دورة شهرية فى حياتها.

وينظر الأبناء إلى الآباء بعيون فيها من الشك أكثر مما فيها من الثقة. فليس من المعقول أن كل الآباء فى حالة زهد وتقوى وصلاح، وليس من المعقول أيضًا أن الأبناء هم الشرور المتحركة على الأرض.

وتنظر الفتيات إلى الأمهات بعيون فيها من القلق أكثر مما فيها من الاطمئنان. فليس من المعقول أن كل الأمهات قد كن فى حالة انضباط عاطفى فى انتظار موافقة الأب والأم على العريس الذى يتقدم للابنة؛ فصارت الابنة زوجة مطيعة، ثم صارت أمًا لابنة متمردة.

إن الآباء والأمهات يريدون معرفة كيف يفكر الأبناء والبنات فى عمر المراهقة، وكيف يمكن أن يكون سلوك الكبار مع الأبناء فى هذا العمر المتوهج بالتحدى والتوتر والنمو.

والأبناء والبنات يريدون معرفة كيف تعمل الأجساد وكيف تنمو العواطف وكيف يواجهون التحديات التى تحيط بهم من كل الاتجاهات، وما نقاط الضغط فى السلوك التى من الواجب الابتعاد عنها، وما نواحى السلوك التى يجب أن يقدم عليها الشاب أو الفتاة.

ولأن كل نمو يحمل فى داخله لونًا من التحدى، فقد واجهت أنا - كاتب هذه السطور - تلك الرحلة. واجهتها وأنا أتلقى عام ١٩٦٨ تكليفًا من إذاعة الشرق الأوسط بالقاهرة بإعداد برنامج مدته ستون دقيقة كل أسبوع للأجيال الشابة وباسم "تحت العشرين"، وبدأت بهذا البرنامج رحلة صداقة ومودة وتفاهم بينى وبين مئات الآلاف، ولا أقول الملايين، من الشباب العربى من المحيط إلى الخليج. أراهم فى أماكن تجمعاتهم، أسمع أحلامهم، أقدم اليد التى تلتقط يد الشاب قبل لحظة من انهيار أو تهور، ألمس بمشاعر الفهم قلق الفتاة عندما تتضارب الأحاسيس، وتكاد البهجة تغيب عن عمر البهجة. كان لا بد إذن من التجول فى دنيا المعلومات عن عالم المراهقة، وما زالت تلك الرحلة مستمرة حتى كتابة هذه السطور.

ما زلت أذكر لحظة لقائى بهذا الكتاب، كان ابنى قد وصل إلى عمر الخامسة عشرة، وكان لا بد أن أواجه معه رحلة الاتفاق على حدود الاختلاف بيننا. نعم، فكل الأبناء مختلفون عن الآباء، وكل الآباء مختلفون عن الأبناء، والمطلوب دائمًا فى كل أسبوع مرة على الأقل أن يتفق الآباء والأبناء على حدود الاختلافات بينهما.

ولأنى أعلم أن أى اختلاف فى الرأى والسلوك يقتضى أن أفهم أنا موقف من أختلف معه وأن يفهم من يختلف معى موقفى، لذلك بدأت أقرأ كتاب د. سبوك "دليل الحب والحياة

لإنسان تحت العشرين" ورأيت الكتاب وهو يغوص فى عالم المراهقة بأسلوب علمى بسيط يتناسب مع العمر الشاب، ولا يخجل د. سبوك من تناول أدق التفاصيل. لكن سلوك الشباب في أوروبا وأمريكا قد لا يتقارب مع سلوك الشباب فى عالمنا العربى وإن اختلف معه فى كثير من الأمور، ولكن من المؤكد أن أسلوب حياة الفتاة فى أوروبا وأمريكا يختلف عن أسلوب حياة الفتاة فى بلادنا.

وقررت أن أضع أمام ابنى تحدياً يشرح له نفسه وجيله؛ فطلبت منه أن أقرأ أنا وهو الكتاب بصوت عال، وأن نتفق على ما فيه من معلومات، بما يضمن لنا فهماً مشتركاً، وأقدمنا على التحدي بترجمة الكتاب الذى يعرفه عن نفسه، وعن مشاعره وعن الرجل والمرأة الكثير. وبشجاعة العمر الشاب وبخبرة الأب الحريص، أنجزنا معاً صياغة متفقاً عليها، تتناسب مع جهاز القيم في المجتمعات العربية، وكان المشجع لى ولابنى هو أستاذنا المغفور له الأستاذ الدكتور سعد جلال، أحد رواد علم النفس فى عالمنا العربى، وصاحب المؤلفات التى تصنع علماء النفس البشرية لمن يعكف على فهمها بإتقان. وكان د. سعد جلال هو المربى والحارس لقيمى فى أثناء مراهقتى؛ فقد كان صديقاً لأسرتى، وها هى الأيام تضعه أمام مسؤولية أن يعلمنى عملياً كيف أكون أباً، ويوجه ضمير ابنى ويعلمه فن حراسة القيم وكيفية التقدم للأمام.

ويستمر الحوار بينى وبين الكتاب لمدة عام كامل، إلى أن أبدأ فى إعادة صياغته على ضوء خبرة اثنين وثلاثين عاماً فى التعامل اليومى مع الشباب المراهق، من خلال برنامج "تحت العشرين" بإذاعة الشرق الأوسط بالقاهرة. وتتراءى أمامي وجوه أساتذة كبار، أساتذة فى عالم الفن الإذاعى قادوا خطواتى بهدوء إلى أداء هذا البرنامج: وجه الفنان العاشق للبسطاء طاهر أبو زيد وهو أول من أقنعنى بضرورة المشاركة فى العمل الإذاعى، ووجه الإذاعية الساحرة سناء منصور التى كانت صاحبة فكرة البرنامج الإذاعى، وكانت مقدمته الأولى عام ١٩٦٨ مع الإذاعى اللامع كمال جامع، واستمرت رحلتى مع برنامج "تحت العشرين" تصل نضجى بمراهقتى، وتصل خبرتى بهمس الأجيال العربية. وتزودنى الإذاعية الكبيرة مشيرة نجيب بكيفية الحوار ببساطة مع الشباب، ويزودنى الفنان حسن شمس بطاقة المناقشة الهادئة لمشاكل الأجيال الشابة، وتقطع معى الإذاعية درية شرف الدين رحلة أيام وسنوات فى أدائنا المشترك للبرنامج معاً، ويستقر البرنامج على أمواج صوت الزميلة تهانى حلاوة وصوتى.

مرت بنا السنوات فى إذاعة الشرق الأوسط بالقاهرة، وكل أبناء الإذاعة يحرصون على

صيانة وتجديد حيوية البرنامج الإذاعى على مدى الأعوام الماضية. لن أنسى كمال جامع وسوسن سامى وصديقة حياتى، فكل منهم بذل وأعطى، وأكرم، وأفاد.

وعلى ضوء خبرة الأعوام، بدأت بإعادة صياغة الكتاب، مستفيداً من عمق صداقتى مع الأساتذة الكبار فى الطب النفسى: الأستاذ الدكتور أحمد عكاشة، عميد الطب النفسى العربى ومؤسس قسم الطب النفسى بجامعة عين شمسن، والذى أسهم بخبراته المتميزة فى برنامج "تحت العشرين"، والأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى، أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة، والذى أسهم بعطاء حيوى خلاب للأجيال الشابة من مستمعى البرنامج، ولا يمكن أن أنسى جهد الأستاذ الدكتور محمد شعلان، مؤسس قسم الطب النفسى بجامعة الأزهر، الذى تفخر جامعات العالم بمحاضراته فيها، والذى أثرى برنامج "تحت العشرين" بخلاصة خبراته، ويظل بين دفتى هذا الكتاب بريق الإضافات التى أضافها الأستاذ العالم الطبيب د. إيهاب يونس، أستاذ علوم الجنس والجلد بجامعة بنها، والذى قام بمراجعة دقيقة لكل الكتاب، وكان كريماً بالحذف والإضافة. إن د. إيهاب يونس يعطى كل وقته لعلاج أمراض الجنس والجلد، وتتكشف أمامه حقائق مذهلة عن نمو الشباب وآلام الكبار.

إننى لم أقم بإعادة صياغة كتاب "فن الحياة مع المراهق" وحدى، لكن كان معى زاد هائل وكريم من أساتذة وأصدقاء، ورأيت نتيجة الكتاب تدفع ابنى إلى فهم دوره فى الحياة كشاب تحت العشرين، يسير دائماً إلى اختبار تحدياته، ويتحمل مسؤولياته.

ولكل ما تقدم من أسباب وظروف صار هذا الكتاب _ بإذن الله _ بين أيديكم شباباً وآباء. إنه كتاب سيقرأه الابن _ أو الابنة _ أكثر من مرة، وسوف يرجع إليه الأب _ أو الأم _ أكثر من مرة.

إذن فأمام كل منكم أكثر من رحلة مع هذا الكتاب.

ترى هل يضيف إليكم؟

أثق وأقول: نعم، لأنه أضاف لى بهجة وعلماً وتوازناً ، وسوف يكون كذلك _ بإذن الله _ بالنسبة لكم.

منير عامر

الفصل الأول:

الكبار.. لماذا لا يصدقهم المراهق ؟

ينفجر أمامنا جسد الطفل الصغير فيكبر ويزداد صوته غلظة، وتتناثر على وجهه حبوب الشباب مختلطة بزغب يميل إلى السواد.

لقد صار الطفل مراهقًا .

وتتدلل الطبيعة فى إبراز مفاتن الأنثى الصغيرة. ثم يدق مغص صغير هذا الجسد، إنه مغص أيام الدورة الشهرية.

كبرت الطفلة التى كنا نداللها كدمية وصارت تطالب بحق الخيال وحق الاحترام.

يصرخ الكبار فى وجه المراهقين. أنتم متمردون ولا تسمعون الكلام.

فيصرخ المراهقون ـ فى حياتهم ـ فى وجوه الكبار: أنتم مستبدون ولا تفهمون مشاعرنا .

يصرخ الكبار فى وجه كل مراهقة: لماذا تنظرين إلى نفسك منذ شهور؟ أنت ما زلت طفلة تحتاجين إلى تأديب.

فتصرخ المراهقات ـ فى خيالهن ـ فى وجوه الكبار: أنتم تخافون أن نعلن أنكم صرتم "عواجيز".

سنحاول على مدى هذه الصفحات أن نشرح للمراهق تلك التغيرات التى تحدث فى أعماق كل منهم وجسده.

والهدف هو إزالة الحرج عن عالم الأسئلة الصعبة التى يواجه بها المراهق. والهدف أيضاً أن نبى جسر صداقة بين الكبار وبين المراهقين؛ فهذه الصداقة هى الحماية الأولى للكباب من الإحساس بالشيخوخة ومرارة الوحدة. وهى الحماية الأولى للشباب الصغير من انحرافات العصر، كالإدمان وغير ذلك من الانحرافات التى يعلو الصوت بالشكوى منها فى جسارة حقيقية لمواجهتها. والخطوة الأولى للانتصار على الانحرافات هى أن نجعل البيت مكاناً صالحاً لإقامة الشاب أو البنت فى عمر المراهقة.

والآن إلى السؤال الصعب جداً فى حياة المراهق والمراهقة وهو: كيف ينشأ الحب فى النفس البشرية؟

إنه سؤال كغرفة المرايا السحرية، تجيب عنه الأغانى بالآهات، ويجيب عنه العلماء بالأرقام، ويجيب عنه الآباء والأمهات بالخوف من الانحراف. ولا يفهم أحد أن الغرض الأساسى عند المراهق عندما يطلق فى وجوهنا هذا السؤال هو جرس تنبيه يطلقه المراهق أو المراهقة فى وجه العالم ليقول: "انتبهوا، لقد كبرت، صرت جسداً محدد الملامح له قسمات الرجولة أو الأنوثة، دعونى أنضم إلى نادى الكبار".

وفى البيوت العربية، من المحيط إلى الخليج، يلمع بعض من القلق فى عيون الكبار عندما يشاهدون التغير الواضح فى جسد الفتاة التى رحلت فجأة من دنيا الطفولة، واقتحمت فجأة عالم الأنوثة المحدد.

وتنظر عينا الأب إلى عينى الأم حين يحاول أن يوجه لها رسالة قد تكون منطوقة وقد تكون بمجرد النظرات: «لقد بدأت مسؤوليتك عن شرح كل شىء للبنت».

ومهما كانت الأم متعلمة أو جاهلة، ففى أعماقها وأعماق ابنتها لون من التساؤل المشوب ببعض الصراع. التساؤل فى أعماق الابنة: "اعذرينى يا أمى، لقد كبرت وهذا يعنى أن مكانة الأنثى اللامعة فى سماء البيت يجب أن تكون مكانتى".

وتترجم الابنة هذه الرسالة عملياً بأن تأخذ بعضاً من أشياء الأم وحاجاتها الخاصة: زجاجة العطر، وأحمر الشفاه، وبعضاً من الملابس الداخلية والأحذية والحقائب.

وتترجم الأم هذه الرسالة إلى معنى آخر. إن الأم تتذكر لحظة ووصولها إلى البلوغ: حذرتها أمها من اللعب مع الشباب، وقامت الدنيا ولم تقعد عندما ضبطوها تتلقى رسالة غرامية من ابن الجيران. ثم جاءت "الداية" على عجل لتنفذ أبشع مهمة اقترضها العرب من الأتراك، وهى الختان القاسى. وقامت الدنيا ولم تقعد عندما نجحت البنت أن تتزوج العريس الذى جاءت به إحدى القريبات وقالت: "لا بد أن أكمل تعليمى". وقامت الدنيا ولم

تقعد عندما اختارت الأم أن تقبل خطوبة زميلها فى الجامعة. وقامت الدنيا ولم تقعد عندما قال لها خطيبها: "مشوار الحياة صعب وأنا لا أستطيع أن أجهز البيت المطلوب". وقامت الدنيا ولم تقعد عندما أعلن الكبار فشل الخطوبة. ثم انطلقت الزغاريد فى المنزل لتعلن خطوبة الابنة لعريس مقتدر.

وغرقت أعماق الابنة _ التى صارت أمًا من بعد ذلك _ فى بحر من الدموع. وتوالت كلمات "النصيب والقسمة والحظ المكتوب على الجبين" تضمد أحزان العجز عن صناعة الحياة مع من تحب.

وفى كل تلك الحالات صارت أعماق الأم مضبوطة بانتباه بالغ على حقيقة علمية هى "أن كل فتاة عربية فى أى بلد من المحيط إلى الخليج تحفظ ميعاد الدورة الشهرية عن ظهر قلب". إن تقاليد المجتمعات الشرقية تحيط بالفتاة من كل اتجاه. وميعاد الدورة الشهرية له دلالات مهمة عند الأسرة الشرقية.

لكن على الضفة الأخرى من العالم، نجد الفتاة الإنجليزية أو الأمريكية أو الفرنسية تقول لوالدتها: "من الأفضل أن نزور معًا طبيب أمراض النساء حتى أستطيع اختيار مانع الحمل المناسب لى".

وكثيرًا ما قرأنا عن أسر مصرية أو عربية هاجرت إلى أمريكا أو الغرب، ولكنها عادت بسرعة رغم النجاح المهنى، وفضلت الحياة مرة أخرى فى مجتمعاتها الشرقية رغم الصعوبات اليومية. والسبب أن الأب والأم لا يريدان للابنة أن تمر بتجربة المراهقة فى المجتمع الغربى حيث لا يتطور الإنسان بهدوء من مرحلة عمر إلى مرحلة أخرى، بل يقتحم مراحل العمر وكأنه يغتصب حقوقًا ولا يمارس حياة. وليس أدل على ذلك من هجرة عشرات الآلاف من الشباب الأمريكى والأوروبى إلى المجتمعات الشرقية فى الهند، وجنوب شرق آسيا، واليابان _ إن أمكن _ لا لشىء إلا لأن المجتمعات الغربية يحدث فيها تطور الحياة بأساليب وبتقاليد قد لا تعجب أبناء المجتمعات الشرقية.

إن الفتاة فى المجتمع الشرقى تقرأ بعضًا من أقوال الفتاة فى غرب أوروبا وأمريكا بلون من الدهشة، وتشاهد نماذج الحياة الغربية على شاشة التليفزيون بلون من الاستغراب. فالفتاة المراهقة الأمريكية التى تعيش فى المدن الكبيرة، تزور الطبيب النفسى وتقول له: "إننى فى حيرة من أمرى، فأهلى يخافون على من الحمل فى الصغر، ومعظم أصدقائى يعتبرون أن العلاقة الكاملة بين الشاب والفتاة حق طبيعى لهما، فالاحتضان العميق وممارسة العلاقة الكاملة بين الشاب والفتاة هى أمر يتعلق بنشاط الغدد".

وعندما يقرأ الشاب فى المجتمع الشرقى عن سهولة اللقاء الكامل بين الرجل والمرأة فى الغرب فإنه يشتهى السفر على الفور إلى تلك المجتمعات. ومعظم البيوت العربية رضخت لمطالب الشباب للسفر إلى الخارج ولو للعمل فى بيع الجرائد فى شوارع النمسا أو ألمانيا، أو غسل الصحون فى إنجلترا، أو جمع العنب فى فرنسا. وعاد الشباب من هناك إما ببعض من الحسرة، أو بعد رؤية أنياب المجتمع الغربى وهى تنغرز فى لحم الشباب القادم من العالم الثالث. لقد قتلوا شاباً فى جنوب فرنسا، حيث كل شىء للبيع بما فيه أجساد الصغيرات _ لمجرد أنه غازل ابنة ميكانيكى _ ولم يفتح أحد ملف التحقيق لأن القتيل مجرد "عربى".

ونام الشباب فى الحدائق الأوروبية. وتجمد بعضهم من الثلج وتعرضوا للاستنزاف تحت سطوة "الفتوات" فى شوارع النمسا.

وقامت طائرات من عواصم البلدان العربية منذ سنوات لتعود بالشباب الذى لم يجد عملاً .

وترفض السفارات الغربية فى بعض العواصم العربية منح تأشيرة الدخول لأى شاب عربى خشية أن يقيم بلا داع فى شوارع بلادها.

قال لى أحد المسؤولين الإيطاليين: "عفواً ، نحن ندقق فى تأشيرة الدخول لأن هناك أكثر من مائة وخمسين ألف شاب عربى يوجدون فى شوارع روما ونابولى دون إقامة شرعية، ولا يتعرض لهم البوليس لأنهم لا يسببون المشاكل، ولكنهم يأخذون فرص العمل من الشباب الإيطالى".

وعندما نسبر أعماق أى شاب من الذين هاجروا إلى أوروبا وتسكعوا فى شوارعها سنجد نفس الإحساس بالقهر الذى عانى منه عضو أى جماعة متطرفة: إنه مقهور فى بيته ولا يجد من يعترف به، ويعانى من جمود مشاعر الأب وديكتاتوريته، ومطلوب منه أن يظل محبوساً فى دور الطفل الذى عليه الطاعة وليس من حقه إبداء الرأى.

وسنجد أعماق هذا الشاب الذى هاجر إلى شوارع الغرب متساوية فى كثير من جوانبها مع أعماق المدمن الذى غرق فى إدمان الأقراص أو الهيروين. إنه طلب الاعتراف بالقدرة على النضج مع عدم سماح الأسرة والمجتمع بممارسة هذا النضج.

إن عين الشاب تتوقف بقلق أمام أوامر الكبار وسطوتهم، واعتبار أن كل سلوك يصدر منه هو تمرد رغم أنه يفكر فى مستقبله، وهو مكبل بعدم رؤية أى تفاؤل. إنه يرى تحطم الكثير من المثاليات، ولا أحد إلا القلة القليلة هى التى تثق فى أن داخل كل مراهق إنساناً جديراً بالاحترام.

إن عين الشاب تتوقف بقلق واندهاش وهى ترى عدم مرونة الكبار فى التعامل معه. وكما يقول أحد الشباب: "إنهم يتحايلون علىّ ولا يواجهوننى. إنهم يغلفون الجمود فى كلمات معسولة. إنهم يصرون على أن أبقى مجرد طفل، وليس لى حقوق الناضج. إنهم يرفضون أن أشاركهم ويطلبون منى دور التابع دائمًا ".

ويتوتر بعض من الشباب لأنهم فى حيرة بين الرغبة فى الهجرة من مجتمعاتهم للحياة فى سهولة المجتمع الغربى التى تبيعها مسلسلات التليفزيون الغربية، وبين الخوف من أمراض رهيبة ما زال الطب عاجزًا عن إيجاد حلول لها، مثل فقدان المناعة المكتسبة المسمى بالإيدز، وغير ذلك.

وبالنسبة للكبار، فى المجتمعات الشرقية أو المجتمعات الغربية، فإنهم ينظرون بقلق إلى حالة الانهيار الخلقى والسلوك غير المألوف من أجيال الشباب فى أوروبا الغربية وأمريكا، ومحاولة تقليد بعض من شباب وبنات الحضارة الشرقية لأبناء حضارة الغرب. ويقول الكبار باندهاش: "إنها فوضى القرن العشرين".

والحقيقة الواضحة هى أن العلاقة بين الرجل والمرأة تأخذ معانى مختلفة فى أوقات مختلفة، وفى المجتمعات المختلفة، بل يختلف مفهوم العلاقة بين الرجل والمرأة عن الأفراد أيضًا .

وفى عمر المراهقة يختلف مفهوم العلاقة بين الرجل والمرأة من إنسان لآخر.

إن فتاة ما قد تشتاق إلى الحنان، وإلى أن تعثر على الرعاية اللائقة من إنسان تحبه.

بينما نجد شابًا ما يحلم باحتضان يذوب فيه مع نجمة سينمائية أو تليفزيونية، ويخرج من هذا الحلم وهو يلوم نفسه، ويشعر بعدم تقدير لهذه النجمة التى لم يتعرف عليها شخصيًا ، بل تعرف فقط على صورها فى الأفلام.

وقد يحاصر الشاب أو الفتاة نفسيهما بالخوف من العذاب والعقاب لمجرد التفكير فى الجنس الآخر، ذلك أن الواحد منهما قد استمع إلى رجل دين متزمت، وكان حديث رجل الدين ينصب على أن الجنس خطيئة آثمة، اللهم إلا فى حالة واحدة وهى إنجاب الأطفال.

وقد يرتبك الشاب أو الفتاة عندما يستمعان لرجل دين آخر متسع الأفق وهو يقول: إن الحق سبحانه وتعالى لا يحرم العلاقة بين الرجل والمرأة على إطلاقها، لكنه يحرم العلاقة التى لا يتحمل فيها الاثنان مسؤولية كل منهما الآخر، ويحرم العلاقة التى لا علانية فيها ولا زواج، وذلك حتى ينال الإنسان المتعة، ويتحمل شرف المسؤولية فى بناء المجتمع الإنسانى.

ولا يخلو أى مجتمع من الشباب أو البنات، من الكبار أو الصغار، من الناضجين من الآباء والناضجات من الأمهات، كما لا يخلو مجتمع من قصة أو حكاية أو فكاهة معناها أن العلاقة بين الرجل والمرأة أكثر إمتاعاً عندما تكون سرية وغير معترف بها اجتماعياً .

ويختلف هذا الموقف عندما يتحدث الآباء والأمهات إلى الأبناء والبنات.

إن الكبار يتحدثون إلى الأبناء كما لو أن العلاقة بين الرجل والمرأة ليس لها إلا إطار واق رفيع هو الزواج، أو هى شرك خطير تلهو فيه المرأة بالرجل أو يلهو فيه الرجل بالمرأة.

وغالباً ما يعترف الشباب والبنات فى عمر المراهقة قائلين: "إن الكبار يتحدثون عن العلاقة بين الرجل والمرأة بنوع من الرياء والنفاق، فهم يتحدثون إلينا وكأنهم أصحاب المثل العليا التى لا تخطئ أبداً ، وكأن الخطأ والحظ السيئ والتجربة التى سيضيع بها المستقبل هو ما يميزنا نحن".

ودائماً ما يشكو الشباب والبنات فى العمر الشاب قائلين: "إننا عندما نسأل من هم أكبر منا عن أسرار العلاقة بين الرجل والمرأة، فإن هؤلاء الكبار يدخلون بنا إلى كهف مظلم، جدرانه من كلمات الإرهاب والتخويف، بل إننا عندما نلجأ إلى الكتب التى تتناول هذا الموضوع فإننا نفاجأ بأنها تتحدث عن كيفية عمل الأجساد، وهذا وحده لا يوضح طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة. فالأجساد ليست مجرد آلات، بل إنها مسيرة بالأرواح وبالطباع".

وعندما أسمع مثل هذه الشكاوى من الشباب والبنات فى عمر الشباب فإننى أقول بوضوح: "سيدرك كل منكم بوضوح خلال رحلة النمو أن مظاهر العلاقة بين الرجل والمرأة هى مزيج مركب عارم من المشاعر، وسيكتشف خلال رحلة النضج أن المشاعر العاطفية لا تقتصر على العلاقة بين الرجل والمرأة فقط، ولكن المشاعر العاطفية تحيط دائماً بأى نوع من الجمال فى الحياة، وتحيط أيضاً بالطموحات التى يصبو إليها الإنسان. وهذه العواطف لا يمكن وصفها وصفاً دقيقاً بالكلمات أو الرسوم. إن هذه العواطف يمكن أن توضحها الموسيقى، فهى عزف داخلى من المشاعر المتدفقة المتنوعة.

وأية تجربة عاطفية يدخلها الشاب بما تحتويه من مواعيد وأحلام، ستترك فى أعماقه حيرة، وسيظل فهمها عنده ناقصاً إلى أن ينمو هذا الفهم من خلال علاقة حب عميقة ودائمة فى إطار الزواج ".

وهذه السطور هى محاولة للإجابة عن سؤال بسيط وعميق وهو: كيف ينشأ الحب فى أعماق النفس البشرية؟ ومعنى ذلك أننا سنحاول هنا وعبر الصفحات القادمة أن نصف

التطور المعقد للأحاسيس الإنسانية، وهى تبدأ فى مهدها أثناء الطفولة، ثم نقارن بين أحاسيس الإنسان فى الطفولة وأحاسيس الجرو الصغير على سبيل المثال.

وقد يسأل أحد القراء: "هل ستدخل بنا فى دنيا اللاوعى وعالم اللاشعور وعالم النظريات التاريخية التى تتناول هذا الموضوع"؟

وأكاد ألمس فى أعماق هذا القارئ كلمات تقول: "لسنا بحاجة إلى النظريات التى قد يكون لها عميق الاحترام، بل نحن بحاجة إلى البساطة والإيضاح".

وأقول لمثل هذا القارئ: "إننى مثلك تماماً ، أقدم عميق الاحترام للنظريات الخاصة باللاوعى وطبقات اللاشعور، لكنى أفضل ألا أخوض فيها، وذلك حتى نحتفظ بالبساطة اللازمة لشرح مظاهر السلوك الإنسانى فى مجال العواطف والعلاقة بين الجنسين سواء عند الكبار أو الشباب. إن هذه الظاهرة قد تبدو محيرة بالنسبة للإنسان الذى يتأملها بل ومتناقضة فى أحيان أخرى. لذلك لا بد من أكبر قدر من الوضوح والبساطة من أجل عميق الفهم".

وسأحاول أيضاً أن أتناول علاقة العواطف والأحاسيس الجسدية بمثاليات البشر، والدافع إلى الابتكار، وما الذى يحدث عند إعلاء المشاعر، وماذا يفعل الكبت النفسى.

باختصار أقول: إن أمامنا هدفين أساسيين:

الهدف الأول: كيف ينشأ الحب فى مشاعر الإنسان؟

الهدف الثانى: علاقة العواطف البشرية بألوان السلوك الإنسانى المتعددة.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن نوضح كلاً من الهدفين دون أن نلمس من بعيد تلك الأحداث التى تحدث فى أعماق اللاوعى. لكننا لن ننسى أن الشباب كان يطلب أيضاً فهم مشاعره وأحاسيسه العاطفية والجسدية قبل ميلاد فرويد الذى تحدث عن اللاوعى، وكان الشباب يطلب ذلك من رجال الدين، وفى صفحات الدين الإسلامى الإيضاح الكثير والمتميز حول قواعد العلاقة بين الرجل والمرأة، ولم تكن المجتمعات المسلمة تعانى من هذا الالتباس الذى تعانى منه الحضارة المعاصرة، تلك الحضارة التى أخذت من تقاليد الحرمان الكثير ثم أطلقت سراح الغرائز دون ضوابط. فحرمان القرون الوسطى كان يعتبر الجنس إثماً كبيراً اللهم إلا إذا كان من أجل إنجاب الأطفال.

والحضارة المعاصرة أطلقت العنان للغرائز، وأباحت التمتع دون قدرة على تحمل مسؤولية السلوك. وانطلقت صيحات كتلك التى تثيرها الفتاة الأوروبية أو الأمريكية على اعتبار العلاقة بين الرجل والمرأة مسألة تتعلق بالغدد، دون أن تفرق هذه الفتاة بين

الإنسان والحيوان. وانطلق من بعد ذلك أكثر من فيروس يهدد كل من يقترب من الممارسة العاطفية والجسدية اللامسؤولة، والتى تسعى إلى المتعة فقط.

ولذلك تمتلئ أعماق الأجيال الشابة بأسئلة تبحث عن الإجابة التى تساعد الإنسان على الحياة العاطفية والجسدية دون أن يتورط فى بحار الضياع أو المرض.

ومن أجل أن نضع إجابات لتلك الأسئلة، تبدأ هذه الرحلة.

الفصل الثانى:

قصة الحب الأولى
فى حياة ابن الثالثة من العمر

عفواً .

لا بد لنا من هذه المقارنة بين الإنسان والكلب.

ونحن لا نقصد إلى إهانة الإنسان، ولا نقلل من قيمة ما يمكن أن نتعلمه من الكلب كنموذج من نماذج دنيا الحيوان.

وبعد تقديم هذا الاعتذار لا بد لنا من عرض الوقائع.

إن الإنسان منا، عندما يراقب جرواً صغيراً حديث الولادة، يلحظ على الفور الاعتماد الكامل للجرو الصغير على أمه. إن الأم هي التي تطعمه، وترعاه، وتحرسه وتعلمه كيف ينظف نفسه بنفسه، ثم تلعب معه بعضاً من الألعاب التى تلقنه فيها كل المهارات الأساسية المطلوبة من الكلب، مثل الجرى على الفريسة، والنباح عند رؤية الغرباء.

ويمكن لمن يراقب الجرو الصغير أثناء النمو أن يلحظ أن الجرو ينفصل عن الأم، بل وتهمل الكلبة ابنها فور وصوله إلى مقدرة الاعتماد على النفس، ولا مانع من أن يرحل الجرو بعد نضجه بعيداً .

وعندما يأتى ميعاد إخصاب الكلبة، فإنها تتجول فى شوارع الحي الذي توجد فيه؛ حيث يوجد عدد من الكلاب الذكور، وقد يكون من بينها ابنها السابق. وعندما يتهيأ رحم الكلبة لاستقبال جرو صغير، فإن الكلبة تتجاوب مع أى كلب يصادفها، حتى ولو كان ذلك

الكلب هو ابنها الذى كان، وبكلمات محددة فإن ممارسة التواصل الجنسى عند الكلاب هو أمر يرجع إلى الغدد أكثر مما يرجع إلى التقرب والتواصل العاطفى.

وعندما نترك مراقبة الكلاب وننتقل إلى القردة، وهى أقرب فى السلوك إلى الإنسان، وإن كانت تختلف عنه فى الوقت نفسه، فنحن نجد أن مراقبة العلماء للقرود قد أثبتت أن عزل القرد الوليد عن أمه ومحيطه الاجتماعى من القرود، هذا العزل المنفرد يفقد القرد أى رغبة فى التواصل العاطفى أو الجنسى عندما ينضج. ويحتاج العلماء إلى جهد صعب لإعادة تدريب مثل هذا القرد على التواصل العاطفى أو الجنسى، وهذا يدلنا على أن بعضاً من أعضاء المملكة الحيوانية غير الإنسان، يحتاجون إلى التجاوب النفسى العميق فى ممارسة علاقاتهم مع ذويهم وأبناء جنسهم.

وعندما نراقب الإنسان منذ طفولته، فإننا نجد أن مرحلة الطفولة عنده معقدة ومركبة بطريقة لا نهائية.

إن الطفل فى عامه الأول يعتمد اعتماداً كلياً على والدته. ثم يبدأ منذ عامه الثانى فى طلب جزء من الاستقلال. وتستمر هذه النزعة الاستقلالية؛ فنراه محاولاً استكشاف عالمه الصغير، وصانعاً لبعض من أشيائه الصغيرة.

وما أن يبدأ الطفل عامه الثالث حتى ينظر بعين الإعجاب العميق لوالديه. إنه يدخل فى رحلة جديدة من العاطفة العميقة مع الوالدين، ويتقرب إليهما بإسراف شديد، ويعتقد أنهما أكثر الناس جاذبية وقوة وحكمة. ويتمنى الطفل من أعمق أعماقه أن يكون مثل الوالدين، لذلك يقلدهما كلما استطاع، ويتشرب بعينيه كل ألوان السلوك الذى يسلكه الأب أو تسلكه الأم، وكأن السماء قد زودته برادار حساس مهمته أن يلتقط من الأب والأم ما يستعد به لمرحلة النضج والرشد، وتستمر تلك الرحلة من عام الطفل الثالث حتى العام السادس.

إن الطفل الولد _عن طريق مراقبته لوالده _ يعرف أن قدره أمامه، وأنه سوف يكبر وينضج ليصير رجلاً ، وهذا ما يدفع الطفل إلى الاهتمام العميق بقدرات والده العضلية، وكذلك القدرات المختلفة للأب وأصدقاء الأسرة من الرجال.

إن الطفل الولد من عمر الثالثة لا يفكر فى اللعب بالعرائس كما كان يفعل فى عامه الثانى من العمر، بل يفضل اللعب بنماذج السيارات الصغيرة، ونماذج الجرارات، ويتظاهر بأنه يقود سيارة خيالية، ويقلد الأب فى أى سلوك. وإذا قام الطفل باللعب مع أقرانه "لعبة العائلة" أو "لعبة البيت"، فهو يطلب لنفسه دور أبى الأسرة، ويتظاهر بأنه ذاهب إلى العمل بعد الإفطار، ويتظاهر بعودته إلى المنزل عند العشاء، ويلعب تمثيلية من

يجلس مع الأطفال ليناقشهم فى قواعد السلوك، ويتحدث مع الطفلة التى تمثل دور الزوجة وكأنه يناقشها فى أسلوب إدارة البيت، فإذا اشتكت له من الأبناء؛ فإنه يوجه اللوم والتأنيب إلى الأطفال الذين يلعبون دور الأبناء.

إن الطفل يلعب هذه الألعاب ليدرب نفسه استعداداً لمرحلة الرجولة والطموح إلى نضجه المستقبلى.

وإذا ما تصرف الطفل بغير هذا، فهذا يعنى أنه غارق فى الاضطراب الوجدانى.

وعندما يغرق الطفل فى الاضطراب الوجدانى فهو لا يميل إلى اللعب، بل يهرع فى كل صغيرة وكبيرة ليختبئ خلف ظهر الأم. وقد لا تتفجر فيه اهتمامات بالنضج. والمعاونة النفسية لهذا الطفل تصبح ضرورية، شرط أن يكون المعالج النفسى أميناً وقادراً على منح الوقت الكافى للطفل والأسرة ليستكشف أوجه القصور فى السلوك، ويستكشف مع الطفل كيفية بناء السلوك المناسب لعمره.

كان ما تقدم عن الوالد، فماذا عن البنت من عمر الثالثة إلى عمر السادسة؟

إن الفتاة الصغيرة تدرك أنها ستكون إنسانة ناضجة، لها أنوثة متميزة فى يوم من أيام المستقبل، ولذلك فهى تلتقط بعينها وتتشرب بإحساسها كل صغيرة وكبيرة من سلوك الأم. إنها تدخل فى رحلة من تقليد أحلى امرأة فى العالم، وأغنى امرأة فى العالم، وأذكى امرأة فى العالم، إنها أمها.

والفتاة الصغيرة، منذ عامها الثالث، تحاول أن تقوم بالواجبات المنزلية، فإن وجدت أمها تستخدم المكنسة الكهربائية، فهى تفعل مثلها، وإن وجدت أمها ترعى أخاً أصغر، فهى تحاول أن تقوم برعاية الطفل الصغير بنفس أسلوب الأم. وإن وجدت الأم تستخدم أدوات التجميل، فلا مانع من أن تتسلل بهدوء إلى أماكن وجود هذه الأدوات وتقلد الأم. وعندما تلعب الفتاة الصغيرة مع عرائسها، فهى تعتنى بالعرائس بنفس الطريقة التى تقوم بها الأم برعاية الصغار. وإذا ما لعبت الفتاة الصغيرة "لعبة البيت" مع غيرها من الأطفال فهى تريد أن تلعب دور الأم، وأن ترتدى نفس ملابسها، وتقلد مشيتها، وتتكلم مثلها، وعندما تؤنب فتاة فى الرابعة من العمر العروسة اللعبة؛ فهى تفعل ذلك كما تفعل أمها تماماً .

ويشترك الأولاد مع البنات من عمر الثالثة إلى السادسة فى الاهتمام العميق بالسؤال المتجدد والقديم وهو: "من أين يأتى الأطفال"؟.

وتشعر الفتاة بفرح عارم عندما تعلم أن الطفل الصغير الوليد ينشأ فى رحم المرأة،

وبما أنها ستصير امرأة يوماً ما فهى تفرح بذلك مقدماً وتعتز به.

وقد يغضب الولد بشدة عندما تخبره والدته باستحالة أن يقوم هو فى المستقبل بحمل الطفل فى أحشائه؛ لأن السماء لم تجهزه برحم يمكنه أن يحمل فيه الطفل الوليد، وقد يرد الطفل بتحد كبير: "أستطيع ذلك لو أردت". والأم الذكية والأب الذكى هما من يقولان للطفل فى هذه الفترة من العمر: "أنت تحمل بذرة هذا الطفل فى ظهرك، وعندما تنضج وتتزوج تسافر هذه البذرة إلى بطن زوجتك ليولد طفلك من بعد ذلك".

إن تدريب الأبناء على الاعتزاز بالجنس الذى ينتمون إليه أمر مهم، سواء للولد أو الفتاة. وهذا الاعتزاز بالجنس الذى ينتمى إليه الطفل هو الذى يقلل من انزعاج الطفل؛ لأن الجنس الآخر يستطيع أن يؤدى أدواراً تختلف عن أدوار الجنس الذى ينتمى إليه هو، بل إن هذا الاعتزاز هو الذى يوجه الأطفال من الجنسين إلى تحويل طاقاتهم إلى نهر الابتكار والإبداع وبناء البيوت الصغير بالمكعبات، والرسم، والاكتشافات العلمية.

واختلاف الأدوار بحكم طبيعة الاختلاف الجسدى والنفسى بين الرجل والمرأة، تعالجه بعض المجتمعات البدائية بطريقة قد تبدو ساذجة، لكن لا مفر من أن نذكرها لأنها ذات دلالة. فعند بعض القبائل البدائية عندما يأتى المرأة المخاض وآلام الولادة فإن زوجها يمثل أيضاً أنه يتعرض لآلام الولادة. وكما تصحب النساء المرأة التى ستلد إلى كوخ السيدة التى ستقوم بتوليدها، فإن أصدقاء الزوج يصحبونه إلى كوخ بعيد، ويستمعون للآلام التى يقوم بتمثيلها، إلى أن يأتيهم من يخبرهم بأن زوجة الرجل قد أنجبت مولوداً . وهنا يخرج الرجل إلى زوجته ويفرح معها بالمولود الجديد.

وأؤكد مرة أخرى ضرورة أن يعمل الوالدان على تأكيد اعتزاز كل كائن من الأبناء بالجنس الذى ينتمى إليه، حتى لا يقع الأبناء، عندما يكبرون، فى الاضطراب النفسى، إذ من الممكن أن تشعر الفتاة أن والدها وأمها لم يمنحاها الرعاية الكافية لتفهم دورها فى الحياة، وحتى لا تندفع الفتاة إلى المنافسة المرضية مع الفتيان. وكذلك حتى لا يشعر الفتى بالضيق من أن والده ووالدته لم يقدرا احتياجه العميق إلى الحنان والرعاية. وهذا ما يجعله غارقاً على قوته العضلية وغارقاً فى التوتر النفسى، ومحاطاً بالشك النفسى فى كل عمل يقدم عليه.

والأب والأم عندما يقدمان الرعاية النفسية والاعتزاز بالجنس الذى ينتمى إليه الولد أو البنت من عمر الثالثة إلى عمر السادسة، إنما يقدمان للابن أو البنت الفرصة لفهم طبيعة الأدوار المختلفة فى الحياة المستقبلية.

إن الطفل (الولد) من عامه الثالث إلى عامه السادس يسلك تجاه أمه سلوكًا محببًا ، فهو إذا كان قد اعتمد عليها منذ الميلاد وحتى سنته الثالثة، فإن نظرته لها تتغير. إنه لا يعتمد عليها ذلك الاعتماد الطفولى الذى تغذيه فيه من صدرها، بل هو يحاول أن ينمو وأن يصبح رجلاً مثل أبيه. لذلك تمتلئ عيناه بالنظرات الرومانسية الأم. إنه يبدأ فى حبها كعضو من الجنس الآخر، ويشعر أنها أكبر نساء العالم جاذبية وجمالاً ، ويعلن فى عامه الرابع أنه سيتزوجها عندما يكبر. وقد يسمعه أخوه الأكبر منه فيوبخه قائلاً : "إنك ستتزوج واحدة تتقارب معك فى العمر"، لكن الصغير لا يأبه لكلمات الأخ الأكبر منه، فعيناه تقولان له إن والدته هى أجمل نساء العالم.

ولا يفعل ابن الثالثة أو الرابعة ذلك لمجرد تقليد والده أو لمجرد رغبته فى النضج، ولكن لأن غدده تنمو بشكل يوجه أفكاره نحو الجنس على نحو حقيقى. والطفل فى مثل هذا العمر يحاول أن يرى غيره من الأطفال بدون ملابسهم، وقد يقترح على طفلة من صديقاته أن يتجردا من ملابسهما ليرى كل منهما جسد الآخر. وفى هذا العمر يحاول الولد أو البنت معًا أن يلعبا لعبة المريض والطبيب، فالطبيب من حقه أن يكشف عن جسد المريض، وهذا عذر كاف يقدمه الصغار للكبار عندما يضبطونهم وهم يمارسون تلك اللعبة.

والطفل فى هذا العمر يجب أن ينظر إلى الأجسام الأخرى وأن يلامسها، كما أنه يلمس جسده وأعضاءه بلون من السعادة والسرور.

وبنفس الطريقة تتصرف ابنة الثالثة من العمر. إنها تقع فى عشق أعظم رجل فى العالم، وهو والدها، وهى لا تفعل ذلك لمجرد أن تتشبه بأمها، ولكن لأن غددها تؤثر أيضًا على عواطفها فتبدأ رحلة حب لوالدها.

وعيون الكبار تلحظ، دون جدال، نظرة الحب والمبالغة التى يحيطهم بها الصغار.

إن الطفل من عامه الثالث يحدد طموحه فى الحياة على ضوء أن يصبح فى عظمة والده كما يراها. إن عينى الطفل تضخمان عظمة الأب وتجعلانه عملاقًا . وعينا الطفل تدققان جيداً فى مميزات الأم وصفاتها، وهى تشكل الهدف الرومانسى له.

وقد لا تنتبه الأم إلى أن سلوكها نحو زوجها ونحو ابنها هو الذى يؤثر على الابن الصغير؛ فيختار فى الكبر فتاة تتشابه مع أمه إلى درجة ما: هادئة، حازمة، قنوعة، أو تحب المظاهر، أو غير ذلك من الصفات.

وقد لا ينتبه الأب إلى أن سلوكه نحو زوجته ونحو ابنته هو الذى يؤثر على الابنة؛ فتختار شريك حياتها وفيه من الصفات ما يشابه أباها.

ولا يعنى ذلك أن الشاب عندما يتزوج فهو يبحث عن نسخة طبق الأصل من أمه، كما لا يعنى أن الفتاة عندما تتزوج فهى تبحث عن نسخة طبق الأصل من أبيها.

إن الذى يحدث هو أن نظرة الأبناء الرومانسية من عمر الثالثة إلى السادسة تدفع الأبناء فى الكبر إلى البحث بحنين جارف غير واع عن صفات وخصائص فى الجنس الآخر تتشابه مع صفات الأمهات والآباء.

إن العيون الرومانسية من العام الثالث إلى العام السادس عيون تمتلئ بالحنان والرغبة فى الرعاية. وبما أن الطفل يكبر من الرابعة أو الخامسة، فمعنى ذلك أنه سيحاول أن يتلمس الطريق إلى استكشاف المجتمع المحيط به غير أمه وأبيه. وكذلك تفعل الفتاة. وتبدأ رحلة من الانفصال التدريجى عن الأب والأم. وفى نفس الوقت يختبئ فى العقل الباطن للطفل أو الفتاة لون من مشاعر التنافس والخصومة، فالطفل تختبئ فى عقله الباطن مشاعر التنافس مع أبيه وقليل من الخصومة. إنه يحب أمه ويغار عليها، وهو يجد أن والده ينافسه فى ذلك. والطفل غير قادر على الاستئثار بأمه لنفسه، وهذا يحبطه قليلاً ويحرك غضبه من أبيه لأنه منافس ناضج له، والطفل يخشى أن يعتدى عليه الأب، لذلك يندفع قليلاً خارج دائرة العلاقة العميقة مع أمه. إنه يحاول استكشاف الفروق بين الجنسين، ويحاول أن يستكشف نوعه كذكر، وأن يتعرف على غيره من الذكور والإناث. لذلك تنتشر بين الأطفال فى العامين الخامس والسادس "لعبة الطبيب" الذى يكشف على غيره من أقرانه كمرضى، وتنتشر "لعبة البيت" حيث يمارس الطفل دور الأب الذى يسيطر ويأمر وينهى. إن مثل هذه الألعاب تنفس عن غضبه.

والفتاة تمر أيضاً بنفس المشاعر نحو أبيها. إنها تلاحظ أن الأب يفضل الأم عليها، والأم هى الأنثى المتفوقة فى نظر الطفلة. وتبدأ الفتاة فى استكشاف نوعها كأنثى والتعرف على الفروق بين الأنثى والذكر.

وتسرق مثل هذه المخاوف من الطفل الصغير سعادته الرومانسية، ويغرق فى قليل من الحزن، ويتقلب على نيران عدم الرضا. وتتقلب مشاعره تجاه الأشياء وتجاه الطعام. فهو قديماً كان يحب لوناً معيناً من الطعام، وينقلب هذا الحب إلى كراهية، بل قد يصيبه الإعياء بعد تناوله. ومثل ذلك التقلب فى العواطف قد يتجه أيضاً إلى الأماكن، فالطفل قد يكره مكاناً كان يحبه من قبل، وقد يتعجب الأب من أن ابنه انقلب من حب صديقة معينة إلى كراهية لها.

وما إن يصل الطفل إلى السابعة أو الثامنة حتى تتوقف مشاعره نحو أمه عن

الرومانسية. فهو لا يريدها أن تقبله، ويطلب منها أن تعامله كإنسان ناضج.

وينقلب الحب القديم للأم فى العام التاسع إلى نفور من الجنس الآخر. ويتهم الجنس الآخر بالسخافة، ويعلن اشمئزازه من كل البنات، وقد يتأفف من رؤية مشاهد الحب فى التليفزيون.

وبين السادسة والحادية عشرة من العمر يدخل الطفل فى ألعاب البيت أو لعبة الطبيب الذى يكشف على المرضى. إنه يكف عن استكشاف آفاق الجنس الآخر أو الفروق بين الجنسين. ويتأكد ذلك عند الأطفال الذين ترعرعوا فى أسر محافظة صارمة التقاليد.

وما يحدث للفتى يحدث أيضاً للفتاة، إنها تتخلص من أى اهتمام رومانسى بوالدها، وتحاول أن تكبت كل اهتماماتها الرومانسية، لكنها تحتفظ بالاهتمام بالأنوثة والنظر إلى أمها بعين الاستكشاف، وتنجذب عاطفياً لأبيها. ولا تشعر الفتاة بالاشمئزاز من الفتيان، ولكن يقل الاهتمام من جانبها بالفتيان بعض الشىء.

إن قصة هذا التنافس بين الولد وأبيه، وبين الأم وابنتها، قد تكون غريبة وغير مقبولة من الآباء والأمهات، ولا يتقبل ذلك إلا الذين عملوا فى ميدان التحليل النفسى لأنهم شاهدوا من الأحداث والدلائل لدى الحالات المرضية ما يؤكد ذلك.

إن هذه القصة تدور أحداثها داخل عمق اللاوعى، ولذلك لا تتم ملاحظتها بدقة إلا فى حالاتها الحادة. ولكن هل معنى ذلك أن الطفل العادى يعلن الكراهية لأبيه؟

هل معنى ذلك أن الطفلة العادية تعلن كراهيتها لأمها؟

الإجابة هى: لا.

فالولد يعلن فى أحيان كثيرة إعجابه بأبيه وفخره به.

والبنت تعلن فى أغلب الأحيان إعجابها بأمها وفخرها بها.

ولنا أن نلاحظ أن الأطفال من بعد العام السابع يبدأون فى إخفاء مشاعرهم الرومانسية تجاه الآباء والأمهات، ويتجهون بهذه المشاعر إلى الأبطال الأسطوريين فى الكتب والمجلات وبرامج التليفزيون.

ويتأكد ذلك فى الحوار مع الأطفال فى مثل هذا العمر، حيث يعلن الطفل إعجابه بالأشخاص الأقوياء أو المؤثرين فى المجتمع مثل رجال البوليس، والجيش، ورجال الدين، ويأخذ بتأمل قدرة الحق تبارك وتعالى فى خلق الكون، وغموض العلوم المختلفة، ومحاولة استكشاف آفاق التاريخ والجغرافيا والفلك.

إن الأطفال يندفعون فى هذه المرحلة من العمر إلى التسامى بمشاعرهم، ويجدون

التشجيع والتقبل من المجتمع، ويتجهون إلى الاهتمام بالتعلم والقراءة والكتابة والحساب.

ويدخل الأطفال فى هذه المرحلة فى نوع من الصراع الذاتى مع النفس.

إن كل طفل يحاول أن يقلل من اعتماده على أسرته. وينمو ضمير الطفل بشكل حساس. ويفكر فيما عليه من واجبات وفيما له من حقوق. ويتحدث الطفل عن القوانين والقواعد الأخلاقية والاجتماعية. وألعاب الطفل في هذه المرحلة، هى ألعاب تتميز بالمهارة والقوانين، مثل لعبة كرة القدم والشطرنج، وغيرهما من الألعاب التى تحكمها قواعد محددة. وينبهر الأطفال فى هذه المرحلة من العمر بجمع الطوابع أو البطاقات البريدية (الكارت بوستال) التى تحتوى على مناظر جميلة من بلدان العالم المختلفة، أو يجمع بعض الأطفال الصخور من الشواطئ، أو يقومون بتربية العصافير والحيوانات الأليفة.

ويندفع الأطفال في هذه المرحلة من العمر إلى تكوين صداقات محددة بعدد صغير من الأفراد ويتناقشون معاً فى كل شيء يتعلق بالحى والأسرة. وتتكرر فى أحاديثهم كلمات الوفاء للصداقة. إنهم يتدربون على الحياة الاجتماعية المسؤولة، ويحاولون أن يفعلوا ذلك بعيداً عن رقابة الكبار.

إن النظرة المتأملة الفاحصة لمرحلة العمر الواقعة بين السادسة والحادية عشرة، تكشف لنا عمق عظمة السماء التى خلقت فى الإنسان هذه القدرة على تعلم السيطرة على البدائية، والغرائز، وأن يتدرب الإنسان على التوافق والتفاعل مع المجتمع خارج إطار الأسرة.

إن اهتمام الطفل بنموه الجسدي في هذه الفترة يزداد، ولكن ببطء وكأنه يتفرغ من العام السادس إلى العام الحادى عشر لتعلم فنون الحياة الاجتماعية. ثم يأخذ اهتمام الطفل بنموه الجسدى فى الازدياد من بعد ذلك عندما تبدأ مرحلة المراهقة.

إن اهتمام الطفل ما بين العام السادس والعام الحادى عشر يتركز فى استكشاف آفاق المجتمع والتقاليد والقوانين، وهى ـ كما نعلم جميعاً ـ آفاق مركبة وتحتاج إلى أن يتقن الفرد السيطرة على نفسه. هذا ما يحدث فى الإنسان، وهو بالتأكيد مختلف عما يحدث فى الحيوان.

إن الإنسان ينمو خلال مراحل من التطور المتواصلة والمتنوعة على المستوى الجسدى والمستوى النفسى، ولكن الحيوانات تكبر فقط من الناحية الجسدية دون نمو نفسى ملحوظ.

الفصل الثالث:

ماذا يحدث عندما يهبط الخيال إلى أرض الواقع؟

ما إن تبدأ الطفولة فى النهاية حتى يمتلئ الجسد بفوران موسيقى حاد: إن الجسد يستعد للمرحلة الوسطى من العمر، وتندفع اليقظة إلى غدد النمو عند الإنسان، وما إن تبدأ غدة صغيرة فى الضمور، وهى غدة "الثايموس" حتى تبدأ غدد الخصيتين أو المبيضين فى اليقظة.

ومهمة غدة "الثايموس" هى تلقين كل خلايا الإنسان أسرار حماية نفسها من أى دخيل يهاجمها، وبدء النضج فى الخصيتين أو المبيضين يدل الكائن البشرى على تأكيد انتمائه إلى الجنس الذى ينتمى إليه سواء أكان ذكرًا أم أنثى.

وينمو شعر العانة عند الصبى، وكذلك شعر الصدر، ويزحف الزغب على وجه الشاب ليصير ذقنًا أو شاربًا ، وتزداد نبرة الصوت غلظة.

ويبرز صدر الفتاة وتتحدد ملامح أنوثتها، إن الدورة الشهرية تعلن بدء المرحلة التى ستخوضها الفتاة كل شهر.

ومن الطبيعى أن يعلو اهتمام الفتى بالفتاة. ومن الطبيعى أن تذوب النظرة السابقة إلى الفتاة، تلك النظرة التى كانت تكبت المشاعر فى الفتى، وتكاد تنتهى مسألة التعصب للعب مع الجنس الواحد. فالولد الآن لا يفضل اللعب مع أولاد مثله فقط، بل يفضل أن يضيف إلى صداقاته معرفة أى فتاة من الجنس الآخر، لكن الفتى قد يتحرج من ذلك.

أما الفتاة فى هذه المرحلة فهى أيضًا تتمنى التعرف على الفتيان فى مثل عمرها، لكن الأمر يختلف من مجتمع إلى آخر. ففى المجتمع الذى يحرم وجود أى علاقة بين الشاب والفتاة إلا فى إطار الزواج، نجد المراهقة تملأ خيالها بصداقات لا أحد يستطيع مصادرتها. إنها الصداقة الخيالية مع نجوم السينما والتليفزيون وأبطال القصص العاطفية، وفى الوقت نفسه يتم صقل الضمير الأنثوى بطابع التقاليد السائد فى المجتمع. ونجد بعض الفتيات يتظاهرن بالخجل بطريقة فيها الكثير من الإزعاج لأنفسهن ولمن حولهن، وفى بعض الأحيان يكون الخجل حقيقيًا ونابعًا من الأعماق.

ولأن كبت المشاعر المتعلقة بالجنس الآخر كان شديد الحدة فى الفترة السابقة على البلوغ؛ فإننا نجد أن التعبير عن هذه المشاعر يأخذ درجة من الحدة فى الاتجاه المعاكس. إن الشاب يتفجر بالشوق إلى معرفة الجنس الآخر، فيختار الدخول فى قصة حب مع مدرسة أو نجمة سينمائية أو تليفزيونية، وهو بطبيعة الحال حب من طرف واحد، وحب خيالى. وفى نفس الوقت يختار الشاب رجلاً أكبر منه يعمل فى مجال الإعلام أو الأدب أو التمثيل ليكون مثلاً أعلى له.

ونفس المسألة تصح بالنسبة للفتاة. إنها تختار نموذجًا من الجنس الآخر لتبادله عواطفها، وبطبيعة الحال تكون هذه العلاقة من طرف واحد، وفيها من الوهم وتركيز المثاليات فى هذا الشخص ما يفوق التصور.

ويحدث ذلك للشاب والفتاة، لأن بطل قصة الحب الخيالية قد يكون رقيقًا أو دمثًا أو يخيّل لمن يراه أنه شخص يمكن أن يتحدث معه الإنسان فى كل الموضوعات التى تهم المراهق.

وسرعان ما يهبط الخيال إلى أرض الواقع فيختار الشاب فتاة فى مثل عمره ويخصصها لنفسه _ فى الخيال طبعًا _ كبطلة لقصة الحب أو يتكلم معها فى الخيال، ويصور لها كل ما فى عالمه السحرى الخاص ومستقبله الناجح، وكيف أنها ستقوم بإنقاذه من هذا العالم الجاف جدًا إن هى اعترفت له بالحب.

ونادرًا ما يجد الشاب الشجاعة الكافية فى مثل هذا العمر ليعترف لهذه الفتاة عمليًا بأنه يحبها.

ويستعد لذلك لفترة طويلة. وقد تأتى الشجاعة للشاب لمثل هذا الاعتراف، وقد تتلقى الفتاة مثل هذا الحديث بالسخرية، فيندفع الخجل إلى المشاعر ويتبعه الحرص على الكرامة لتتساقط قصة الحب وكأنها قطع كوب زجاجى تناثر على الأرض.

وكعادة البشر عندما يتغلبون على الخجل بالتجربة، فإن الشاب فى بداية مراهقته يتنقل من قصة خيالية إلى قصة أخرى فى لمح البصر. وإذا ما نجح فى تحديد موعد مع فتاة من الجنس الآخر فليس الهدف أبداً هو أن يفوز بقبلة أو لقاء مكتمل بين رجل وامرأة، إنما الهدف هو أن يستكشف مدى تقبل الجنس الآخر له. إن الشاب فى بدء مرحلة المراهقة ينقل إعجابه المبالغ فيه بأمه إلى الفتاة التى يختارها كبطلة لقصة الحب. وتمتلئ مشاعره بالرغبة فى حمايتها ومنحها كل الحنان ويتمنى أن يمتلك الإرادة التى يكسب بها كل ما يوفر له ولها حياة مثالية تملأ النفس بالطمأنينة، وهذا ما نسميه نحن بالناحية النبيلة فى الحب.

ومن أجل أن يحقق المراهق لنفسه ولمن يحب حياة سعيدة؛ فهو يلتفت إلى العالم المحيط به، ويحاول إنجاز بعض من الأعمال التى توفر له دخلاً ، بل إنه فى مثل هذا العمر يبدأ فى استكشاف آفاق المستقبل وماذا يريد أن يكون. إنه يتساءل عن العلوم المختلفة، والمهن المختلفة التى يمكن أن تساعد الإنسانية كلها.

إن هذه الروح المثالية كان لها جذور خشنة وغير ناضجة عندما كان المراهق فى الثامنة من العمر، أما الآن وهو فى قلب مرحلة المراهقة فهو يعمق من روحه المثالية، ويبحث عملياً عن مجالات الهوايات والقراءات والأبحاث التى تؤهله للمزيد من النضج والإنتاج والابتكار.

إن الشاب فى عامه الخامس عشر لا يحلم فقط بأن يكون إنساناً منتجاً ، بل هو يحاول ذلك ويتمنى فى قرارة نفسه أن يحقق فى عامه العشرين قدرة من الاستقلال الاقتصادى عن أسرته. وكثير من الأعمال الروائية العالمية العظيمة، وكذلك المؤلفات الموسيقية واللوحات الفنية والاكتشافات العلمية، تم إنجازها فى المرحلة الزمنية الواقعة بين المراهقة والنضج.

هكذا يفكر الكائن البشرى فى استكمال حياته العاطفية، إنه يفكر فى الجمال والإبداع والاختيار والنمو والإنجاز. ويحرك كل ذلك ما نسميه الدخول إلى عالم الحب. إن الإنسان ينجذب نفسياً قبل الانجذاب الجسدى، بينما الحيوان ينجذب إلى أى عضو من الجنس الآخر من نفس فصيلته لمجرد حلول موسم التزاوج. والإنسان يتميز عن الحيوان بأنه يألف شريك تجربته العاطفية من الجنس الآخر. إن هناك المشاعر والأحاسيس والروابط العميقة التى تجعل الإنسان مستمراً لسنوات فى الارتباط العميق مع شريك حياته من الجنس الآخر.

لكن ماذا عن الحب الأول؟

إن المشاعر تجعل الشاب فى عامه الخامس عشر يفكر بعاطفة جياشة فى محبوبته، وكذلك الفتاة تفكر بعاطفة فوارة فى حبيبها.

إن كلاً منهما يحلم لساعات طويلة بكلمات خيالية ومناقشات عن الحب والجمال والإخلاص والمستقبل. ويرى الشاب فتاته أجمل نساء الأرض وأكثر حناناً من الملائكة، وهى رقيقة كأنها مصنوعة من أوراق الورد. وآه من أى شىء يثير ألمها، وآه من أى خلاف حول أبسط الأشياء: إنه يولد الإحباط. وآه من أى تأخير منها أو غيابها، وآه من كمية الآلات الحادة إن أظهرت الفتاة أى اهتمام بشاب آخر.

وينقلب كل هذا الألم إلى عميق الفرح الغامر إذا انجلت تلك الأخطاء، وإذا تمت إزالة سوء التفاهم؛ فالسعادة لا حدود لها، وإذا اقترب ميعاد رؤيتها؛ فالسرور مع دقات القلب الفرحان يملآن النفس، والخيالات لا تنتهى من تحت جفون الشاب. إنه يحلم بكوارث غير عادية تمر بحبيبته، ويتقدم لإنقاذها ويحرز _فى خياله طبعاً _شهرة لا حدود لها، وتقف أمام كاميرات التليفزيون لتصور هذا الإنسان النادر الوفاء.

والمسألة نفسها تصح بالنسبة للفتاة فى عامها الخامس عشر، فهى تمر بمثل هذه الخيالات الرومانسية ونوبات الغضب ونوبات الفرح.

لكن ما الذى يجعل الشاب يختار فتاة معينة من بين عشرات الفتيات ويقول لنفسه: "هذه هى التى أحبها"؟

وما الذى يجعل الفتاة تختار شاباً معيناً من بين عشرات الشباب وتقول لنفسها: "هذا هو الذى أحبه"؟

لقد غاص المحللون والأخصائيون النفسانيون فى أعماق البحار المظلمة للشباب والفتيات، وقرروا أن ما يحدث من اختيار سببه بعض الصفات المشتركة فى المظهر الخارجى بين الشاب الذى تختاره الفتاة وبين والدها. وما يحدث من اختيار عند الشاب لفتاة معينة هو جزء من الصفات المشتركة فى المظهر الخارجى بين أمه وبين هذه الفتاة. إن هذا هو الدافع الذى يجعل الشاب يقول لفتاة ما: "أنت من كنت أبحث عنها"، وهذا ما يجعل الفتاة تهمس لنفسها: "هذا هو من كنت أبحث عنه". إن مشاعر الحب النائمة فى أعماق الشاب أو الفتاة تستيقظ. لقد أحب الشاب أمه أثناء طفولته حباً لا حدود له، لذلك فهو يختار من تشبهها ولو بالمظهر، كفتاة أحلام، بينما يسلك هو كسلوك أبيه الذى رآه أعظم رجال العالم أثناء الطفولة.

والفتاة تسلك كسلوك أمها لأنها أثناء الطفولة رأت هذه الأم كأعظم امرأة فى العالم، وتختار الفتاة لنفسها حبيبًا فيه بعض من سمات والدها لأنه أعظم رجل فى العالم. هذا ما رأته فى طفولتها.

إذن ليست الغدد التى تنمو هى الدافع الأول فى الإنسان لعلاقته بالجنس الآخر، ولكن الصورة الأولى بشكلها عن والديه هى التى تعبر عن نفسها بشكل آخر لحظة اختيار شريك للعمر أو بطل لقصة الحب.

إن الطفل فى سنواته الثلاث الثانية _ من عمر ثلاث سنوات إلى ست سنوات _يدخل فى علاقة خيالية لها أبعاد مثالية مع والده ووالدته. إنه يرى والده كأشجع رجل فى العالم، ويرى أمه كأجمل امرأة فى العالم، وكذلك الفتاة. إن الأب والأم فى نظر الطفل لا يتعبان أبدًا من كثرة العمل من أجل أطفالهما. فالوالد يأتى بالأموال من العمل لنفع زوجته وإصلاح أولاده. ويرى الطفل والده وهو يعبر عن حبه لزوجته وأولاده بأن يوفر لهم كل ما يستطيع، وبأن يجعلهم يعتمدون عليه فى حل مشكلاتهم، وهو يرغب فى أن يقضى وقته الطيب معهم. ويرى الطفل والده وهو على الاستعداد للدفاع عن زوجته وأولاده من أى مكروه، ويرى أن والده يحتضن زوجته بحنان ويحاول أن يصلح الأشياء المكسورة أو التى تحتاج إلى إصلاح بالمنزل، وأن يسهم فى عمل البيت بتحريك الأثاث الضخم.

والطفل يرى الأم جميلة وكاملة، فهى تحضر الطعام لزوجها وأطفالها عندما يجوعون، وتسأل عن صحة كل فرد منهم، وتأتى لهم بالملابس الشتوية إذا ما أصبح الجو شتاءً، وتسعفهم وتمرضهم، وتواسى أى إنسان منهم إذا حدث له أى أذى، وتظهر الإعجاب الرومانسى للزوج، وتفخر بأنها اختارته من بين كل الرجال الآخرين لتعطيه كل حبها وحنانها.

بل إن الطفل عندما يرى الخلافات بين الأب والأم يندفع إلى الخوف، ويرجوهما أن يزيلا هذا الخلاف. وعندما يسمع كلمة الطلاق تتردد فى المنزل؛ فهو يبكى ويصرخ، ويطلب من الاثنين أن يبقيا معًا ، وأن يصلحا من أمورهما معًا ؛ لأنه يتخيل أن أمنه الكامل نابع من وجودهما معًا . والطفل يعتقد اعتقادًا راسخًا أن العلاقة الجنسية بين أمه وأبيه هى علاقة رومانسية ومسؤولة لأنه رأى مثل هذه العلاقة أو سمع عنها فى إطار كلمة "الزواج". والطفل لا يتخيل وجود علاقة بين رجل وامرأة خارج الزواج، وعندما يكبر وتزداد قراءاته ومعرفته أثناء النمو؛ فهو يعلم بوجود العلاقة بين الرجل والمرأة خارج الزواج، لكنها علاقة محرمة دينيًا واجتماعيًا .

إن المراهق يتعلم من طفولته. هذا هو الفارق بين العلاقة المشرقة الكاملة التى تتيح للرجل والمرأة لقاءً جسديًا ونفسيًا وعاطفيًا وهى الزواج، وبين أى علاقة أخرى هى فى نظره غير مشرقة.

ومن جيل إلى جيل تنتقل فكرة "الأسرة الطيبة" أو فكرة "الأسرة المزعجة المفككة".

وكل منا يستطيع أن يفتح ذاكرته ليرى أمًا كانت ترتدى الملابس المبالغ فيها لإظهار أنوثتها، ولن يفاجأ عندما يرى ابنة هذه المرأة ترتدى فى شبابها مثل هذه الملابس المبالغ فيها لجذب انتباه كل الرجال. إن الفتاة تأخذ من أمها الاعتقاد بقيمة الملابس وجدواها.

وابنة الرجل الهارب من منزله، والذى لا يمارس مسؤولية رعاية أسرته، لن تجد فى كبرها أى إعجاب عاطفى إلا بالشباب الذين يشبهون والدها. إنها لن تستجيب عاطفيًا إلا لوغد أو نصاب، وسيصبح كل شاب متزن غير مقبول لديها. وقد لا تتزوج على الإطلاق. وقد تتطرف وتتزوج وتحافظ على زواجها مع درجة عالية من التوتر.

وإذا كان والد الفتى رجلاً غير مسؤول أو هاربًا من أسرته معظم الوقت، فالفتى ينقل فى كبره أسلوب أبيه. وإذا كانت والدته ذات شخصية رقيقة حساسة فقد يرفض أسلوب والده، ويصبح زوجًا مسؤولاً لدرجة مبالغ فيها؛ لأنه يقاوم رغبة دفينة فى تقليد والده، وبذلك يكون الآباء والأمهات قدوة للأبناء والبنات، وعلاقات الآباء والأمهات هى التى ترسم بصورة كبيرة توقعات الأبناء عن فكرة الزواج.

الفصل الرابع:

المراهقة هى عمر العبقرية

فوجئ الأب بأن مدرسة ابنه تطلبه فى عمله تليفونياً لتخبره بضرورة الحضور الفورى إلى المدرسة.

وسألها الأب بتوتر: "هل أصاب ابنى مكروه"؟

أجابت المدرسة بحدة مبالغ فيها: "جسدياً لم يصب ابنك بشىء، ولكن أخلاقياً يحمل ابنك أكثر من ميكروب للفساد".

وأغلق الأب سماعة التليفون بضيق شديد، واستأذن من رب العمل ليذهب إلى المدرسة. وهناك طلب لقاء المدرسة التى طلبته تليفونياً ، ووجدها متزمتة، حادة الطباع، وقدمت له قصاصة من مجلة نسائية تحمل صورة لإعلان عن الملابس الداخلية للنساء، والصورة تظهر بوضوح النصف الأسفل للمرأة وهى ترتدى هذا النوع من الملابس المعلن عنها. تساءل الأب بضيق: "وماذا فى هذه القصاصة"؟

قالت المدرسة وكأنها تحكى فضيحة ضخمة:

"لقد ضبطت ابنك الذى لم يتجاوز العاشرة وهو يدعو زميلته لرؤية هذه الصورة، وهذا فساد".

ضحك الأب ضحكة بسيطة وقال للمدرسة: "دعينى أعالج هذا الموضوع بطريقتى، ولا تعاقبى الطفل على ذلك".

وقال الأب لنفسه: "لو أن المدرسة قرأت كتابًا واحدًا عن النمو النفسى للأطفال لما تصرفت مثل هذا التصرف".

وأضاف الأب لنفسه: "إنها لا تعلم أن والدى قام بعقابى بدنيًا لمجرد أننى فعلت مثل ابنى تمامًا ، وأنا فى المدرسة المختلطة، واشتكى منى مدرس الحساب لأنى أخرجت صورة لنجمة سينمائية ودعوت زميلاتى لمشاهدة تلك الصورة".

إننا نستطيع أن نفهم لماذا ترتبط صورة الجسد العارى بالجنس، ولماذا يفكر كثير من الناس بأن الجنس أمر مثير للخجل والعار، بل هو فعل خاطئ وشرير، رغم أن جميع الناس يضحكون للنكتة غير المهذبة ويتبادلونها سرًا .

وأى مراهق قد ينظر إلى أبيه وأمه فى مجتمعه ويهمس بمبالغة: "إنهم يعرفون أن الجنس مسألة طبيعية جدًا فى حياة الإنسان. إنهم يحرمون كل شىء، لأنهم اعتادوا على تحريم كل شىء، رغم أنهما يتبادلان النكات غير المهذبة ويضحكان لها معًا بصوت مرتفع".

وهنا أحب أن أقول إن استنكار الكلام الفاضح أو السلوك الخارج فى مسألة الجنس هو أمر اجتماعى قديم قديم، إنه أقدم حتى من التاريخ البشرى المكتوب.

إذن فالكبار ليسوا وحدهم الذين يحرمون الحديث الفاضح أو السلوك الخارج، ولكن المجتمع البشرى كله يتفق على ذلك، وإن تنوعت الاختلافات من مكان إلى مكان، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن زمان إلى زمان.

إن المجتمع البشرى اتفق عبر تاريخه الطويل على أن العلاقة الجنسية هى أمر مباح فى إطار الزواج فقط، ومن خلال هذا الاعتقاد توارث الأبناء عبر العصور وجهة النظر هذه، رغم ما يثيره الفضول لدى كل طفل فى أن يرى التغيرات التى تطرأ على جهازه التناسلى، سواء عند ظهور شعر العانة، أم عند اكتشاف الأحلام الجنسية المثيرة المصحوبة بقذف الحيوانات المنوية، أم من خلال بلوغ الفتاة للدورة الشهرية والتغيرات المصاحبة لمشاعرها أثناء البلوغ. هذا بجانب التحذيرات التى يتلقاها المراهق عن الاستمناء والعادة السرية. كل ذلك بالإضافة إلى خوفه من غضب والده أو والدته.

في الطفولة يبدأ إحساس الطفل بأن ما يخرج من الجهاز التناسلى هو البول، وهو يتعلم أن ذلك أمر قذر يجب أن يفرغه فى المرحاض أو فى "المقعدة"، وهكذا تختلط فكرة القذارة بفكرة وجود هذه الأجهزة التناسلية. ومن بعد ذلك يتلقى الطفل ثقافة المجتمع الذى يحيا فيه. وهى ثقافة تحرم فى كل المجتمعات العلاقة بين الأب وابنته، وبين الأم وابنتها،

وبين الأخ وأخته، ويطلق عليها فى المجتمعات البشرية كافة "الزنا المحرم". وهذا التحريم لا يشمل المجتمعات المتدينة وحدها، ولكنه يمتد أيضًا إلى المجتمعات البدائية، بل إن هناك قوانين شديدة العقوبة على أى رجل يتزوج أمه أو ابنته أو أخته، ويصل التحريم أيضًا إلى الزواج من العمات أو الخالات أو الأعمام أو الأخوال.

ولنا أن نلحظ أن مثل هذا التحريم لا يوجد فى عالم الحيوان، وهذا فارق أساسى مهم بين المجتمع الإنسانى والمجتمع الحيوانى. وهناك فارق آخر قد لا يلحظه أحد، وهو أن البشر فى غالبية مجتمعات العالم يرتدون ما يغطى الأعضاء التناسلية ببعض الملابس. ووجد علماء دراسة السلوك الإنسانى أنه فى بعض من المجتمعات البدائية القليلة والنادرة الوجود في زماننا، قد لا يرتدى الرجل أو المرأة ما يستر الأجهزة التناسلية. ولكن الرجل إذا ما سار فى طريق وقابل كائنًا من جنس آخر يسير فى نفس الطريق فإنه يوليه ظهره.

وفى السنوات الخمسين الأخيرة، أراد بعض من البشر أن يقيموا مستعمرات للعراة، ولكن هذه المستعمرات باتت مهددة بالانقراض لتناقص عدد الذين يؤمنون بهذه الفلسفة ولا يجدون لها استمرارًا .

إن خاصية الرغبة فى ستر العورة موجودة فى الإنسان بشكل ما.

ولنا أن نلاحظ أن الإنسان ما إن يبدأ عامه السابع حتى يبدأ فى احترام خصوصية المكان الذى يخلع فيه ملابسه، ويحاول أن يغلق الحمام عندما يستحم، ويحاول أن يغلق دورة المياه أثناء قضائه لحاجته.

ولا يقتصر الأمر على رغبة الطفل فى الخصوصية أثناء عريه سواء أكان يقضى حاجته أو يستحم، بل إنه يرى ملامح من الضيق على وجه والده أو والدته عندما يعرض التليفزيون بعضًا من المشاهد التى تطول فيها القبلات بين البطل والبطلة. يحدث ذلك حتى بين الآباء والأمهات الذى يتعمدون ألا يسربوا إلى لاوعى الأبناء أى شعور بالسوء أو القذارة نحو الجنس.

وقد يقول قائل: "أليس بوسع الإنسان المتحضر المتعلم أن يتخطى هذا الإحساس بالخجل أثناء العرى أو أثناء ممارسة الجنس"؟

إننا نرى أن هذا ضد طبيعة الحياة الاجتماعية، والإنسان كائن شديد التعلق بالحياة الاجتماعية. صحيح أن الإنسان قد يتعلم كيفية الحديث العلمى عن الجنس فى قاعات دروس الطب وعلم النفس، ولكن من الصحيح أيضًا أن الإنسان يشعر ببعض من الضيق إذا دخل عليه أحد وهو يستحم.

إن الإنسان ليس مجرداً من المشاعر. ومشاعره يتسق فيها المنطق والأخلاق فى نسيج واحد. وأى خروج عن الأخلاق الاجتماعية السائدة يسبب للإنسان بعضاً من الوساوس.

إن الإنسان لا يحاول أن يقرر للآخرين ما المناسب أو الصحيح، ولكن الإنسان كائن اجتماعى يحب أن ينشأ وينمو على احترام عميق للأسس والقواعد الاجتماعية.

وقد يقول قائل: "ولماذا تزدهر إذن تجارة الكتب التى تتحدث حديثًا مكشوفًا عن العلاقات بين الرجل والمرأة؟ ولماذا تتخصص جرائد ومجلات بنشر التقارير والتحقيقات المصورة الملونة عن العلاقة بين الرجل والمرأة"؟

ونقول إن علينا أن نعرف أن الذين يستثمرون أموالهم فى مثل هذه التجارة صاروا اليوم يعانون من قلة فى الزبائن، والسبب هو اكتشاف الجمهور فى الغرب والشرق أن ما يبيعه هؤلاء التجار هو الوهم.

صحيح أن الكبار، حتى المثاليون منهم، يطالعون بعضاً من هذه الكتب أو المجلات فى بعض الأحيان بدافع من الفضول، ومن الصحيح أيضًا أن الإنسان المتوازن نفسيًا يعرف أن هذه المجلات وتلك الجرائد هى تجارة من خداع.

وعندما يعثر المراهق بين أوراق أبيه على مجلة من تلك المجلات قد يقول: "ولماذا يتحدث الكبار عن مثل هذه المجلات بعدم تقدير، ثم يشترونها"؟

وأقول إن داخل كل إنسان مهما نضج طفولته ومراهقته. ففى الطفولة كان الطفل يعبر عن حبه لأمه، وكان الفتاة تعبر عن حبها لأبيها. كان هذا الحب له سمة رومانسية غلابة. ومنذ العام السابع والطفل يختلس النظر إلى الأعضاء التناسلية، ويحاول أن يعرف الفروق بين الرجل والمرأة. ولا مانع بطبيعة الحال من أن يضحك المراهق للنكتة غير المهذبة، وأن يطلق التعبيرات الساخرة على الصور شبه العارية، وعندما يقابل المراهق قيود المجتمع؛ فإنه يتمرد ظاهريًا على هذه التقاليد ولكنه يحترمها فى النهاية، ورغم ذلك فهو يضحك لسماع تلك النكتة أو لرؤية المشهد المبتذل، تماماً كما يضحك وهو يرى رجلاً انزلق على قشرة موز فى الطريق. إن هذه الخشونة التى يقابل بها المراهق الصورة المبتذلة أو النكتة غير المهذبة لا تدل على الفساد الخلقى، بل هى ضحكات لمجرد التنفيس عن الكبت.

وقد يقول قائل: "إن الكبت هو حالة من القمع، وأى خروج عنه يسبب الإحساس بالذنب". هذا صحيح تماماً . إن الكبت حالة من القمع، أما الإحساس بالذنب فهو عقاب يقوم به الإنسان لنفسه فى حالة إحساسه بالخروج عن المألوف. ولا بد لنا أن نقول إن الأجيال الجديدة صارت أقل إحساساً بالذنب من الأجيال السابقة. لقد كانت الأجيال منذ

خمسين عامًا تقيم الكثير من الأسوار حول الكثير من الأمور، ثم خفت قبضة المجتمعات قليلاً بخصوص الحديث عن المحرمات. واندفع الشباب الأوروبي والأمريكي في موجة من الانحلال سميت "الحرية الجنسية"، وكان شعارها: "إن من حق أي اثنين أن يمارسا الجنس ما دام ذلك لا يضر أحدًا". ولكن ثبت باليقين أن تلك "الحرية" صارت لها عواقب وخيمة، وصارت هناك أمراض لا يعرف أحد علاجًا لها. لقد ظن البعض في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات أن اكتشاف أقراص منع الحمل هو اكتشاف لحارس جديد يخبئ أخطاءنا من محاكمة ضمير البشرية العام. فلن تعاني فتاة من الحمل غير الشرعي، ولن يعاني مجتمع من العار الذي كان يسببه ميلاد عشرات من الأطفال غير الشرعيين، ولكن الذين ظنوا مثل هذه الظنون تبين لهم بعد سنوات من ممارسة العلاقات غير المستقرة أن نهاية هذا الطريق هي الخراب.

إن الحب في جوهره الإنساني ليس ممارسة التواصل الجسدي فقط، ولكنه أولاً وأخيرًا القدرة على رعاية الآخرين.

إن تاريخ البشرية يحفل بالفترات التي انطلق فيها الرجال والنساء إلى ممارسة إرواء غرائزهم دون مراعاة للمسؤولية الاجتماعية والإنسانية. وكانت النتيجة دائمًا ظهور أمراض غير قابلة للشفاء.

صحيح أن تلك الفترات سجلت لوحات فنية صنعها الخيال مثل لوحات مطاردة الرومان للحوريات، وصحيح أن هذه الفترات تركت آثارًا أدبية مثل كتاب "فن الهوى" لأوفيد، ولكن هذه الآثار الفنية لا تحكي عن الشفاء الاجتماعي المصاحب لظهور مثل تلك الأعمال.

إن الذين يحاولون الأخذ بمبدأ الانطلاق في مجال النزوات، يريدون القيام بتجزيء العلاقات الإنسانية، فيأخذون اللذة ويتناسون المسؤولية. وأغلب الذين يأخذون باللذة وحدها يدفعون الثمن بالآلام النفسية.

وأغلب الذين يوازنون اللذة مع المسئولية هم الذين يمكن أن نصفهم بالنضج العاطفي، وأنهم لا يقعون بسهولة أسرى تلك العلاقات الطارئة؛ لأنهم بإحساسهم العميق بالمسؤولية يبحث كل منهم عن شريك للعمر ليتزوجه وينجب أطفالاً، ويعيش حياة أسرية واجتماعية منتجة.

ودعوني أقل إن هؤلاء الأشخاص هم الذين اكتشفوا أثناء طفولتهم أن الزواج هو إطار سعيد لعلاقة متوازنة مع الجنس الآخر.

وإذا كان الربع الثالث من القرن العشرين قد تميز بالإسراف الشديد في ممارسة

الشباب والبنات لعلاقات جسدية غير محسوبة العواقب فى أمريكا وأوروبا؛ فإن نداء العفة يغمر العالم الآن فى الربع الأخير من القرن العشرين. وذلك أن العيادات النفسية تشهد الكثير من متاعب الشباب الذى يحيا فى علاقات طارئة ومتعددة، كما أن متاعب الشباب التى تظهر فى تلك العيادات يكون سببها عدم التوافق النفسى بين الشاب والفتاة، لأنهما يعيشان معًا دون زواج. إن بعضًا منهم يتزوج بالفعل، والبعض الآخر يعانى من إحساس شديد بالوحدة والحزن لأنهم عاشوا فى تجربة الحياة مع فتيات أو شبان دون زواج، وظن كل من خاض هذه التجربة أنه سوف يجد بعضًا من الصفات التى يحبها فى شريك هذه الحياة، لكنه لم يجدها. وأحد أهم أسباب الانفصال فى هذه الحالات هو أن المرأة عندما تشعر بالحب العميق مع رجل ما فإنها تتمنى أن تتزوجه، ولكن الرجل قد لا يشعر بمثل هذا التجاوب العاطفى فيفضل الانفصال على الارتباط بامرأة لمجرد أنها تريده.

وعندما تتحطم العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة؛ فإنها تترك جراحًا عاطفية مؤلمة لفرد واحد هو الذى يعانى من مرارة الافتقاد لشريكه فى التجربة العاطفية. وغالبًا ما يخفف هذا الشخص من جروحه عن طريق حماية نفسه من الدخول مرة أخرى فى علاقة عميقة لمدة سنوات بعد صدمة التجربة الأولى، ثم يتجه من بعد ذلك إلى تجربة أخرى يستفيد فيها من أخطاء تجربته الأولى، وغالبًا ما يوفق إلى الزواج.

وإذا كانت المجتمعات الغربية الآن تتقبل اجتماعيًا ارتباط الشاب بالفتاة دون زواج، فإن الطلبة الأمريكيين _ وكذلك الطالبات _ صاروا لا يفضلون الارتباط غير المؤدى إلى زواج، ولا يفضلون العلاقات الجسدية الكاملة دون زواج. إن تقرير "فانس باكارد" لسلوك الطلبة الجامعيين الأمريكيين مليء بوجهة نظر أغلبية من الرجال الذين ينصحون بعدم الخوض فى التجربة الجسدية الكاملة إلا بعد الزواج، وغالبية البنات الساحقة صارت تؤيد هذا الاتجاه.

وهذا يؤكد صحة الاتجاه لحماية النفس من العلاقات الطارئة لأن آلامها النفسية أكثر من فائدتها، وإذا ما حاولنا أن نعرف المستوى التعليمى لمن خاضوا التجارب الجسدية الكاملة فى منتصف المراهقة، سنجد أنهم عاشوا فى عائلات تعليمها أدنى من المستوى الجامعى.

أما إذا كان الأبناء قد عاشوا فى أسر تلقت تعليمًا جامعيًا ، فإن نسبة الأبناء الذين يخوضون التجارب الجسدية الكاملة أقل بكثير. يحدث هذا فى المجتمع الأمريكى الذى

يقال عنه إنه أكثر المجتمعات احتراماً لحرية الفرد.

وإذا تساءل القارئ "لماذا"؟

فإن الإجابة هي:

- إن الوالدين إذا ما تمتعا بتعليم عالٍ؛ فهما يميلان إلى الحزم والصرامة في مختلف الأمور، ويغرسان في أعماق أبنائهما وبناتهما طموحاً وأمنيات كبيرة. ومثل هؤلاء الآباء والأمهات يتوقعون لأبنائهم مستوى تعليمياً راقياً وعالياً، ويملكون نظرة علمية ناجحة يشخصون بها السلوك الحسن المقبول من السلوك غير المقبول.

أما الأمهات ذوات التعليم القليل فلا يعطين أبناءهن مثل هذا الاهتمام.

لذلك، فمن الطبيعي أن تجد لدى الأسرة المتعلمة فرصة لأن تصحب الابن في طفولته إلى المتاحف، وحفلات الموسيقى، وقاعات الرسم. وتمتدح الأسرة نشاط ابنها الثقافي، وتعلمه احترام السلطات، وتقرأ له الأم عن الأبطال.

إن مثل هذه الأسر تعلم الطفل أهمية أن ينشأ الإنسان في أسرة، لذلك لا يفكر هذا الطفل في الكبر _ لا شعورياً _ في إنجاب طفل إلا في إطار أسرة متماسكة.

وهذا لا يعني أن أبناء الأسر الأقل تعليماً غير قادرة على تربية أطفال يحترمون فكرة الأسرة، لا. إن بعضاً من هذه الأسر أنجب قادة وزعماء وعلماء، ولكن الباحثين أثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أن آباء أو أمهات أو أقارب هؤلاء القادة والزعماء والعلماء كانوا يضعون قيمة العلم فوق كل قيمة، لذلك لم ينغمس هؤلاء القادة والزعماء والعلماء في علاقات تسرق منهم الوقت أو تشتتهم عن الهدف.

إن التسامي بالإعلاء بالاهتمامات الجنسية منذ الطفولة وأثناء المراهقة هو الذي يتيح للإنسان التقدم العلمي والأدبي. هذه هي الحقيقة الواضحة لنا، ولم يأتنا أحد بعكسها حتى الآن.

ولنا الآن أن نتناول تفاوت السلوك الجنسي وأنماطه عند الفتى والفتاة.

إن السلوك الجنسي له جانب غريزي فطري، وله جانب آخر ثقافي يتعلمه الكائن البشري من مجتمعه، وفي المجتمعات البشرية غالباً ما نجد الفتى يلعب الدور الفعال في العثور على الفتاة التي تروقه، ويحاول إقناعها بنفسه وبتقبله. وغالباً ما تستجيب الفتاة للحب كطريق للزواج وللشعور أنها محبوبة، وأن هناك من يحتاج إليها، وهي تلعب هذا الدور بمهارة. ولا يعني هذا أن للفتى دوراً إيجابياً وللفتاة دوراً سلبياً، فلكل من الاثنين دور إيجابي ودور آخر سلبي.

فالفتاة التى تختار ملابسها بعناية فائقة، وتحرص على التواجد فى مجتمعات يوجد فيها عدد من الشباب، إنما تلعب دوراً إيجابياً غير مرئى فى مسألة جذب الاهتمام إليها. ويلعب الشاب الذى يعجب بها دوراً إيجابياً ظاهراً فى إبداء الإعجاب بها، إنه يندفع تلقائياً لينظر إليها، ويثير اهتمامها حتى دون أن يعرف شيئاً عن شخصيتها، وهل هى جذابة بالفعل ومناسبة لشخصيته أم لا. وإذا ما تحدث الشاب فهو يتحدث غالباً بروح من المبالغة عن قدراته الاجتماعية وصفاته الشخصية ظناً منه أن ذلك يجذب إليه الفتاة. ولا ينتبه الفتى إلى أن الفتاة تملك غالباً إحساساً واقعياً يخترق إطار الشكل الوسيم ليبحث عن مدى جاذبية هذا الشاب وهل يمكن الارتباط به أم لا.

إن الشاب يندفع أحياناً بغرور، مما يجعل الفتاة تشعر أنه ممل وغير جذاب.

وإذا ما دخل الشاب فى تجربة كاملة مع فتاة _ كما يحدث فى بعض الأحيان فى أمريكا وأوروبا _ فهى تبحث عن قدرته على رعاية مشاعرها، وهل هو قادر على إقامة علاقة عاطفية أساسها الجاذبية الجسدية أم لا.

والشاب فى غالبية الحالات غير مستعد للارتباط العاطفى والزواج إلا من فتاة يهواها بعمق. والمرأة قادرة _ كما قلت _ على التمييز الواقعى بين الرجل الذى يمكنها الاعتماد عليه، وبين الرجل الذى يلعب دور النحلة عندما تقترب من الزهرة رغبة فى بعض الرحيق ثم الهرب. إن الفتاة تعلم أنها تقدم الكثير، لذلك تطلب التجاوب الكامل. ولهذا السبب لا تنخدع الفتاة بسهولة إلا فى المراهقة المبكرة، فهى قد تنخدع فى تلك الفترة بالشكل الوسيم والوجه المقبول.

وهذا يعنى أن المرأة تفضل غريزياً أن تدخر اللقاء الجنسى الكامل للرجل الذى تتوقع أن تحبه للأبد. هذا ما تقوله الأبحاث فى مجتمعات تتمتع بالحرية الكاملة للرجل والمرأة.

والشاب صاحب الوعى هو الذى يكبح جماح غروره فلا يندفع بحثاً عن أى علاقة؛ لأن هناك أيضاً فتيات يمثلن دور الساذجات ولكن لا قلوب لهن، وهواية بعضهن تحطيم قلوب الشباب بعدوانية.

وعندما يخطب الشاب فتاة فهو قد يلحظ كثرة سؤالها له: "هل تحبنى"؟

والسبب فى ذلك أنها تخاف بغير وعى من أن تفقد اهتمام من يحبها، ولا ينبغى أن يجيب الشاب بقلة صبر: "نعم أحبك". إن عليه أن يعلم أن الفتاة تريد أن تتأكد أن علاقته بها تسير إلى الزواج فعلاً.

إن المرأة أكثر واقعية من الرجل. هذا ما أثبتته التجارب رغم أن هذه الواقعية تتغلف

أحيانًا برومانسية شديدة.

ويظهر ذلك بوضوح فى اهتمام الفتاة بحفل الزواج، ولذلك دلالة شديدة على حب المرأة للرسميات.

ونلحظ بعد الزواج أن المرأة تقدس تمامًا تذكر زوجها لعيد زواجهما وعيد ميلادها، إنها تقدس فكرة أن تكون محبوبة وأن يؤكد لها الزوج ذلك.

الفصل الخامس:

التمرد بداية لبناء الشخصية

بين كل ابن وأب هناك حوار سرى، يقول فيه الابن للأب: "لا بد أن أختلف عنك. لا بد أن تكون لى شخصيتى المستقلة. لا بد أن يكون لى رأى يختلف عن رأيك".

ويقول الأب للابن: "لا بد أن تتفوق على إنجازاتى. أريدك أن تكون أفضل منى".

ويرد الابن: "لا داعى لأن تجرنى إلى منافستك. لن أكون كما تريد، ولن أحقق لك أحلامك المكسورة. سأكون شخصية مختلفة عنك فى كل شىء".

ونفس مضمون الحوار بين الأم وابنتها. تقول الابنة: "لم يعد الزمن زمنك. لقد "راحت عليك". أصبحت أنا الأنثى الجميلة المتفوقة. سأكون مختلفة عنك فى كل شىء. ولن أفقدك أبدًا ".

وتقول الأم: "لا بد لك أن تتفوقى فى حياتك. لا بد أن تكون حياتك أفضل من حياتى".

فترد الابنة: "آسفة. إن حياتك كلها لا تعجبنى. لن أحاول تقليدك أبدًا . سأخرج بقطار عمرى عن القضبان التى سار عليها قطار عمرك".

وهذا الحوار لا يدور بالكلمات، ولكن بالسلوك، وفيه يلحظ الأب وتلحظ الأم علامات تمرد المراهق أو المراهقة.

قد يبدأ التمرد والاختلاف من إصرار المراهق على أن تكون وسيلة الترفيه عن نفسه مختلفة، فإذا كان الأب يحب سماع عبد الحليم حافظ وعبد الوهاب وأم كلثوم وفرانك

سيناترا وأديث بياف، فإن الابن يفضل أن يسمع فرقة "الآبا" و "على حميدة" و "مايكل جاكسون". قد يفضل الأب رؤية لوحات "رمبرانت"، لكن الابن لن يفضل حتى "بيكاسو" لو كان الأب يفضله. وقد يؤيد الأب حزباً سياسياً معيناً أو شخصية تاريخية لها بطولة ما، لكن الابن سيبحث عن نقائص هذا الحزب أو نقائص تلك الشخصية السياسية، وسيعلن أنه يسير فى الخط المضاد.

ومن السهل جداً أن يظهر هذا التمرد فى اختيار المجال الدراسى، فإذا كان الأب قد درس الطب فإن الابن يحاول ألا يدرسه فى البداية. وقد يعلن عن هذا التمرد ظاهرياً . وقد يرى أنه من المناسب له دراسة الطب واختيار تخصص آخر غير تخصص الأب. ومثل ذلك يحدث بين الأم وابنتها.

مثل هذه الألوان من التمرد لا تنفى أن المراهق يحترم والده لميزات يراها جديرة بالفخر، وتحترم المراهقة والدتها لأسباب تراها جديرة بالاحترام، وبجانب ذلك يرى المراهق فى سلوك الوالد ما يزعجه ويثيره. إن الأب فى نظر الابن يملك الكثير ويسيطر على الكثير. إن ملابس الأب قد تثير المراهق فيرى أن والده يرتدى أفخر الملابس، لكن هذا الوالد يقول لابنه: "لن أشترى لك السترة الجلدية الغالية الثمن لأنك فى عمر النمو وما يصلح لك هذا العام لن يناسب جسدك فى العام القادم". وقد تقول الأم لابنتها: "من المستحسن أن تأخذى حذائى القديم لأنه يتناسب معك".

هنا تثور ثائرة الابن أو ثائرة الابنة: "لماذا يفضل الكبار أنفسهم على من هم أصغر منهم"؟

وقد يظهر التمرد فى شكل آخر، فعندما يكتشف الابن أن سلطة والده تشمل كل من فى المنزل، فإنه يتساءل: "لماذا يسيطر أبى بهذا الشكل"؟

وعندما ترى الابنة أن سلوك أمها ملىء بالاحتشام فقد تقول: "لماذا تتصرف أمى على هذا النحو من التخلف"؟

ويزداد التمرد فى حالة السيطرة المبالغ فيها من الأب أو الأم.

وهذا التمرد هو فى الحقيقة استكمال لرحلة المنافسة التى بدأت بين الابن وأبيه منذ أن كان فى الرابعة أو الخامسة أو السادسة، وكذلك الحال بالنسبة للفتاة.

إن الابن يستأنف التمرد لأنه صار ناضج الحجم فقط، ويخيل إليه أنه صار ناضج الخبرة أيضاً . إنه يحاول أن يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة. إنه يبدى الرأى مثلاً فى ديكور المنزل. وهو يريد أن تصبح حجرته الخاصة فى المنزل ـ إن كانت له حجرة

خاصة _ أفضل من حجرات زملائه وأقرانه فى منازلهم.

والفتاة تبحث عن نواحى النقص فى إدارة الأم للبيت وتستكملها. إنها تنظر _ على سبيل المثال _ إلى قوائم الطعام الموجودة بالمجلات وتحاول أن تقوم بإعدادها، وتصر على أن يبدأ طعام الإفطار فى ميعاد محدد وأن ترتب المائدة وكأنها أفضل مائدة فى العالم. وقد تلتفت إلى الحمام لتنظفه تماماً . وقد يحصر الابن نفسه فى ترتيب غرفته وكذلك الفتاة.

إنك كشاب تحت العشرين تعرف أنك صرت فى تمام الرجولة أو أدنى من تمام الرجولة قليلاً ، وسيكون لك عملك الخاص، وستستطيع أن تتزوج وأن تكوّن منزلك الخاص، ويزعجك أن يعتبرك والدك ووالدتك ومجتمعك مجرد كائن صغير السن.

وأنت كفتاة تحت العشرين عندما يسألك أحد عن سنك فأنت تزيدين من عمرك سنة، لأن ترغبين فى أن تكونى أكبر عمراً ، وترين أن دورك قد أتى لتكونى تلك الشابة الجميلة التى تجذب عيون الجنس الآخر. وسيأتى من يدق باب قلبك ليسألك أن تكونى زوجة له، وسيكون عندك أطفال، وهذا الإحساس يعطيك الدافع لأن تسلكى بطريقة تشعر معها والدتك أنك تدفعينها جانباً . وقد لا تفعلين ذلك إلا فى لحظات الغضب.

وفى المجتمعات الريفية تجد الابن يقول لأبيه: "لقد تعبت، دعنى أقم بالعمل فى الحقل وحدى". وقد تقول الابنة لأمها: "لقد تعبت طوال الأيام والسنوات، دعينى أقم بأعمال البيت".

يحدث ذلك فى مجتمعاتنا الريفية، بينما يحدث فى المجتمعات الأمريكية أمر مختلف، فعندما لا يستريح الابن المراهق للهجة والده المسيطرة؛ فهو يخرج من البيت، وكذلك تفعل الفتاة. وفى النهاية يحاول الشاب الأمريكى أن يستمر فى التحدى وأن يواصل حياته إلى أن يتقن عمله، ويصبح له دخله الخاص بعد الكثير من تجارب الفشل، وتواصل الابنة الفتاة رحلة التحدى، وتبنى حياتها الخاصة.

وآباء وأمهات هذه الأيام يحاولون بكل الطرق أن يكونوا أقل سطوة وسيطرة على الجيل الشاب. إن الأب فى هذا الزمان يحاول أن يكون متعقلاً فى أوامره للابن، والأب والأم يمارسان فى عصرنا الكثير من الكرم فى قيادة الابن أو البنت. إن إحساس الآباء والأمهات بتشجيع الأبناء صار مرهفاً فى هذا الزمان. وكل منهم يحاول أن يكتم شعوره بنفاذ الصبر، والآباء والأمهات يحاولون كتمان صرخات الرفض لبعض تصرفات الأبناء، ويحدث كل ذلك فى محاولة من الآباء والأمهات من أجل تدريب الأبناء على تعلم قواعد

السلوك المهذب، والأبناء يحاولون الامتثال رغم بعض مظاهر الغضب والتذمر، وليس حقيقياً ما نقرأه عن انحراف كل الجيل الجديد؛ لأن انحراف جيل بأكمله مسألة مستحيلة، وكل ما يحدث أن وسائل الإعلام تضخم فى انحرافات نفر قليل من الأجيال الشابة. إننا لا نرى الأبناء يضربون الآباء، ولا نرى الأبناء يهينون الآباء. إن إهانة الصغار للكبار أمر لا يحدث إلا نادراً ، وتقوم له الدنيا ولاتقعد.

وفى بعض الأحيان يأخذ تمرد الأبناء شكلاً آخر. هذا الشكل يثير انزعاج الأم تماماً ؛ فهى تجد ابنها فى أثناء مراهقته كثير النقد لها. إن الابن يحول ثورته ضد الأب لتصبح نقداً للأم فى مظهرها وسلوكها، وتراه يتفجر بالغضب عندما تذكره أمه بضرورة القيام بواجباته الناقصة.

وهناك شكل آخر لثورة الأبناء ضد الآباء.. إنه عقاب الأبناء للآباء بالفشل الدراسى. إن الأسرة تفاجأ بأن ابنها المراهق يفشل فى الدراسة رغم أنه يملك درجة من الذكاء العالى، ورغم أنه قد نجح فى السنوات السابقة بتفوق، ويكون الفشل الدراسى نتيجة لإهمال الابن لمسؤولياته الدراسية أو لذهابه إلى الامتحان دون أن يقرأ المادة التى يجب أن يؤدى فيها الامتحان، وتفاجأ الأسرة بأن الابن صار كثير الجدل فى الحصة الدراسية مما يجعل المدرسين يضجون بالشكوى منه، ويرفض أن ينفذ أوامر المدرسين. إنه يحول ثورته على أبيه إلى ثورة على المدرس. وأنا لا أتحدث هنا عن الطفل المعدم الذى يذهب إلى المدرسة دون إفطار، ولا أتحدث عن الابن الذى يحيا فى دوامة المشاكل الأسرية، ولا أتحدث عن الابن الذى لا يؤمن أصلاً بجدوى التعليم، بل أتحدث عن ابن تتوافر له الإمكانات ولا ينجح دراسياً .

وقد يتأجل ظهور الفشل فى حياة الابن حتى المرحلة الجامعية، وخصوصاً فى حالات الأبناء الذين يدرسون فى نفس دائرة تخصص الآباء. إن الفشل هنا ينبع من أن الابن يخاف الدخول فى مباراة مع الأب، تماماً مثلما كان يخاف الدخول فى مباراة مع الأب عندما كان فى الخامسة أو السادسة. إن هذا الخوف المتولد بشكل غير منطقى فى أعماق الابن قد يكون لعدم ثقة الابن فى قدرته على الإجادة فى العمل مثل أبيه، ولذلك يخاف من الإحساس بالمهانة، وقد يكون خوفه نابعاً من توهم غير منطقى بأنه لو تفوق على الأب فإن الأب سيعاقبه.

وما سبق هو مجرد أمثلة لمشاعر اللاوعى التى تتشعب وتكمن ثم تظهر آثارها فى السلوك. وهذه الأمثلة لا تحلل كل أسباب الفشل الدراسى، إنما يأتى استخدامها هنا

لشرح بعض من مشاكل المراهقين.

ومثل هذا الفشل الدراسى له هدف آخر فى اللاوعى. إنه يعذب الآباء والأمهات المتطلعين إلى نجاح الابن فى الدراسة، وهذا واحد من أكثر أنواع العقاب اللاواعى للآباء. إن الابن لا يقصد ذلك، بل إنه يبذل كل الجهد للنجاح الدراسى.

وتظهر أحياناً صعوبة الدخول مع الآباء فى مباراة التنافس على نحو مختلف، فعندما يسأل أحدهم شاباً فى السادسة عشرة عن المهنة التى ينوى احترافها، فقد تكون إجابة الشاب: "لم أحدد بعد، إلا أننى متأكد من شىء واحد هو أننى لن أعمل فى الميدان الذى يعمل فيه أبى لأنه مجال لا يعجبنى على الإطلاق".

هذا هو الذى تظهر به عدم ثقة الابن فى قدرته على منافسة الآباء، ولكن هذا الابن عندما يصل إلى الثامنة عشرة قد يسأل والده الطبيب: "لماذا يقررون علينا كل هذه الكمية من دروس الكيمياء"؟ فيجيبه الأب: "إنهم يفعلون ذلك من أجل الطلبة الذين سيدرسون الطب".

هنا يقول الطالب: "لعلها تساعدنى أنا أيضاً أثناء دراستى للطب".

إن الابن يقول ذلك وكأنه يلقى بخبر يعرفه الأب من قبل، رغم أن الابن لم يسبق له أن أخبر والده بذلك. إن الفتى فى مثل هذه الحالة يكون قد نضج بما فيه الكفاية فلم يعد يشعر بالخوف من المنافسة مع الأب.

وبعض من ألوان التمرد قد تكون مفيدة، كاختيار الابن لهواية فنية لا يرضى عنها الأب ويتفوق فيها الابن. وفى مجتمعنا الكثير من الأمثلة على ذلك، مثل "توفيق الحكيم" الذى كتب الرواية والمسرحية على الرغم من معارضة أهله للفن، ومثل "يوسف وهبى" الذى درس التمثيل.

وهناك ألوان من التمرد لها طابع سلبى وإن كانت تعبر عن الرغبة فى الاحتجاج، مثل ارتداء الشاب لملابس "الجينز" فى مناسبات رسمية، أو الذهاب إلى المدرسة أو الكلية دون غسل الوجه أو الأسنان، أو ترك الغرفة التى ينام فيها دون أن يقوم بتنظيمها وترتيبها، إنها فوضى تذكرنا بأيام طفولته عندما كان يعلن امتعاضه واستياءه لأتفه الأسباب.

والمشكلة الأساسية المهمة التى تواجه الشاب أو الفتاة أثناء المراهقة، رغم أنه لا يفكر فيها بصورة واعية، هى مشكلة الهواية.

إنه يبحث عن هويته الحقيقية.

إنه يفكر فى الشخص الذى سوف يكونه، وكيف يبدأ الطريق إلى بناء هذه الشخصية.

ولا نعنى بذلك نوع العمل الذى سيختاره لنفسه أو الهوايات التى يمارسها، ولكن نعنى البنيان الشامل للشخصية.

إنه يفكر فى كيفية تفكير أصدقائه، وأسلوب حياة عائلية، وكيف يسلك ألوان السلوك التى تؤكد له أنه إنسان مستقل.

ويتحكم فى بناء الشخصية الشامل ثلاثة عناصر رئيسية:

أول هذه العناصر هو الشخصية السابقة له أثناء الطفولة. لقد حاول الطفل منذ عامه الثالث أن يقلد أباه، وحاولت الفتاة أن تقلد والدتها. إن الشخصية السابقة للشاب أو الفتاة كانت مجرد انخراط فى سلوك الوالدين. والشاب فى مرحلة مراهقته يحاول أن يصل إلى الاستقلال، لذلك يبدأ فى تحطيم اعتماديته المطلقة على أسرته، لا بمعنى ترك البيت والحياة بعيداً عن الأسرة، ولكن الشاب يحاول أن يدرس ما حوله ويدرس أفكاره وأهدافه الخاصة، ويتعرف على المشاكل التى يعيش فيها مجتمعه، ويبدو الشاب متطرفاً ، نافد الصبر، كثير النقد لمجتمعه. هذه هى الصورة الخارجية، لكن الصورة الداخلية التى فى أعماقه تختلف. إنه يفكر فى حلول جديدة للمشكلات التى يواجهها المجتمع، تلك المشكلات التى تعايش معها الآباء، لكنها تبدو بالنسبة للشاب وكأنها الغرق فى الوحل.

والعنصر الثانى الذى يتحكم فى بناء الشخصية هو مدى قوة التمرد واتساع أفق الشاب ليعرف على أى شىء يتمرد.

إن الشاب الذى يحصر تمرده فى إطار الملابس الغريبة أو قص الشعر على الموضة السائدة، ولا يتعمق فى فهم ظروف مجتمعه ويدرس لماذا يعيش مجتمعه كل تلك المشكلات، مثل هذا الشاب سرعان ما يخبو منه التمرد، ولا يبقى منه ما يؤصل ويصقل شخصيته. أما الشاب الذى يدرس مشكلات المجتمع فيمكنه بفكرة بسيطة أن يطور مجتمعه، مثلما حدث للشاب الذى رأى التقدم الصناعى الزائد عن الحد صار يفسد البيئة، ومثلما حدث لدى شاب الانتفاضة فى الأرض المحتلة.

إن هذا اللون من دراسة المجتمع لتعميق التمرد وتوجيهه إلى هدف قيم يمكن أن يصقل هوية الشاب.

والعنصر الثالث فى تشكيل بنيان شخصية الشاب هو طبيعة الزمن الذى يمارس فيه الشاب تمرده، فطبيعة الزمن والعصر هى الدافع تاريخياً لظهور عقليات إصلاحية كبيرة، والمثال على ذلك "مارتن لوثر" الذى جاء فى زمان كانت الكنيسة فيه مضطربة وتحتاج إلى إصلاح شامل، وكان للوثر الشاب من الشجاعة والوضوح والمثابرة ما أهله لأن يطور

الكنيسة، وهذا ما يشرحه العالم النفسى "أريك أريكسون" فى كتابه "لوثر الشاب". فلقد كان من التقليدى أن يعيش "لوثر" مجرد كاهن عادى لولا أنه جاء فى عصر اتفق مع مواهبه.

والعالم المعاصر فيه من المشكلات ما يحتاج إلى جهد الكثير من الشباب وموهبتهم، ليفعلوا مثلما فعل السابقون عليهم. إن التاريخ يضم الكثير من قصص التقدم والابتكار والاكتشافات العلمية والمدارس الفنية والمذاهب الفلسفية، وأبطال تلك القصص الواقعية كانوا مجرد شباب على أبواب مرحلة النضج، وكانوا قادرين على نقد وتقييم إنجازات الماضى وامتلاك القدرة على اكتشاف احتياجات مجتمعاتهم، واستطاعوا أن يتقدموا بأفكارهم وأعمالهم ليطوروا مجتمعاتهم إلى الأفضل.

ومن يراقب حالة العالم سيجد العديد من المشكلات التى تحتاج إلى حلول لا يقدر عليها الكبار الذين تعايشوا معها، وسيجد دولاً كبرى قد أنتجت من الأسلحة النووية ما يكفل تدمير الأرض كلها إن أصيب أحد القادة بجنون، أو حتى بفعل حادثة غير مقصودة، ولا بد من تطهير الأرض من هذه الأسلحة، وسيجد أمراضًا لا علاج لها وتحتاج إلى جهد شبابى عبقرى للانتصار عليها، وسيجد البشر فى معظم أنحاء العالم وهم لم يتعلموا بعد السيطرة على عدوانيتهم، وسيجد أعدادًا هائلة بالملايين تعانى من الجوع بألوانه المختلفة، ثقافيًا وتعليميًا وغذائيًا ، وسيجد أن الكرة الأرضية التى تزهو بالكثير من التقدم، تعانى فى الوقت نفسه من الكثير من المشكلات الصعبة القاسية. سيجد الشباب أن هناك غذاء تلقيه بعض البلاد فى البحر، بينما ينتشر الجفاف وفقر التغذية على مساحة قارات، وهناك تقدم صناعى مذهل فى الدول المتقدمة، وهناك بطالة مذهلة فى نفس الوقت، وهناك رغبة جادة عند بعض المجتمعات لمزيد من التعلم، وهناك لامبالاة بالحاضر والمستقبل عند بعض المجتمعات. وسيجد الشباب أن من بين ألقاب القرن العشرين، قرن اللامبالاة والأنانية.

ورغم كل ما تقدم سيجد الشباب أيضًا ميلاد روح مثالية جديدة، روح مثالية فى الرغبة فى العودة إلى التراث الإنسانى واستجلائه، روح إنسانية مثالية تظهر فى كثرة عديدة من شباب العالم الذى يدافع عن البيئة، ويصون الطبيعة من الأخطار التكنولوجية الزائدة عن الحد.

والعالم ينتظر منك أيها الشاب أن تتطلع إلى المستقبل لتضع حلولاً لهذه المشكلات الضخمة. إنك بمعايشتك لهذه المشكلات وبرغبتك فى المستقبل الأفضل إنما تفجر فى أعماقك القدرة على صقل شخصيتك والتفاعل مع العالم المحيط بك. إنك بذلك تمارس

الانتماء الفعال سواء لجيلك أو لمجتمعك أو لزمانك، وستشعر بقيمة فعلية لحياتك ووجودك، وستثق أن العالم الذى تحيا فيه يحتاجك بالفعل وسوف يفتقدك لو غبت عنه.

إنك أيها الشاب _ أو أيتها الشابة _ إن كنت من أصحاب الطموح العالى سترى الميدان الذى يمكن أن تؤكد به شخصيتك من خلال عمل مفيد، وستسير إلى هذا العمل بثقة واقتدار.

وإن المخيف حقيقة هو أن يعانى الشاب من الإحساس بفقدان الهوية. وهذا يعنى عدم قدرة الشاب على النمو العاطفى الذى يسمح له بالانتقال من مشاعره الخاصة نحو نفسه وأسرته إلى مشاعر أكثر اتساعًا ، وهى مشاعر الإنسان نحو مجتمعه، ثم مشاعر أكثر اتساعًا نحو العالم الذى يحيا فيه.

والذى يبدد هذا الخوف هو أن الشاب يبدأ رحلته إلى فهم الأسرة والمجتمع والعالم عن طريق الخطوة الأولى وهى اكتشاف صديق يستمتع برفقته ويثق به ويرى أن كليهما يملك من الصفات الحميدة الكثير. والصديقان يجدان عددًا آخر من الأصدقاء، وهكذا تستمر الدائرة فى الاتساع حتى يكتشف الشاب أنه يعيش مشاكل المجتمع كله، مشكلات العالم أيضًا . ويحس الشاب بقدرته المتضامنة مع غيره من الشباب على تغيير الواقع الردىء.

أما إذا ما عانى الشاب من أى هزة عاطفية أو وجدانية فإن عليه أن يدق باب الطبيب النفسى لا ليلعب دور المريض، ولكن ليكتشف مع الطبيب النفسى آفاقًا جديدة للثقة فى النفس.

وفى المجتمعات التى تخلو من العلاج النفسى الملائم، هناك المدرس المحبوب، وهناك رجل الدين المتسع الأفق الذى لا يحصر الدين فى إطار الطقوس، ولكن يرى الدين إطارًا معنويًا لتفجير طاقات الإبداع عند الإنسان.

إن الشاب من عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة غالبًا ما يشعر ببعض القلق بخصوص آراء أصدقائه فى والديه. إنه يشعر ببعض من الخجل من سلوك ما صادر عن والده أو من استخدام الأب من الألفاظ، ويرى الشاب أنها لا تليق بوالده. وقد يخجل المراهق من أن يتذكر والداه بعضًا من النوادر أو الحوادث الصغيرة التى قام بها المراهق فى طفولته، وقد يخجل من ارتداء أحد والديه ملابس تكون فى رأى المراهق غير مناسبة لعمر الأب أو الأم. وقد يرغب فى تغيير نظام ترتيب البيت ليجعله جميلاً على قدر الإمكان.

وكل تلك الألوان من الخجل ليست إلا محاولة من المراهق للخروج من دائرة الإحساس

بالتبعية للأب والأم، ومحاولة امتلاك شخصيته المستقلة. والمراهق لا يريد أن يحاكمه أحد بما يفعله والده،بل يريد أن يصدر الآخرون أحكامهم عليه هو شخصياً وفقاً لسلوكه.

وفى كل عصر ينتشر إعلامياً أسلوب للحياة من اختراع المراهقين كنوع من التمرد والرغبة فى الاستقلال دون فهم عميق لكيفية تنظيم الحياة فى مجتمع ما. مثال ذلك انتشار الخروج على القيم والتقاليد بين الأجيال التى نشأت بعد الحرب العالمية الثانية، أى هؤلاء الشباب الذين أطلقوا على أنفسهم لقب " الوجوديين " دون دراسة متعمقة للفلسفة الوجودية التى كان من أبرز رجالها الفيلسوف الفرنسى "جان بول سارتر". وكذلك انتشار نمط إطلاق الشعر، والحياة فى مستعمرات لا تضم إلا الشباب خلال الفترة التى صاحبت حرب فيتنام، وأطلق شباب هذه المستعمرات على أنفسهم لفظ "الهيبز" واتخذوا من الفيلسوف "هيربرت ماركيوز" رائداً لهم رغم أنهم لم يفهموا تماماً نقده لأسلوب الحضارة الغربية. وأقاموا هذه المستعمرات ليمارسوا فيها المسؤولية عن النفس بانطلاق ودون قيود، وانتهى غالبية المشاركين فى تلك الجماعات إما إلى الارتداد عنها وإما العلاج النفسى من الإدمان. لقد أرادوا أن يبسطوا الحياة الاجتماعية واختاروا أسلوباً غير تقليدى للزى، وكذلك السكن فى أماكن فقيرة، وتمردوا على الأعمال التجارية. لقد كانوا يبحثون عن فلسفة روحية قائمة على التعاون والحب. وأكرر أن اتهام الجيل الجديد بالغرق فى المخدرات أو الكحول، وأكرر أن اتهام جيل كامل بما تفعله قلة من الشباب أمر لا يجوز، فليس من جرب تدخين سيجارة من الحشيش أو شرب كأس من الخمر مدمناً . إن الشباب قد يجرب هذه الأمور من أجل البحث عن التجربة حتى ولو كانت التجربة خاطئة. ولكن الشاب لا بد له من أن يحذر أنواع المخدرات التى يكفى تجريبها مرة واحدة ليقع الإنسان أسيراً لها فتدمره.

وكثيراً ما نسمع عن اتهام الجيل الجديد بأنه عبد لنزوات الجسد. وفى أوروبا وأمريكا يندفع الشباب إلى التجارب القاسية لإرواء نزوات الجسد، قبل أن يكون الشاب قد نضج لممارسة الحب المعنوى بشكل يتيح له القدرة على تحمل مسؤولية تكوين أسرة. وقد انحسر الآن هذا المد اللامسؤول فى ممارسة الشباب الجنس حتى فى أوروبا وأمريكا. ونحن نجد من الشباب من يتظاهر ضد تجارة الجنس إعلامياً ومسرحاً وروائياً . ونجد من الشباب من يندد بالزواج الذى تقبل عليه بعض الفتيات من أجل المال والراحة المادية لا من أجل الحب.

ودعونى أروى هنا ما قاله "هنريك إبسن"، الكاتب المسرحى النرويجى فى مسرحية

"سيد البنائين" على لسان الجيل القديم: "سيأتينى يوماً من يطرق بابى ليقول لى: افسح لى الطريق، فأنا الجيل الجديد".

ودائمًا يدق باب المجتمع البشرى جيل جديد يبدأ متمرداً ، وكلما تعمق الشاب فى معنى التمرد انضم إلى فئة المبدعين. أما الذين يكتفون بممارسة التمرد من على السطح فهم ينضمون بسرعة إلى طابور الخضوع والرضوخ.

الفصل السادس:

معنى الزواج أثناء المراهقة

لكن الرغبة فى اكتشاف قارة المستقبل تجد نفسها أمام نموذج واضح للتعبير عن هذا المستقبل. إنه الزواج. إنهم يعرفون أن العناق بين الرجل والمرأة يجد فرصته الكبرى فى علاقة الزواج. فالشاب والفتاة يتطلعان إلى علاقة زواج أكثر مثالية من هذا الزواج المثالى الذى رأياه. إن علاقة الزواج بين الأب والأم مهما كان فيها من مشكلات، فهى علاقة مثالية فى نظر الشاب أو الفتاة أثناء المراهقة.

لقد كشف لنا كل من علم النفس والطب النفسى أن كل ما يحلم به الطفل سيكون له تأثير فعال على سلوكه فى بقية حياته كلها.

وفى المراهقة يتحرج الشاب أو البنت دون وعى من استمرار منافستهما الأب أو الأم. وصورة الزواج فى نظر كل من الشاب أو البنت تستمد ملامحها من علاقة الزواج الأولى التى شاهداها، وهى علاقة زواج الأب والأم.

ويتعرف المراهق على صورة المرأة بشكل غريب: إنه يلتقط صورة لذراع امرأة من مجلة، وتلتصق صورة هذه الذراع بجذع امرأة أخرى رآها فى الإعلانات، ويتملك خيال المراهق صورة مكتملة من القص واللصق ليمرح معها بكل ما أوتى من قوة العمر، لكنه يقول لنفسه: "لن أتزوج هذه المرأة".

وتحلم الفتاة بشاب مثالى يبنى معها البيت الدافئ، لكن الأمر الواقع يتجسد فى أن الفتاة تختار شبيهاً للأب بشكل أو بآخر.

وشعوب الأرض كافة تعرف الهيام الرومانسى فى فترة المراهقة.

وإذا كان الأمريكيون يصفون أنفسهم بأنهم أكثر شعوب العالم واقعية إلا أنهم يتفاعلون فى مجال العواطف بين الرجل والمرأة فى إطار مبدأ الهيام الرومانسى، ويتصرفون فى هذا المجال بما قد يصفه الآخرون سذاجة. لكن هذه السذاجة موجودة لدى كل شعوب العالم الأخرى أيضًا ، فليس هناك مجتمع دون قصة تقدس الهيام الرومانسى: عند العرب "قيس وليلى"، وعند الإنجليز "روميو وجوليت"، وعند الروس قصة "الحب الأول" لتورجنيف، وعند الفرنسيين "غادة الكاميليا".

إذن فالهيام الرومانسى أمر مقدس فى الذاكرة البشرية، ذلك الهيام الذى يصيب اثنين _ رجلاً وامرأة _ويحس الاثنان أن كلاً منهما قد خلقه الله من أجل الآخر، وأن الحياة الزوجية بينهما لا بد أن تكون سعيدة للأبد. وعلى الرغم من ذلك فالطلاق ترتفع نسبته فى غالبية المجتمعات تقريبًا ، بين الأمريكيين، وبين العرب، وبين الإنجليز، وبين الروس، وبين الفرنسيين، وبين أهل الشمال الأوروبى.

فهل ارتفاع نسبة الطلاق دليل على خطأ كل تلك المجتمعات فى مسألة التفاؤل بقوة الحب الرومانسى؟

طبعًا ، لا.

ولكن على البشر أن يقيموا التوازن بين هذه الفكرة الرومانسية الجميلة التى تجمع بين الرجل والمرأة وبين المسؤوليات الواقعية فى الزواج. وهذه مسؤولية الآباء والمعلمين ورجال الدين وكتاب الإذاعة والتليفزيون والسينما. لا بد لهؤلاء جميعًا من أن يبرزوا أوجه الرضا والسعادة التى يشعر بها معظم الناس فى الزواج، وكيف يحتاج الزواج _ كعلاقة بين الرجل والمرأة_ إلى النضج العاطفى الذى يكفل له النجاح.

إن بريق العناق بين الرجل والمرأة وما فيه من إرواء وارتواء جسدى قد يسيطر على خيال شاب غير متزوج أو خيال فتاة غير متزوجة. إن المشهد الذى لا تخلو منه قصة تليفزيونية ويركز على الإغراء والفاعلية بين جسد الرجل وجسد المرأة، هذا المشهد قد يوهم الشاب أو الفتاة بأن هناك إمكانية لتعويض أو تغطية التناقضات الشخصية بين الرجل والمرأة.

ولا بد لنا من أن نقرر الحقيقة الموضوعية القائلة إن الجنس عامل غلاب وحيوى فى الزواج. بل إن غيابه عن العلاقة الزوجية يؤدى إلى تحطيم هذه العلاقة الزوجية. وهناك نسبة لا تكاد تذكر من علاقات الزواج التى تستمر دون ممارسة للجنس. ولكن الجنس

نفسه لا يملك قوة سحرية يعالج بها الخلافات العميقة فى الآراء والأفكار، ولا يقرب بين الشخصيات المتعارضة إلا لمدة ساعة أو أكثر قليلاً من الساعة، ثم تصحو الخلافات لتستمر فى تدميرها للعلاقة الإنسانية بين الأفراد المختلفين فى الطباع والأفكار.

إن الشباب يتشرب قيم وتقاليد المجتمع ويتلقى من كل من حوله كيفية التأقلم مع فكرة الزواج، ويتشرب كيفية التصرف إذا كان رجلاً ، ويتعلم نظريًا ووجدانيًا كيف يكون سلوك الرجل فى الزواج.

وتتشرب الفتاة كيفية السلوك كزوجة من المجتمع الذى تحيا فيه. يحدث ذلك تلقائيًا تمامًا كما يتعلم الإنسان كيفية المواطنة.

إن الكائن البشرى يتعرف على واجباته الاجتماعية والالتزامات الحقيقية التى سوف يقوم بها كزوج أو كزوجة، يحدث ذلك إذا كان الإنسان فردًا فى قبيلة أو فردًا فى قرية أو مواطنًا فى مدينة، وكل إنسان يحب بشكل أو بآخر أن يمارس دوره بنجاح.

وهنا نرى أن الزواج ليس مجرد ارتباط جاء نتيجة علاقة رومانسية بين الرجل والمرأة، ولكنه علاقة بين رجل وامرأة فى إطار اجتماعى أكبر منهما معًا ، وهو إطار المجتمع الذى يعيشان فيه.

وفى بعض مجتمعات الشرق وفى بعض من الطبقات الغنية فى العالم تحاول العائلات أن تختار لابنها شريكة الحياة، أو تحاول العائلات أن تختار للابنة شريك الحياة، وهكذا يدخل الرجل إلى منزل فيه امرأة عليه أن يرتبط بها ولا يعرف منها سوى اسمها. وهكذا تدخل المرأة إلى منزل فيه رجل عليها أن ترتبط به ولا تعرف عنه سوى اسمه.

وتاريخنا الاجتماعى القريب يحكى لنا الكثير من التجارب التى عاشتها الأمهات عند الزواج بهذه الطريقة والتى عاشها الآباء عند الزواج بهذه الطريقة. إنها حياة أقرب إلى الاستسلام للقدر منها إلى ممارسة حق الاختيار الذى أباحه الإسلام لكل من الرجل والمرأة، لا فى الزواج فقط ولكن فى كل أوجه الحياة.

ومازلنا نسمع عن العائلات الثرية فى العالم، والتى تصر على زواج بناتها من أشخاص معينين. والسبب هو رغبة الأهل فى عدم خروج الثروة خارج نفوذ العائلة، أو عدم تسرب الثروة إلى يد طامع فيها. إن الكبار فى مثل هذه الحالات يرون أن الزواج هو أمر أكبر من أن يتركوه للأبناء. ومخاطر هذا اللون من الزواج كبيرة. ومخاطر تنشئة الأبناء فى مثل هذا الزواج كبيرة أيضًا . والفشل فى مثل هذا اللون من الزواج، أمر يكاد يكون محتومًا فى ظل عالم إنسانى صار يؤمن بحرية الفرد فى أن يقرر مصيره بنفسه.

ولهذا فإننا لا نندهش عندما نرى كثيراً من مثل حالات هذا الزواج وقد وصلت إلى الطلاق.

ومن المشاهد التقليدية فى المحاكم التى تنظر فى قضايا الطلاق رؤية بعض من الرجال والنساء الذين أخطأوا فى فهم الزواج، وظنوا أنه يعنى أن يكسب بعضهم من بعض. بعضهم ظن الزواج مجرد وسيلة للحصول على الحياة المرفهة، وبعضهم ظن أن الزواج يعنى امتلاك جسد آخر عليه تلبية كل الاحتياجات الشهوانية، وبعضهم ظن أن الزواج فرصة للهرب من الحياة فى بيت الأب أو الأم إلى حياة فى بيت زوج أو زوجة. مثل هؤلاء الناس لم ينضجوا عاطفياً ، وهم يريدون من علاقة الزواج أن تكون علاقة عطاء من طرف واحد، ولذلك ينتهى بهم هذا التصور إلى الطلاق مع الإحساس العميق بالتعاسة. لقد فوجئوا بأن عليهم مسؤوليات فيها الكثير من المتاعب التى تنشأ من العيش تحت سقف واحد. إن الإنسان فى حالة عدم النضج العاطفى يفاجأ بأنانية الشخص الآخر، وعدم صبره فى بعض الأحيان، وقسوته فى أحيان ثانية، وثقل ظله فى أحيان ثالثة، وعدم إتقانه لبعض من مسؤولياته فى أحيان رابعة.

إن الزواج يتطلب روحاً من الولاء والإخلاص المتبادل الذى يساعد فيه كل طرف الآخر على تخطى الأخطاء كبرت أو صغرت.

وفى أى زواج ناجح نجد كل طرف يقدم المساعدة، والراحة، والاندماج الجسدى، والإرواء لاحتياجات الآخر. ولا توجد قائمة معينة من الاحتياجات التى يمكن أن يقدمها الطرف لشريكه ليقوم بها، لكنها احتياجات محسوسة ومعنوية.

إن الزواج الناجح هو الذى يحسن فيه الزوج إسعاد زوجته بالتعاون معها، ويتبادل كل منهما المحبة والمودة والحنان، ويتكرر بينما الانجذاب الجسدى بأسلوب يزداد عمقاً مع مر الأيام.

ومن المحزن أن نجد بعضاً من الكتاب يقللون من قيمة الزواج، رغم أنهم يعيشون قصص زواج ناجحة.

ومن الطبيعى أن يحاول كل زوجة وزوجة ارتداء ملابس أنيقة داخل المنزل من أجل أن يراه شريك عمره وفى حالة مناسبة مليئة بالحيوية. إنها محاولة لإثارة إعجاب شريك العمر، وهى مسألة لا يطلبها الرجل من المرأة فقط، ولكن تطلبها المرأة من الرجل أيضاً .

ومن اللائق أن تحاول المرأة أن تغلق على نفسها باباً عند عمل "الميكياج" أو أثناء دهن وجهها "بالكريم" أو إعداد شعرها "بالسيشوار"، ذلك أنه من المضحك أن يشكو الرجل من

أن زوجته تبدو فى المنزل وكأنها فى حالة استعداد للخروج منه، ومن المضحك أن تشكو المرأة من إهمال زوجها لأناقته أثناء تواجده فى المنزل.

وقد يندهش بعض القراء لمثل هذه الاقتراحات؛ لأن الواحد منهم يظن أن من حقه أن يحيا على مزاجه، ما دام قد تزوج، وأن من حقه أن يعيش حياة طبيعية لا تكلف فيها. ولنا أن نندهش وأن نسأل: "هل تطلب لنفسك حياة غير لائقة بك؟ هل تفضل أن يراك شريك عمرك وأنت فى صورة غير مريحة بالنسبة له"؟

إن الزوجين فى الزواج الناجح لا يحبان بعضهما فحسب، ولا يحترمان بعضهما فحسب، ولكن كلاً منهما يمثل الآخر، ويستكشف طموحاته ويساعده عليها، ويؤمن كلاهما بضرورة مساعدته للآخر.

وأنت كشاب تقرر بينك وبين نفسك، وبينك وبين أقرانك، أن والدك ووالدتك يجب أن يعطياك الرعاية ويوفرا لك وسائل الراحة، ويشتريا لك الملابس الأنيقة، ويمنحاك مصروف الجيب المناسب، ولا مانع من أن يشتريا لك سيارة إذا كانت الإمكانات متوفرة. إنك تعتبر أن أهم خصائص الكبار أن يعطوا الكثير وأن يأخذوا القليل، وهذا معناه أنك تصل بنفسك إلى تعريف النضج بأنه القدرة على إعطاء الكثير وأخذ القليل.

فما بالك بالزواج؟

إنك فى حاجة إلى أن تعطى كثيراً ، وأن تفرح بما يمنحه لك شريك عمرك. ولكن تذكر أنه حتى أكثر الأشخاص نضوجًا إنما يحتاج إلى استقبال الحب والتفهم والتشجيع والتدعيم العاطفى، وهذا ما يوفره كل طرف للآخر فى الزواج الناجح.

إن الزواج الناجح كالعمل الفنى الذى يقوم بتأليفه اثنان من كبار العشاق للفن. إن كلاً منهما يؤدى دوره بإبداع وبإتقان ومحبة تثير الجاذبية والإبداع. ويحث كل منهما الآخر على أن يستكشف نواحى الإبداع فى صناعة زواج ناجح، ويتشرب منهم الأطفال ذلك.

ولا تختفى التحديات أبداً أمام الزوجين: إن هناك ولادة أطفال، وقدرة على كل من الوالدين على رعاية الطفل. وهناك مشكلات المرض، ومشكلات الأبناء الدراسية، والأزمات التى يثيرها انتقال الأبناء من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى، والعلو والهبوط فى مهنة الأسرة أو ربة الأسرة. وأحياناً يأتى الموت ليدق باب أحد أقارب الأسرة فيتم التآزر تلقائيًا بين الزوج والزوجة، وهناك بعض من الأسر تعانى من إصابة أحد الأبناء بعاهة، وتتآزر الأسرة أيضاً فى مواجهة هذا الأمر الشاق.

إن الزواج الناجح هو الذى يستمتع فيه كل طرف بالقدرة على امتلاك من إصابة عمر

يرفع من روحه المعنوية ويؤازره وقت الصعاب.

وليس الزواج الناجح هو العلاقة الخالية من الخلافات. لا، إن الخلافات أمر طبيعي في الزواج وكذلك المشادات، ولكن لا بد من جهد يبذله الطرفان لعدم جرح كرامة أحدهما من قبل الآخر، ولا بد من القدرة على الصلح من بعد ذلك.

وبعض الأشخاص يظنون أنهم بالزواج قد ينتصرون على بعض من مشكلاتهم الخاصة، مثال ذلك الشخص المدمن الذى يظن أنه بالزواج سيخرج من دائرة الإدمان. ومثال ذلك الشخص المثير للمشكلات فى مقر العمل والذى ينتقل من عمل إلى آخر، فقد يظن أن الزواج قد يعلمه الاستقرار. ومثال ذلك الشخص الذى يقيم الكثير من العلاقات الطارئة مع الجنس الآخر ولا يستقر في علاقة واحدة، قد يخدع نفسه بأن الزواج سيوفر له علاقة واحدة. وكل ذلك لون من الوهم العابث، فنادراً ما يحل الزواج مشكلة شخصية لها شكل مرضى فى حياة الإنسان.

وقد يتساءل القارئ: "وما رأيك فى الزواج تحت سن العشرين"؟

أقول: "غالباً ما يكون الزواج فى مثل هذا العمر عرضة للانتهاء بالطلاق من بعد ذلك، لأن سرعة التغير النفسى والعاطفي تتتابع بإيقاع مرتفع فى هذا العمر. وعدد قليل جداً من الزيجات فى مثل هذا العمر هى التى تستقر وتنضج".

إن الإحصائيات تؤكد أن الزواج فى عمر المراهقة يتحطم بسرعة، ورغم ذلك فإن أعداداً لا بأس بها من الناس يظن أن الزواج أمر ضرورى فور التخرج من المدرسة الثانوية أو أثناء الدراسة الجامعية، وتبدأ رحلة المشكلات التى ينكسر عليها الزواج الشاب.

إن النضج أهم كثيراً من السنوات التى تحدد عمر الإنسان. هذا ما يقوله الإنسان لنفسه عندما يعثر على زيجة واحدة ناجحة قد تمت في عمر تحت العشرين.

الفصل السابع:

عناق الحب المكتمل

"عناق الحب المكتمل" هى الجملة التى اخترتها لأعبر بها عن قدرة جسد الرجل وجسد المرأة على العناق والتفاعل الحسى والوجدانى.

وعندما أجد الكثير من الكتب التى تصدر لتشرح أنواع وأوضاع وأساليب التفاعل الجسدى بين الرجل والمرأة فإننى أتساءل بينى وبين نفسى: "وماذا كان يفعل الإنسان فى عصوره الأولى قبل اختراع المطبعة وتطور صناعة الطباعة" هل كان الإنسان يقف حائرًا فى عناق من يحب"؟

وأقول إجابة عن سؤالى: لو كان الأمر كذلك لما أنجب البشر أطفالاً ، ولما كان التاريخ ليستمر، لكن الإنسان أراد أن ينقل خبراته السعيدة إلى غيره من الأجيال؛ فانتهز فرصة اختراع الكتابة ليؤلف كتبًا يضع فيها الخبرة البشرية فى أدق تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل لحظات "عناق الحب المكتمل". وفى كل حضارة إنسانية تجد كتابًا يصف أساليب اللقاء المكتمل بين الرجل والمرأة وأوضاع هذا اللقاء. ففى حضارة الهند القديمة هناك كتاب "الكاماسوترا" الذى يمزج بين أوضاع اللقاء بين الرجل والمرأة وبين العبادة، وفى الثقافة العربية هناك كتاب "الروضة" وهو الكتاب الذى ترجمه علماء الإنجليز كدليل علمى يستطيع به الرجل أن ينتصر على نواحى الضعف فيه وكذلك المرأة، وفى الحضارة الرومانية هناك "فن الهوى" لأوفيد الذى يصور لقاءات الجسد بين الرجل والمرأة وكأنها

مباراة ينتصر فيها الرجل ثم ينتقل إلى امرأة أخرى. إنه كتاب أدبى فيه تمثيل اللقاء السعيد، ورغم لغته الأدبية الرفيعة إلا أنه يدل على أن كاتبه آمن بأن الفعل الجسدى هدفه سعادة الرجل وإظهار قدرته على الانتصار، وكأن ممارسة العناق المكتمل ساحة لا بد فيها من هازم ومهزوم.

وفى عصرنا هذا عشرات المئات من الكتب التى تتحدث فى هذا الموضوع.

لكنى أعود فأقول: ليس هناك من نقاط كثيرة لوصف عناق الحب المكتمل، فلمسة اليد أحيانًا تملك من قوة الإبداع الروحى والجسدى ما لا يملكه لقاء مفتعل بين جسدين.

ومصادفة التلاقى بين الجسد العاشق وحبيبه أثناء الرقص قد تكون أكثر جمالاً من التصميم المسبق على عناق لا روح فيه.

واكتشاف جسدين أثناء التلاقى الحميم لقدراتهما على الامتزاج وخصوصًا أثناء الأيام الأولى للزواج، هذا الاكتشاف أكثر جمالاً من مواجهة العناق كمسألة حساب يجب أن يصل الإنسان فيها إلى نتيجة فى وقت محدد.

وهكذا نرى أن "عناق الحبل المكتمل" هو أمر عاطفى ووجدانى وحميم أكثر مما هو فعل أو حركة، ولا تعبر عن جماله كل كلمات الشعر، ولن تستطيع صفحات الروايات أن تحتويه كاملاً .

والإنسان فى كل الحضارات يعرف أن لقاء الحب المكتمل له جانب غريزى وله جانب مبدئى. ويمتزج كل من المبدأين أثناء السلوك. وإنسان القرن العشرين يكتسب العديد من أمثال وصور وأساليب التعبير المتنوع عن العناق فى الحب، سواء من خلال الأفلام أو القصص التليفزيونية أو الكتب، أو ما يراه فى الحدائق والشواطئ، أو مما يفعله الآباء.

وأساليب العناق العاطفى والجسدى المكتمل تختلف من فئة إلى أخرى فى المجتمع كما أظهرت ذلك إحصائيات العالم "كينزى" الذى قام بتحليل كل نواحى السلوك الجنسى فى مراحل ومستويات التعليم، واكتشف أن المستوى التعليمى والثقافى يؤثر فى مدى عمق وكيفية السلوك الجنسى ووظائفه المنوعة. وقد ميز سبعة مستويات تعليمية، تتدرج من الذين لم يتموا الدراسة الابتدائية إلى الذين نالوا درجات الماجستير والدكتوراه، واكتشف اختلافات كبيرة فى السلوك الجنسى بين هذه المستويات السبعة مع وجود استثناءات فردية فى كل فئة.

لقد وجد أن السلوك الجنسى له طابع خاص فى العائلات ذات المستوى التعليمى العالى والتى تطمح أن يبلغ أبناؤها مستوى التعليم الجامعى. إنها عائلات تعتبر الجنس أمرًا

محرماً ولا يجب الانغماس فيه خصوصاً في فترة المراهقة، بينما يختلف الأمر بالنسبة للأسر الأقل تعليماً والتي لا تطمح أن ينال أبناؤها التعليم العالي. ويغلب الطابع الرومانسي عند الأسر المتوسطة والتي تخطط لأبنائها ليزيد اهتمامهم بالعلوم والفنون. وعندما يمارس الشاب اللقاء الكامل الذي كان محرماً عليه فهو يفاجأ بسعادة غامرة. وغالبًا ما يفكر مثل هؤلاء الشبان في التخطيط الدقيق لفعل عناق الحب المكتمل، ويقرأ الكثير من الكتب التي تصف هذا الفعل أو تدور حوله لمعرفة كل ألوان المداعبة والملاطفة ولاكتساب المزيد من الخبرة في هذا المجال. أما الذين لم يتلقوا تعليماً كافيًا فهم لا يتوقفون كثيراً عند الأساليب والطرق المختلفة لممارسة عناق الحب المكتمل، بل يمر بهم الأمر كما تمر المصادفة السريعة.

وفي عناق الحب المكتمل الذي يخطط له أصحاب الثقافة المتوسطة أو الأعلى قليلاً من المتوسطة يحاول الإنسان أن يرضي ذاته وذات من معه لاستكشاف كل آفاق المتعة.

ومن المؤكد أن ممارسة عناق الحب المكتمل في الزواج أكثر إرضاءً لضمير الرجل وضمير المرأة معًا .

أما ممارسة عناق الحب المكتمل خارج دائرة الزواج فقد أصاب الحضارة الغربية بألوان معقدة من المشاعر السلبية المتباينة.

إنه يحول العلاقة من اندماج روحي وجسدي إلى ترصد مسبق بين الطرفين كل منهما يتساءل بقلق عن مدى استمرارية العلاقة ومستقبلها.

وفي المجتمعات الشرقية نجد أن ممارسة عناق الحب المكتمل خارج الزواج تعتبر من المحرمات الكبيرة، ويحمل مرتكبه الإحساس النفسي بالذنب الجسيم.

وعناق الحب المكتمل يكون أكثر إرواءً إذا كان تعبيراً عن عاطفة. هنا يحقق الجسد والعاطفة سعادة كبيرة. ومن الطبيعي أن القبلات واللمسات، وملامسة البشرة للبشرة، تحقق تمهيداً مناسبًا لممارسة عناق ناجح. وكلما كان عطاء كل منهما للآخر متجدداً ، وكلما كان صدق كل منهما مع الآخر سليمًا ، كان لعناق الحب المكتمل أبعاد نفسية تزيد من الارتباط وعمقه.

وعناق الحب المكتمل يحتاج من بعد كل ذلك إلى مقدمات، فلا يصح أن يقتحم الرجل المرأة دون سابق تمهيد. وعدد قليل من الأزواج هو الذي يؤصل بالتمهيد عمق التواصل لعناق حب مكتمل، وهذا ما يهيئ المرأة لاستقبال الرجل برغبة في الاندماج معه.

إن استثارة المرأة عاطفياً بالملامسة والقبلات أمر ضروري. ومن المعروف أن الجسدين

أثناء عناق الحب المكتمل يتماوجان بإيقاع موسيقى متناغم.

ومن المعروف أن تماوج الجسدين بإيقاع يقرب من الموسيقى عمل لا يقوم به الرجل بمفرده بل تشاركه المرأة أيضًا في ذلك.

ومن الطبيعي أن تكون لحظة بلوغ اللذة ذات عطاء مريح لكل من الرجل والمرأة معًا. وأن يحتضن كل منهما الآخر بعد بلوغ اللذة. ويحس كل منهما بدرجة عميقة من السلام الداخلي. وغالبًا ما يؤدي الإرواء والارتواء إلى السلام الداخلي ثم إلى نوم مريح من بعد ذلك.

ومن الناحية الوظيفية تختلف طبيعة وصول الرجل إلى ذروة اللذة من بلوغ المرأة إلى قمة لذتها، فالرجل يبلغ ذروته بقذف الحيوانات المنوية، أما المرأة فقمة لذتها لا قذف فيها ولكنه إيقاع سريع ومكثف أو متناسق ومثير وعاطفي. وعدد من النساء يصرخن أثناء بلوغ الذروة عندما تكون اللذة عميقة ومتتابعة وقوية.

أما عن عدد مرات عناق الحب المكتمل فهو يختلف حسب طبيعة وإمكانية وعمر الأزواج والزوجات. فبعض الأزواج يفضلون ممارسة عناق الحب المكتمل مرة كل ليلة. وبعض من الرجال قد يستهويه في بعض الأحيان أن يمارس عناق الحب المكتمل مرتين في الليلة الواحدة، ولكن أغلب العلاقات الزوجية تكتفي ويشعر فيها الطرفان بالرضى من خلال الممارسة لعناق الحب المكتمل مرة واحدة في الليلة الواحدة. وأغلب المتزوجين يمارسون لقاء الحب المكتمل من مرة واحدة إلى خمس مرات أسبوعيًا ، وعندما يبلغ الرجل الأربعين أو الخمسين يقل عدد مرات الممارسة وذلك لانخفاض الرغبة عند الرجل.

والمحاولة الأولى _ لأول مرة في الحياة _ لممارسة عناق الحب المكتمل قد تتسبب في خيبة الأمل لكثير من الناس وخصوصًا الفتيات، لأن التجربة تكون مليئة بالحيرة والترقب والقلق.

وبعد ممارسة عناق الحب المكتمل يأتي الاسترخاء الكامل للرجل وللمرأة أيضًا ، وبعض الرجال يخطئ الظن فيتوهم أنه ضعيف من الناحية الجنسية، وبعضهم يستمر في هذا التوهم فيصاحبه هذا الاسترخاء لمدة يوم من بعد ممارسة عناق الحب المكتمل.

وبعض من المدربين في المجال الرياضي يطلبون من اللاعبين للألعاب المختلفة تفادي ممارسة عناق الحب المكتمل قبل المباريات. ولا توجد قاعدة علمية وراء افتراض أن ممارسة عناق الحب المكتمل تؤثر سلبًا على قوة ممارس أي لعبة ما، ولكنها فكرة مترسبة في أعماق بعض من الرجال الذين يمتلئون بظنون غير علمية تثير المخاوف التي لا أساس لها.

وهناك سؤال يطل برأسه فى وجدان أعداد هائلة من الشباب، وهو: "لمن القيادة فى كل الحياة بكافة أوجهها؟ هل هى للرجل أم للمرأة"؟

وهذا السؤال مصدر خلاف، وفيه آراء كثيرة.

بعض المجتمعات يفضل الولد على البنت، والرجل على المرأة.

وبعض المجتمعات يعيش على دقات طبول عزفت بعد الحرب العالمية الثانية تطالب بالمساواة بين الرجل والمرأة.

وبعض من العلماء يقررون أنه لا فروق جوهرية بين الولد والبنت، فكلاهما يولد بنفس الطباع والسجايا، وأن أى اختلافات تطرأ من بعد ذلك سببها الأسلوب المختلف الذى تعامل به الأسرة وليدها إذا كان ذكرًا أم أنثى.

وبعض آخر من العلماء يرى أن هناك فروقًا فردية بين كل إنسان وآخر، وأنه إذا كانت هناك فروق بين كل فرد وآخر فهذا أدعى للاعتراف بأن هناك فروقًا جوهرية بين الرجل والمرأة.

كان الاعتقاد السائد فى القرن التاسع عشر أن الرجل يولد ولديه القدرة على قيادة كل مجالات الحياة بما فيها المسألة الجنسية، بينما لا تتمتع المرأة بهذه القدرات. لكن القرن العشرين تنازل عن هذا الرأى وأثبت العلم أن للمرأة غرائز واهتمامات تتقابل مع تلك التى توجد فى الرجل، وأن الاختلاف الوحيد هو الاختلاف فى الدور الذى يلعبه كل منهما فى عملية إنجاب الطفل: فالرجل يلقى بالبذور التى تتحد مع البويضة التى تخرج من المبيض فى رحم المرأة، وتحمله المرأة فى الرحم لمدة أربعين أسبوعًا ليدق الطفل باب الحياة من بعد ذلك.

وأنا أؤمن أن هناك " ندية إنسانية " بين الرجل والمرأة وأؤمن باختلاف دور كل منهما فى الحياة. لكن إيمانى هذا لا يستطيع أن ينتقل إلى وجدان كل قارئ، فهناك المتشكك وهناك المرتاب، وهناك جهاز القيم المختلف من مجتمع إلى آخر، وله التأثير العميق.

لقد تطور الجنس البشرى على مدى ملايين السنين، وفى مراحل التطور المختلفة كانت الأعمال تتوزع بين الرجل والمرأة. وكانت الفوارق البيولوجية بين جسد الرجل وجسد المرأة تصنع استجابة اجتماعية، فيزداد تقسيم نواحى العمل فى المجتمع. وصار الرجل هو المقاتل، والصائد، والمؤدى للأعمال الثقيلة، والذى يفترض فيه المجتمع أنه لا يخاف، لذلك فعليه أن يكتم مشاعر الخوف، وهو واضع النظريات والمبتكر، والذى يستمتع بتحليل المشاكل إلى أجزائها المتفرقة ثم يجد الحل. كل هذه الخصائص تجعل الرجل أكثر خشونة

من المرأة، وأقوى شخصية، وأقل عاطفة. عقله دائمًا مشغول بالأمور المهمة. لذلك فهو لا يلحظ إحساس زوجته بالحزن، ولا يستمع بفهم عميق لما تقوله زوجته فى بعض الأحيان. إنه يملك إحساسًا متفوقًا بذاته على المرأة، ولذلك يخاف أن يقر بأنه مخطئ فى بعض الأحيان. ويخاف أن يفقد قناعه المتفوق الذى ثبته على وجهه المجتمع الذى ينتمى إليه. ولعل هذا هو السبب الرئيسى الذى يضع فى غالبية المجتمعات البشرية عرفًا يقضى بأن يتزوج الرجل امرأة تصغره فى السن بسنتين أو ثلاث سنوات لتكون أكثر اقتناعًا بحكمة قيادة وسعة معرفته. وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يحمل جنينًا فى أحشائه مثلما تفعل المرأة، فهو يستطيع أن يكون مبتكرًا لأشياء أساسية فى الحياة كالآلات، وأن يبدع كصانع وكاتب ومؤلف. والرجل حتى يكون صيادًا ماهرًا لا بد له من استخدام الخيال، وأن يكون ممتلئًا بالشجاعة، وبالقدرة على اقتناص الفرص، ولولا ذلك لكان مجرد كائن خانع يرضى بالعيش دون الإقدام، ولو كان الرجل كذلك لما تقدمت البشرية وتمدنت.

وأما ما يخص دور الرجل العاطفى مع المرأة، فالذكر بطبيعته يأخذ أثناء ممارسة عناق الحب المكتمل دور المبادرة والهجوم، وهو فى نفس اللحظة منتبه تمامًا لتقييم كيفية استقبال الأنثى تجنبًا لأى رفض أو إهانة.

والشباب والرجال عمومًا ميالون غريزيًا لإثبات رجولتهم سواء لأنفسهم أو للآخرين الذين يعيشون معهم. ولكن ينام تحت جلد كل رجل وشاب نوع من القلق الذى لا يظهر على السطح إلا فى حالات قليلة، وكذلك قد يظهر هذا القلق عنيفًا ومؤلمًا أحيانًا .

واهتمام الرجل بقوة فاعليته الجنسية يأخذ أشكالاً كثيرة. ونرى هذه الأشكال عندما نسمع من الرجال حكايات عن المهارة فى الأداء الجنسى.

والحقيقة أن مثل هذه الحكايات إن كانت تعبيرًا عن الحقيقة أو من الخيال إلا أنها تدل فى الحالتين على قلق عميق من الرجل على قوة الانتصاب ومدى فاعليته فى إسعاد شريكته.

ويترجم الرجل إحساسه الرومانسى بالمرأة عندما يتقدم لحمايتها ورعايتها ويقدم لها من الملابس والهدايا ما يؤكد قدرته على رعايتها سواء أكانت ملابس تحمى بالفعل من البرد كمعطف من الصوف، أو معطف من فراء "المنك" للزهو الاجتماعى، يحدث ذلك طبعًا بعد أن يوفر لحياتهما معًا منزلاً .

إن الرجل يفعل كل ذلك بغرض إثارة إعجاب المرأة بقدرته وبراعته.

ونحن نجد بين الرجال نوعًا من التنافس من حيث الوظائف، ومن حيث ارتفاع الدخل

باعتباره مقياساً للجدارة، وكذلك من حيث القدرات الرياضية والعقلية والتجارية. وقد تبدو مثل هذه المنافسات مثيرة للغثيان في بعض الأحيان من فرط تفاهتها، ولكن هذا التنافس هو من أقوى الحوافز للتقدم. إنها الآلية المنتجة للجديد، وهى آلية تضيف التحسينات فى مجالات المعرفة والحياة كافة، وهى فى نفس الوقت آلية لإثارة المشكلات. فنحن نرى أن بعضاً من الرجال يقودون السيارات بجنون، أو يمارسون هواية تسلق الجبال أو ينغمسون فى منافسة ألعاب القمار أو يتباهون بممتلكاتهم، أو يدخلون فى معارك بالأيدى، أو يتخاصمون أمام القضاء، وقد تجد من بين أشكال هذه المنافسات المرضية تلك التى تصيب قادة الدول فيدخلون فى حروب.

إن السماء جهزت الرجل ليكون الجنس الأكثر عدوانية: عضلات مصقولة، وعظام قوية تساعد على الصيد والمعارك. وفى نفس الوقت جهزت السماء أيضاً كل إنسان بديناميكية نفسية يستطيع أن يخفف بها عدوانيته، وأن يكتم هذا العنف فى داخله، وأن ينظم طاقاته ليسمو بها فى صناعة أشياء وآلات تزيد من الحضارة وترتفع بالمدنية.

ومثال على ذلك نظرتنا إلى طفولة أى عالم أو أستاذ جامعى له أبحاث ذات قيمة. أغلب الظن أن هذا الأستاذ أو العالم قد نشأ فى أسرة، الوالد فيها رجل على درجة من الإحساس الراقى، والأم فيها تعرف كيف تحفز الابن ليتقدم دراسياً . وكل منهما حاول قدر الطاقة أن يتفاهم مع الآخر حول أدق تفاصيل الحياة بمناقشة أمورها ومشكلاتها مناقشة هادئة، ولم يدخلا أبداً فى معارك، ولم يضرب الأب الأم، بل قد تكون حياة هذا العالم نفسها لم تشهد عدواناً من الأب أو الأم، فلم يعاقبه أحدهما بالضرب أبداً .

ومثل هذا العالم كان فى طفولته يتلقى التحذيرات من الأم إذا ما أراد أن يتعارك مع زميل له. وتوقظ فيه الأم أسباب استخدام الأفكار بدلاً من أسباب الانتصار بالقوة العضلية. وغالباً ما يكون مثل هذا العالم قد نشأ فى وسط اجتماعى يتخذ من نفس نمط الحياة أسلوباً للمعيشة. وكانت المناقشات في هذا الوسط الاجتماعى تفضل موضوعات الثقافة والمتعة العقلية والمنطق أكثر من مناقشتها لألعاب الملاكمة والمصارعة وأخبار الحروب. ومثل هذا الوسط يهتم الآباء فيه بمتابعة كيفية تقدم الابن فى دراسته ويشجعونه لكى يأخذ موضعاً متميزاً أثناء الدراسة. لقد تم تقييد كل نوازع العدوان داخله وإعادة تكييف مسارها لتصبح إبداعاً ، فيأخذ ما يشعر أنه مسموح به ومن حقه، ويرفض ما هو عكس ذلك.

وعندما ننظر إلى الطاقة العاطفية فى الذكر المتوسط نجدها تذهب فى النشاط

التنافسى، سواء أكان رياضياً أو فنياً أو متعلقاً بالألعاب المختلفة. إن هذه الطاقة العاطفية هى التى تدفع الإنسان المتوسط إلى متابعة المناقشات المثيرة، وأحياناً العراك بالأيدى، وأحياناً ثالثة الجدال الشديد، وهى بالتأكيد تمتص القدرات التى كان بإمكانها أن تخدم توقد الذهن والإبداع العلمى أو الثقافى أو الفنى.

وعلى هذا الأساس، فإن الأسرة التى تقوم بتربية طفلها على احترام التفوق العقلى، والرياضى، والإحساس الحنون بمشكلات الآخرين، واحترام أفكارهم، لا بد أن يكون سلوك الأب فيها مع الأم أمام الابن نابعاً من الاحترام وعدم الابتذال الكثير، وهذا عامل يساعد الطفل على الارتقاء بمشاعره الجنسية فيسمو بها إلى آفاق من إتقان العمل المطلوب منه والتعاون مع من حوله.

وعندما يسأل الطفل فى مثل هذه الأسرة عن الجنس فإنه يجد إجابة علمية بكلمات واضحة تؤكد الحقائق البيولوجية عن الرجل والمرأة ولا تهمل أبداً الحب الروحى بين الرجل والمرأة، وهذه الأسرة لا تسمح لنفسها بتبادل النكات الثقيلة والخشنة حول موضوع الجنس.

إن مثل هذا الطفل يسمو بطاقاته الجنسية أثناء المراهقة، وسوف يملك اهتمامات ذهنية وعقلية وفنية على درجة عالية من الإبداع خصوصاً من عامه السادس وحتى عامه الحادى عشر.

وفى هذا الإطار من القيم الرفيعة فى النظر إلى الجنس سيعيش هذا الطفل فى مراهقته نوعاً من الخجل فى طلب مواعيد اللقاء مع الفتاة من الجنس الآخر، وسيجد أن طاقته الجنسية تسمو أيضاً وتظهر فى النجاح الدراسى والاهتمامات العلمية أو الفنية. وهذا الكبت الجزئى للطاقة الجنسية يعبر عن نفسه بأحلام اليقظة التى تغمر خيال الشاب عن فتاة الأحلام التى سوف يلتقى بها ومستقبله المهنى الباهر الذى سينجح فيه من أجل أن يبنى بيتاً جميلاً ليعيش فيه مع فتاة الأحلام.

لكن هل يعنى حديثنا عن الشاب أننا نهمل الفتاة؟

وهل توقعنا بالتفوق العلمى والمهنى للطفل الذكر الذى ينشأ فى أسرة متعلمة مثقفة تعنى أننا لا نتوقع مثل هذا المستقبل للفتاة؟

بطبيعة الحال لا.

إن الفتاة منذ فجر البشرية تتلقى الدور الاجتماعى لها كسيدة فى المستقبل: إنها تحضر الطعام، وتعتنى بالأطفال، وتزرع الأمل فى زوجها وتشجعه على أداء عمله، وتعمل

على راحته، وهى دائمًا في حالة انتباه إلى مشكلات واحتياجات كل فرد فى الأسرة. يحدث هذا عند كل امرأة متوسطة الفهم والذكاء والتعليم. وكل أنثى بطبيعتها وفطرتها حساسة لكل هذه المجالات وتتمتع بنظرة واقعية لمشكلات كل يوم: تدخر المؤن، وتعد الخطط للمستقبل، وتؤكد إحساس أبنائها بالأمان لتوازن إحساس زوجها بالخطر، والأم أكثر لطفًا وتفهمًا للأولاد من أى إنسان آخر.

والفتاة أثناء الدراسة لا تكثر من المجادلات والنقاشات العنيفة مع أساتذتها كما يفعل الذكور. إنها تتعلم بهدوء نسبى وتحصل على درجات عالية. وهى قادرة بعد التخرج على أن تكون مبدعة فى المجال العلمى والثقافى والفنى وفى وضع النظريات والقيام بالإدارة، وهى تعرف كيف تكون مؤثرة. وبعض من النساء يستطعن القيام بالمهام التى تتطلب الإقدام والشجاعة، بل قد تقوم المرأة بالأعمال الخشنة إذا ما تطلب الأمر مثل هذا.

ويعتمد كل ذلك على مزيج من المكونات للظروف التى تمر بها الفتاة منذ ولادتها وكيفية استقبال الأسرة لها وأسلوب التعامل معها من الطفولة إلى المراهقة. وأنا أذكر ذلك بالتحديد لأن غالبية الفتيات يبدأن الحياة باستعداد فطرى لتعلم مهام الأنوثة، وبالهدوء الذى لا يتمتع به غالبية الرجال. ولكن إذا ما تمت معاملة الفتاة بتشجيع ورأت أمها أمثلة ناضجة تؤدى المهام الشاقة، وإذا ما شجعتها الأسرة على التنافس مع غيرها، فإن الفتاة تستطيع أن تفعل كل ما يمكن أن يطلب منها أو تواجهه مثلها فى ذلك مثل الشباب تمامًا . لكن سعادتها العاطفية أمر آخر، إنها تظل سعادة بعيدة لأنها تقف حائرة بين دور الأنثى ودور الذكر. قد يختلف معى فى ذلك رواد المساواة بين الرجل والمرأة، لكن اختلافهم لا يقلل من صرخات النساء من هذا النوع فى العيادات النفسية، كما لا يقلل من تعاستهن فى الزواج وتربية الأبناء.

الفصل الثامن:

الولد أفضل أم البنت ؟

ما إن يدق المولود باب الحياة حتى يستقبله إحساس الكبار به. ومن المؤكد أنه يلتقط بإحساسه الداخلى معظم ما يجرى من انطباعات حول مجيئه إلى هذا العالم، وهل هو كائن مرحب به أم هو كائن غير مرغوب فيه؟ أم أن التوقعات كانت تطلبه من جنس آخر غير الجنس الذى ينتمى إليه.

وما إن يصل الطفل إلى الثانية أو الثالثة حتى يبدأ فى التعرف على الجنس الذى ينتمى إليه، فتلاحظ الفتاة أن لدى الولد عضواً تناسلياً يختلف فى شكله عن عضوها التناسلى.

ولأن من طبيعة الطفولة حب الامتلاك الشديد، لذلك فالبنت تفضل أن تمتلك شيئًا مماثلاً لما عند الطفل الذكر.

ولما كان ذلك مستحيلاً فإن ذلك الأمر يقلقها فى بعض الأحيان، بل يجعلها مجنونة فى بعض الظروف.

وهذا الفارق يترك فى بعض الإناث أثراً عميقًا مما يعكر صفو علاقاتهن بالذكور اجتماعياً وعاطفياً ووظيفياً، وفى بعض الإناث الأخريات لا يمثل هذا الفارق التشريحى أى أثر ملحوظ اللهم إلا فى أثناء الأزمات الشديدة. وعندما يمثل هذا الفارق بالنسبة للمرأة إحساسًا مؤلمًا وبعمق، فهذا يدفع المرأة إلى الدخول فى نشاطات ومجالات يمكن أن تتبارى فيها مع الرجل بخشونة.

وفى المقابل فإن الذكور عندما يعلمون أن بوسع المرأة وحدها أن تحمل الجنين فى رحمها، وأنهم لا يملكون مثل هذه القدرة، قد يندفعون إلى ابتكار أشياء تزيد من قيمة إحساسهم بأنهم إذا ما كانوا عاجزين عن حمل الأطفال، فهم قادرون على تحقيق ابتكارات تفيد المجتمع كله.

وهذا الإحساس أيضًا يدفع بعضًا من الرجال إلى التفوق على زوجاتهم فى رعاية الأطفال.

إننا نجد بعضًا من الرجال يتصرفون بعميق الاهتمام برعاية الأطفال وكسب إعجاب الأطفال وحبهم. يحدث كل هذا دون وعى به طبعًا .

وأنا أعتقد أن مسألة المنافسة بين الرجل والمرأة لا تبرز بشدة إلا فى أمريكا وبعض من بلدان العالم الغربى بسبب أسلوب تنشئة الأطفال وسط الأسرة والعائلة والمدرسة والمجتمع.

أما فى البلدان الفقيرة من هذا العالم الذى نحيا فيه، فإن الولد يتعلم مهنة والده فى غالب الأحيان بلون من الاعتزاز والمتعة، وكذلك تتعلم الفتاة دورها الاجتماعى من الأم بفخر وكبرياء. وحتى فى حالة وجود مدارس للتعليم، فإن عدد مدارس الذكور يفوق عدد مدارس الإناث.

وعلى أية حال، فإن المجتمعات التى يصفها الغرب بالتخلف تتمتع بدور مقبول لكل من الرجل والمرأة، والفرق بين الجنسين واضح، وكل إنسان يعتبر دور الآخر حيويًا ومحترمًا .

وفى الحضارة الغربية المعاصرة تحاول بعض الأسر ألا تفرق بين أسلوب تربية الولد وأسلوب تربية البنت؛ فالبنت ترتدى نفس ملابس الولد، مثل "الجينز الأزرق" و"الفانلات" المرسوم عليها نفس الرسوم. وتتوقع الأسرة من الولد والبنت أن يلعبا نفس الألعاب معًا ، وقد يخصص لهما الوالدان جزءًا متشابهًا من عمل المنزل، وبطبيعة الحال فهما يتعلمان نفس الدروس فى المدارس والجامعات.

وليس من حقنا أن نجادل الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات فى اختيار أسلوب تعاملهم بمساواة بين الجنسين، وعدم تمييز الفارق بين دور الرجل ودور المرأة. نحن لا نجادل فى ذلك رغم إيماننا بضرورة اختلاف أسلوب التعامل بين الولد والبنت، لا بما يقلل من إحساس البنت بنفسها أو يقلل من إحساس الولد بنفسه، ولكن بما يحقق لكل منهما وعيًا لدوره باحترام وتقدير وإحساس بالندية لا المساواة؛ لأن الندية تعنى أن يتعرف

الفرد على دوره بفخر واعتزاز دون التقليل من دور الفرد الآخر، ولو كان من جنس آخر.

إن المجتمعات الغربية ساد فيها خلال الخمسين عاماً الأخيرة أسلوب المساواة المطلق بين الرجل والمرأة مما أشعل التنافس بين الجنسين.

صحيح أنه زادت أرباح تجار الملابس الموحدة التى تصلح للجنسين معًا، ولكن من الصحيح أيضًا أن مشكلات المنافسة بين الجنسين صارت عبئًا نفسيًا على كل من الرجل والمرأة. فبعض النساء يدخلن الآن إلى أماكن الشراب ويحتسين الخمر، ويصحن، ويصرخن، ويفرطن فى مظاهر الصداقة والمصافحات العنيفة، ويستعملن لغة بذيئة فى الحوار، وبطبيعة الحال يرتدين نفس الملابس التى يرتديها الرجل، ويتبادلن الحكايات القذرة مثل الرجال، وإذا كان هذا السلوك ممجوجًا بالنسبة للرجل فهو أكثر من ممجوج بالنسبة للمرأة، لأن ذلك السلوك لا يتفق مع طبيعة المرأة، ولكن هناك من دفعها إلى ذلك السلوك بإثارة أحاسيس المنافسة بشكل متجدد حاد.

لقد دخلت المرأة إلى معظم الوظائف التى كانت مقصورة من قبل على الرجال. واستطاعت فى بعض الدول أن تحصل على نفس الحقوق التى يحصل عليها الرجل، ولكن هناك بعضًا من المجتمعات التى تعطى المرأة أجرًا أقل من أجر الرجل. ومن الغريب أن هذه المجتمعات هى أول المجتمعات التى نادت بالمساواة بين الرجل والمرأة.

وعندما تطلب المرأة زيادة أجرها ليساوى أجر الرجل يقال لها: "لا تنسى أنك امرأة، وأنك تحتاجين إلى إجازة عندما تحملين طفلاً ، وهناك أربعة أيام على الأقل خلال الشهر يصيبك فيها التعب نتيجة الدورة الشهرية، كما أن نسبة الخطأ فى عملك تزداد فى الفترة السابقة على الدورة الشهرية، وكل ذلك يؤثر على العمل، لذلك لا بد لك من أجر أقل".

لقد استخدموا الصفات الطبيعية فى حياة المرأة لإذلالها وامتصاص قدراتها فى العمل إلى أقصى حد بعائد مادى أقل من عائد الرجل. وأثناء ذلك يقومون بتحقير وظيفة تربية الطفل يجعلونها أمرًا موصوفًا بالملل ومثيرًا للاشمئزاز. كل ذلك من أجل مصلحة قصيرة النظر للعصر الذى يستنزف جهد النساء ويتفنن فى الإعلان عن المساواة. ولو كانت تربية الأطفال وتنشئتهم عملاً مملاً فلماذا يتخصص الرجال فى فروع طب الأطفال، وفى دراسة السلوك النفسى للأطفال؟ ولماذا يتجه بعض من الرجال إلى حلق التعليم ليربوا الأطفال ويساعدوهم على النمو ويجدون فى ذلك عملاً رائعًا ؟

هل معنى ذلك أن الرجال يريدون أن يسلبوا النساء مكانتهن؟

أم أن الأمر هو خلل فى التقسيم الاجتماعى للوظائف والأدوار؟

أنا أميل إلى الاعتقاد بأنه الخلل فى التقسيم الاجتماعى للوظائف والأدوار.

وبطبيعة الحال أنا لا أنكر على المرأة القيام بأى عمل تجيده، ولها قابلية له، وامتلكت تدريباً عليه، وإن كنت أثق أن اختيار المرأة لبعض الأعمال لا ينبع من طبيعتها، بل فرضته عليها قواعد المنافسة مع الرجل وأرادت به المرأة أن تكسب درجة من الرضى النفسى الناشئ عن أنها تشغل بعضاً من الوظائف التى يشغلها الرجل.

إن تجاهل المجتمعات المتقدمة _ كما فى حضارة الغرب_ للمبدأ الفلسفى القائل "إن من الطبيعى احترام المرأة لأنها تقوم بتنشئة الأطفال وإن هذا العمل لا يقل أهمية عن أروع وأدق الإنجازات البشرية"، هذا التجاهل يتسرب إلى ذهن المرأة ووجدانها بما يجعلها تتوهم أن القيام بهذا الدور يجعلها أقل مرتبة من الرجل، وهذا ليس صحيحاً.

إن هذه المجتمعات تبرز فى صفحاتها المطبوعة، صحفاً أو كتباً ، وفى إذاعاتها المرئية أو المسموعة صور رجال السياسة ورجال الحرب والمبتكرين من الرجال، والعلماء الرجال، والمؤلفين الرجال، لذلك تنجذب عيون الفتيات مثل عيون الفتيان إلى ضرورة اتخاذ الأعمال التى يقوم بها الرجال كمثل أعلى. وتندفع الفتيات إلى منافسة الفتيان للحصول على مثل تلك الأعمال. وتتعلم الفتاة من أجل أن تحصل على مكانة كمكانة الرجل، وعندما تتزوج وتنجب ويصبح مطلوباً منها أن ترعى الطفل الوليد طوال الشهور الأولى من حياته، فهى تقع فريسة بين إحساسها بحبها لرعاية وليدها وبين إهدارها لما تعلمته من مهنة تنافس بها الرجل، وتشعر بالمرارة لأن زوجها يستمع بصحبة زملائه وزميلاته فى العمل بينما هى أسيرة لرعاية الوليد.

ودعونا نقل إن تربية وتنشئة طفل واحد بأسلوب متميز أمر أكثر جدوى وقيمة من أى إبداع آخر فى الحياة، سواء كان إبداعاً علمياً أو فنياً . إن تربية "شكسبير" هى التى خلدته، وتربية "أينشتين" هى التى دفعته إلى حب علمه. وقد يقال إن العلماء تربوا فى حياة قاسية، ولكننا نقول إن الحياة قد تكون قاسية مادياً ، ولكنها غير ذلك معنوياً خصوصاً عند الأمهات اللاتى يعلمن أن تنشئة الطفل بشكل متوازن عمل أهم من الحصول على الماجستير أو الدكتوراه.

لذلك أنادى بعدم تشجيع البنات على التنافس مع الأولاد، لأن ذلك سيدفعهن إلى الإحساس بعدم الرضى بمهنة تنشئة الأبناء، رغم أن تنشئة الأبناء هى المهمة الأكثر إبداعاً بالنسبة للمرأة سواء عملت المرأة خارج المنزل أم لم تعمل.

وأنادى بأن تلقن الأسرة أبناءها من الذكور الكثير من المعلومات عن تنشئة الأطفال،

فليست مهمة الرجل أن يغيب كل الوقت عن المنزل بدعوى أن يعمل ويأتى للأسرة بمال.

إن على كل شاب أن يؤمن أن تنشئة طفل صحيح التفكير، سليم الصحة، ملىء بالرضى النفسى وظيفة مهمة ذات مسؤوليات متعددة، وأن مسؤولية تنشئة الأبناء لا تقتصر على مجرد الحصول على دخل مادى كاف للصرف على الأسرة.

وكثير من رجال البلدان العربية التى لم يظهر فيها البترول هاجروا منها للبحث عن الرزق فى البلدان العربية التى ظهر فيها البترول، وهؤلاء الرجال عانوا لكثير من اضطرابات الأبناء النفسية والسلوكية. لقد ثبت أنه من الجنون أن يستغرق الأب فى عمله أو يبتعد عن أسرته من أجل جمع المال.

إن الرجل يجب أن يتعلم كيف يكون مسؤولاً ومشاركًا فى التربية النفسية لأبنائه.

ولا أعنى بذلك أن يلعب الرجل دور الأب والأم معًا ، ولكن أعنى به أن يجد الأب وقتًا ليشارك فى رعاية الأبناء.

ويلاحظ الكثير من العلماء أن هناك بعضاً من الرجال ينغمسون فى رعاية الأسرة ويهملون التقدم فى أعمالهم. ويفسر العلماء ذلك بأن السبب فيه هو خروج المرأة إلى العمل العام، وأنه صار هناك أكثر من جيل من النساء اللاتى يدفعن الرجل إلى المنافسة معهن، وهى فى غالبية الأحيان منافسة غير متكافئة، فهناك نسبة لا بأس بها من النساء تستغل أنوثتها كجسر إلى العمل، وليس إتقان العمل وحده هو الذى يجلب لهن التقدم فى الوظائف. لذلك ينسحب مثل هذا الرجل من دائرة الاهتمام بالعمل إلى دائرة الاهتمام بالأسرة، ويصبح منقاداً لزوجته. صحيح أن ذلك صعب بالنسبة للرجل البالغ، ولكنه صار ممكن الحدوث.

وعندما يصبح الرجل منقاداً فهذا معناه أن هناك زوجة متسلطة توجد على رأس قيادة الأسرة، ويصبح الطفل فى هذه الأسرة منقاداً بطبيعة الحال للأم التى ترفض أن يلعب الألعاب العنيفة، وترفض أن يشارك الأطفال الذين فى مثل عمره ألعابهم التى قد تتسم فى بعض الأحيان بالخشونة، وقد تمنعه مثل هذه الأم المسيطرة من أن يفكر فى أى مشروع مستقل يقوم به بنفسه، بل قد تتمادى مثل هذه الأم فتجعل ابنها يخجل حتى من كونه ذكراً .

وعندما يكبر مثل هذا الطفل ليصير رجلاً فإن اختياره لزوجته سوف يتأثر بالتأكيد بطبيعة العلاقة بينه وبين أمه أثناء طفولته المبكرة، لذلك يختار مثل هذا الشاب فتاة تتميز بالتسلط والتحكم.

وأعتقد أن نسبة المتسلطات فى ازدياد، نتيجة لاتباع الفتيات نفس الأساليب التى تسلكها الأمهات المتسلطات، وهى نسبة كبيرة فى حضارة الغرب المعاصرة.

وهناك طريق آخر يفقد به بعض من الرجال حجماً لا بأس به من إحساسهم بالكبرياء والسيادة: إنه خروج النساء إلى العمل. فقديماً كان الرجل هو مصدر جلب الرزق إلى الأسرة. كان الرجل يخرج للعمل فى وظيفة خارجية ويأتى بالمال للمنزل. وكان مثل هذا الرجل يتلقى من زوجته نظرات الإعجاب والتقدير لأنه صاحب وظيفة فريدة وحاسمة، تماماً مثل حسم وظيفة زوجته فى إدارة المنزل. وكان كل من الرجل والمرأة لا يكلان من العمل من طلوع الشمس إلى غروبها: هو يعمل خارج المنزل، وهى تعمل داخل المنزل.

ولم تكن المرأة فى القرون السابقة تذهب إلى المدارس أو الجامعات، ولم تكن تتعلم المهارات العلمية أو اليدوية التى تؤهلها للعمل خارج البيت. وكانت المرأة فى بعض الأحيان تبالغ فى إشعار الرجل بأنه القوى وصاحب المهارة والحكمة.

أما فى زماننا المعاصر فالمرأة تشارك الرجل فى معظم الأعمال، بل وفى ألوان الألعاب الرياضية العنيفة والخشنة. وصارت المرأة تؤدى بعضاً من الأعمال اليدوية العنيفة، أو الأعمال التى كانت تعتمد من قبل على الرجل فقط.

وبعض الرجال يحاول أن يتفوق فى الأناقة بشكل مبالغ فيه. والرجل الذى من هذا الصنف يحاول أيضاً أن يتفوق فى المنطقة الخاصة بعمل الزوجة، فيفخر بأنه أكثر قدرة من زوجته على إجادة الطهو ويفخر بقدرته على رعاية الأطفال أكثر من المرأة. والغالب أن مثل هذا الرجل عانى فى طفولته منذ عامه الثالث من الإهمال، ولم يشعر بأهميته الفريدة فى كونه ذكراً ، فلذلك مضى ينافس المرأة أثناء النضج فى مهامها.

وأنا لا أريد أن أعطى الانطباع بأن الرجل عندما يتخصص فى علم نفس الطفل، أو عندما يدخل إلى المطبخ ليصنع وجبة طعام، أو عندما يقدم زجاجة طعام لطفله، إنما ينافس المرأة. لا، إن بمقدور الرجل ـ أى رجل ـ أن يقوم بأعمال المنزل من طبخ ورعاية للأطفال وتنظيف للحجرات عندما يوجد سبب جوهرى لذلك ودون إحساس بالمنافسة مع المرأة.

إن الأمر المهم الذى أريد أن ألفت النظر إليه هو الدافع لأن يفعل الرجل عملاً كان مخصصاً من قبل للمرأة، وليس مجرد قيام الرجل بعمل البيت فى الظروف التى تقتضى ذلك.

ومن النتائج المهمة لحركة الحرية الجنسية التى انتشرت فى أوروبا وأمريكا فى الثلاثين

عاماً الأخيرة أن الفتاة صارت هى التى تقوم باقتحام حياة الشاب لتطلب منه إقامة علاقة عاطفية. لقد صارت الفتاة فى كثير من الأحيان هى التى تقوم بالمقدمات التمهيدية لإقامة علاقة عاطفية.

وكثيراً ما يعلن الشاب الجامعى فى أمريكا وأوروبا أنه ينزعج كثيراً من مطاردة الفتيات سواء بالمكالمات التليفونية أو بالمغازلات فى الأماكن العامة. وعندما تواجه الفتاة بمثل هذا الرأى فانها تتمادى فى الهجوم قائلة: "إننا فى زمن آخر جديد نملك فيه عادات جديدة". قد يكون هذا القول صحيحا بأننا فى زمن جديد ونواجه عادات جديدة، وما كان يحدث فى الماضى من مطاردة الرجل للمرأة ليس هو بالأمر المناسب الآن، ولكن من المؤكد أن التمادى فى هذا الاتجاه لا يحقق السعادة للمرأة أو الرجل.

إن حق المرأة أن تعمل إذا ما أرادت ذلك، ولكن من المسؤولية أن نوضح لها أن تنشئة طفل واحد صحيح نفسيا أكثر أهمية من أية درجة علمية وأكثر أهمية من أية مكانة ووظيفة.

ومن حق المرأة أن تختار الرجل المناسب لها، لكنها تصبح أقل سعادة عندما تقوم هى بالمبادرة الظاهرة والخشنة لإقامة هذه العلاقة.

إن النساء عندما يسيطرن يفقدون الإحساس بالدفء والسعادة، تماما مثلما يفقد الرجل الكثير من إحساسه بالكرامة، ويفقد أيضاً الاعتزاز بأنه رجل.



الفصل التاسع:

الحب الناضج وفن تربية الوليد



ليس الصدر وحده هو الذى يغذى الطفل. إن الطفل يشرب بكل حواسه الحنان من أمه.

نقول ذلك لأن صيحة مساواة الرجل بالمرأة خف ضجيجها بعد أن ثبتت الحقيقة البديهية، تلك الحقيقة القائلة إنه لا دور فى العالم يضارع دور الأم فى تنشئة الطفل.

صحيح أن المرأة صارت مؤلفة، وطبيبة وعالمة، ومدرسة وقاضية وراقصة، ومزارعة وسياسية.

وصحيح أيضًا أن أحدا لا يجرؤ على التقليل من أهمية عمل المرأة فى أى مجال تتفوق فيه شرط أن تلتفت إلى السنوات الثلاث الأولى من عمر طفلها وتعتنى به.

قد تقول سيدة عاملة: "لم يرمنى على مرارة العمل وزحام الأسواق وتعب القلب طوال النهار إلا ضيق الرزق ولقمة العيش".

ونقول لمثل هذه المرأة: "أنت قادرة فى بعض اللحظات أن تعطى ابنك ما يحتاجه من الحنان، ومع ذلك سيكتشف هو فى الكبر أن هناك شيئا أساسيًا كان ينقصه فى طفولته، لا يدرى ما هو، وسيترك هذا غالبًا بصمة من القلق الخفى على حياته".

ونفس الشىء، بصمة القلق الخفى تنمو وتستقر فى نفس طفل الأسرة الثرية التى تترك الأم فيها مسألة العناية بالطفل إلى المربيات.

وقد تقول سيدة عاملة: "إن تفوقى فى عملى مهم جدا بالنسبة لى، أما تربية الأطفال فمسألة تجيدها المربيات أو العلامات فى دور الحضانة.

أما أنا فلا بد لى من أن أثبت أننى لست أقل من الرجل. لقد خدع الرجل المرأة واستقل بألوان من الأعمال تثبت تفوقه، فاستطاع أن يكون الطبيب والواعظ والمحارب والروائى والتاجر والسياسى. لقد حاول الرجل أن يطمس من ذاكرة البشرية أن المرأة كانت تقوم بكل الأعمال التى يختصها لنفسه الآن، ولعل اهمها القتال. لقد كانت المرأة تقوم بما هو أبشع من القتال، فكانت مثلا تصارع الثور فى "كريت" القديمة وصدرها عار، وكانت متفوقة فى هزيمة الثيران".

ولا أحد يمكن أن يقنع مثل هذه السيدة بأن تغير فكرتها عن الأمومة سوى الأمر الواقع. فابنها _ أو ابنتها _ عندما يمر بمراهقة صعبة فهى (الأم) التى تتحمل مسؤولية ما فعلت عندما فضلت العمل فى السنوات الثلاث الأولى من حياة طفلها، واهملت بشكل أو بآخر العناية النفسية بطفلها.

إن الواقع الذى اقترحته الحضارة الغربية على البشرية منذ الحرب العالمية الأولى يقول إن المرأة خرجت إلى العمل فى المصانع والمزارع والمكاتب، لأن الرجال وقفوا على جبهات القتال. ومنذ ذلك التاريخ انكسر فى خيال الرجل بريق الكسب المادى الكبير الذى كان يحققه بمفرده. لقد صارت المرأة تشاركه هذا الكسب. وعززت الحرب العالمية الثانية هذا الاتجاه أيضًا . وجاء التقدم الصناعى بثوراته المتعددة، ليذيب صعوبة الأعمال التى كانت تحتاج إلى قوة بدنية، وصارت تلك الأعمال سهلة بفضل التقدم العلمى لأن الآلة تقوم بها.

وكان انخفاض عدد ساعات العمل مشجعًا للمرأة على التمسك بالمشاركة الجدية للرجل فى الوظائف كافة، وصار باستطاعة الرجل أن يتناول إفطاره مع زوجته وأن يخرج الاثنان إلى العمل. أما إعداد الطعام فقد وفرت الثلاجات بتقدم صناعتها إمكانية إعداد الطعام مرة واحدة فى الأسبوع أو مرتين. وأحست بعض النساء فى بعض المجتمعات أنها لا تقوم بعمل واحد، بل بعملين: العمل الأول هو الوظيفة أو المهنة التى ملأت وقتها معظم ساعات النهار، والعمل الثانى هو تنظيف المنزل وإعداد الطعام والعناية بالاطفال.

ومع تقدم صناعة الآلات التى تساعد المرأة فى عمل البيت بدت مهمة القيام بأعمال المنزل سهلة، وتم توجيه نداء متكرر للرجل بأن يشارك فى أعمال البيت. وصارت المرأة فى عصرنا، بفضل تقدم وسائل الرعاية الصحية، أكثر شبابًا فى المجتمعات التى تكفل العناية بالصحة، ولكنها تعانى فى بعض المجتمعات الأخرى من أمراض فقر الدم

والشيخوخة المبكرة، مثلها مثل النساء فى أوائل هذا القرن عندما خرجن للعمل. إن المرأة فى بعض المجتمعات تخرج إلى العمل من أجل رفع مستوى معيشة الأسرة وفى نفس الوقت فإنها لا تجد الرعاية الصحية اللائقة.

لكن المجتمعات الغربية التى تقدم الرعاية الصحية للمرأة وفرت لمعظم النساء إحساساً بالحيوية والصحة. وإذا كان متوسط سن الزواج للمرأة الأوروبية والأمريكية فى أول هذا القرن ستة وعشرين عاماً ، فقد انخفضت هذه السن الآن، وصارت المرأة تتزوج فى الثالثة والعشرين تقريباً وتنجب وتلحق أولادها بالمدرسة، وهى تقترب من الثلاثين، ثم تبدأ فى استخدام وسائل منع الحمل مما يجعلها قادرة على الخروج للعمل.

وإذا كان متوسط العمر الذى ينقطع فيه الحيض فى أول هذا القرن هو خمسة وأربعين عاماً ، فقد تقدمت صحة المرأة وصار انقطاع الطمث لا يحدث إلا بعد الخمسين فى كثير من الأحيان.

وفى الأسر التى تنقطع فيها الأم لرعاية الطفل فى سنواته الأولى نجد أن الأم عندما تخرج إلى العمل تجد عند عودتها ابنا محبا يحاول أن يساعدها، وتجد الابن أثناء مراهقته أكثر قدرة على تفهم ظروف الأسرة، ويكون له تمرد عميق يختص بتطوير شىء ما فى المجال العلمى أو الفنى، ولا يستسلم للتمرد السطحى.

لكن ماذا عن الأمهات اللاتى لا يردن الانقطاع عن العمل لظروف معينة بعد الولادة مباشرة ؟

بعض من هؤلاء الأمهات يضعن أطفالهن فى حضانة ما طوال اليوم منذ الأسابيع الأولى لميلادهم. ولا بد لنا من أن نعترف أن مثل هذه الحضانات لا تقوم بالرعاية اللائقة للطفل سواء أكان مكانها أمريكا أو إنجلترا أو فرنسا، فما بالنا بحضانات من هذا النوع فى مجتمعات أقل تقدماً ؟ فالخوف الأكبر أن يكون مستواها غير مناسب لصحة الطفل.

ولم ينجح فى إقامة حضانات لرعاية الأطفال دون الثالثة إلا الاتحاد السوفيتى، لأن ظروف الحياة فيه أجبرت الأمهات على العمل، وكان هناك نوع من التعاطف الخفى بين المشرفات على تلك الحضانات وبين الأمهات المجبرات على العمل. ثم إن الاتحاد السوفيتى بطبيعته السياسية قد يهضم حقوق الكبار _كما أظهرت ثورة غورباتشوف _ لكن أحداً لم يجرؤ خلال الأربعين سنة الأخيرة هناك على أن يهضم حقوق رعاية الأطفال.

وتحاول الحضارة الغربية _ أوروبا وأمريكا _ إتاحة الفرص لتطور العلوم الإنسانية والسلوكية مثل علم النفس والخدمة الاجتماعية والطب النفسى، وتفخر الجامعات بوجود

أقسام عالية القيمة لدراسة سلوك الأطفال. ولكن من الصعب إقناع خريجة من هذه الكليات بأن تعمل كمسؤولة فى حضانة أطفال، بل ومن الصعب أحيانًا إقناع الخريجة منهن أن تشرف على فصل فى دار حضانة، ذلك أن المرتب فى مثل هذا العمل لا يتناسب _ من وجهة نظر الخريجات من تلك الفروع العلمية _ مع الجهد المطلوب.

وهكذا نجد أن حنان الأم لن يجد بديلا له سواء فى دار حضانة أو مع مربية أو جليسة أطفال.

إننى لن أنسى ما قالته طالبة تدرس علم نفس الطفولة: "كنت قبل أن أدرس نفسية الطفل أنظر إلى مهمة المرأة فى البيت وتنشئة الطفل على أساس أنها مهمة بسيطة وتافهة، ولكن بعد أن درست نفسية الطفل فإننى أثق أن الأم التى تحترم مهمتها كمربية لابنها وتجد معاونة من الزوج فى هذا المجال، هذه الأم أكثر فائدة للطفل وللمجتمع من أى طبيب نفسى".

وأنا أوافق هذه الطالبة تماماً على ما قالت.

إن أى دار حضانة للأطفال حديثى الولادة يجب أن تخصص مربية لكل أربعة أطفال على الأكثر، حتى يأخذ كل طفل منها شعوره بالحب والرعاية الكافية، وهذا أمر غير ممكن اقتصاديًا. وحتى لو قامت الحكومات بذلك، فليس من المعقول أن تهدر دولة ما إمكانات تدريب وتعليم مربية لكل أربعة أطفال، مع العلم بأن المربية مهما قامت بواجبها على أعلى درجة من الإتقان فلن يصل مستوى هذا الإتقان إلى حنان الأم.

والذى يجب أن تهتم به كل أم شابة ويجب أن يهتم به كل أب شاب، هو التدقيق الشديد فى اختيار الحضانة التى يلحق بها الوليد إن اضطرتهما الظروف إلى ذلك. كما يجب التمحيص الشديد فى اختبار واختيار أى جليسة للأطفال إذا ما اضطر الوالدان لقضاء وقت بعيدا عن الطفل.

إن للثلاث سنوات الأولى فى حياة الطفل أثرًا كبيرًا فيما بعد، ولذلك علينا أن نحرص على أسلوب تكوين الطفل. فالطفل يتأثر بمن يلتقى بهم ويجلس معهم مدة طويلة، سواء من ناحية التفاؤل أو التشاؤم، ومن ناحية الثقة بالنفس أو التوجس والشك.

وقد أثبتت دراسة المحللين النفسانيين للأقلية المتفوقة من الشباب والبنات فى مجال الابتكار سواء فى العلوم أو الفنون أن هؤلاء المتفوقين قد تلقوا رعاية فائقة من أم امتلأن بالطموح والأمل بالنسبة لابنائهن.

ودائما عندما يسألنى أب غارق فى العمل أو أم طموحة فى ميدان العمل عن حل

لمشكلة نفسية ما يعانى منها ابنها أقول: "دعينى أذكرك بأنه لا قيمة حقيقية تلغى دور الأمومة أو الأبوة إلا بأن يكون كل من الأب والأم مؤثرا بشكل فعال فى تشكيل شخصية الابن". وأكرر على مسامع الأم أو الأب كلماتى التى أثق فى مضمونها تماما: "إن أكثر ما يضر بالوليد الصغير هو أن نتركه دون أن نعطيه من وجودنا عاطفة حقيقية يحتاجها ويعتمد عليها. وهذا يعنى أن أى رعاية للوليد من مربية أو جليسة أطفال لن تصل دقتها العاطفية إلى دقة الأم، وصحيح عاطفتها".

إننا نستطيع أن نذهب بأطفالنا إلى الحضانة بعد أن يبلغوا الثالثة من العمر. أما قبل ذلك فإننى أتوقع أن يصاب الطفل بأكثر من مرض، وأن يشب وهو متأثر بدرجة ما من درجات التوتر النفسى.

إن رعاية الطفل فيما قبل الثالثة مسألة مكلفة وثمنها صعب نفسيا، وهى تفوق ما تكسبه الأم من مال. والأم المجبرة على العمل لا بد وأن توفر مدة كافية من الوقت بعد الظهر لتنصرف إلى الطفل وتلعب معه وتحاوره وتعطيه من حنانها ما تستطيع.

وبعض الأزواج والزوجات الشباب يحاولون أن يجعلوا أوقات دوامهم تستغرق النصف الأول أو الثانى من النهار ليضمنوا بقاء الأب أو الأم مع الطفل صباحًا ، وبقاء الأب أو الأم مع الطفل مساء. وفى ذلك تبادل لرعاية الطفل رعاية كاملة.

ومثل هذا الأسلوب قد يوفر للطفل حاجاته العاطفية وإن كان فى ذلك صعوبة فائقة لكل من الأب والأم كى يحافظا على علاقتهما الودودة معًا .

وإن مثل هذا الاتفاق أمر ناجح من الناحية النظرية، لكنه أمر عسير من الناحية العملية، وينتج عنه خلافات كبيرة بين الزوج وزوجته.

وبعض من الأسر تتفق فيها الأمهات على أن يتبادلن رعاية أطفال بعضهن البعض. فتترك أم طفلها لأم أخرى لا تعمل، ومثل هذا الاتفاق قد يكون سليما فى حالة قدرة الأم التى لا تعمل على العناية بطفل جارتها. ولو كان الطفل قد بلغ الثالثة فيمكن لمثل هذا الاتفاق أن يكون سليمًا بدرجة عالية.

إن وجهة نظرى الخاصة تتلخص فى صعوبة أن تعمل الأم طوال اليوم، وأن تجد القدرة على الرعاية العاطفية لأبنائها الصغار. وإذا كان لا بد من حل وسط بالنسبة للمرأة المصرة على العمل أو التى تحتاج إليه، فالحل الوسط هو أن تعتمد المرأة العاملة على أمها أو أم زوجها فى رعاية طفلها، عند ذلك ستأمن الأم إلى أن طفلها بين يدى شخص قادر عاطفيًا على رعايته.

ومن أهم الأمور التى يجب مراعاتها الروح التى تتم بها تنشئة الطفل سواء أكان ولداً أم بنتاً منذ مرحلة الطفولة.

إن الفتاة إن نشأت فى بيت يعتز بها ويحترم كرامتها، ستعتز بأنوثتها، وستكون سعيدة فى أمومتها المستقبلية. وهى إذا خرجت إلى العمل ستحاول أن تضيف من سعادتها فى طفولتها إلى غيرها، فهى إذا كانت مدرسة ستضيف لمسات العناية للأطفال، وهى إذا كانت طبيبة سوف تغرق بالحنان مرضاها، وهى إذا كانت محامية ستعطى زبائنها الإحساس بالرعاية والعناية. باختصار ستجد المرأة _ ذات الطفولة السعيدة _ ما تضيفه لأى مجال تعمل فيه. ولكنها لن تعتبر هدفها أبداً التبارى والتنافس مع غيرها من الرجال. إنها تعتز بأنوثتها وتفخر بها وتسعد بكونها امرأة.

وكذلك الأمر بالنسبة للطفل الذكر إذا ما نشأ فى أسرة محبة له، قادرة على أن تعلمه أن الرجولة لا تقتضى فقط العمل خارج المنزل من أجل النقود، ولكن لا بد من أن يعطى الرجل الكثير من اهتمامه لرعاية أطفاله، ويعود طفله على شجاعة الابتكار سواء فى ميدان العمل الخاص به أو فى مجال رعايته لأطفاله فى المستقبل.

إننى لأتمنى أن تلتفت المجتمعات البشرية كافة إلى ضرورة أن تدرس فى المدارس الثانوية والجامعات مادة رعاية الابناء نفسيا وصحيا، ذلك أن من أهم ما يجب أن يتعلمه الشاب أو الفتاة أثناء المراهقة وما بعد المراهقة هو القدرة على تنشئة طفل نشأة صحيحة سليمة. وأن أى عمل مهما بلغ النجاح فيه لن يساوى نجاح الإنسان فى الإحساس بقيمته الفعلية وعمق الرضا النفسى عندما ينشأ الطفل بصحة نفسية جيدة.

وأتمنى أن توجد فى المواد الدراسية فصول عن كيفية "الحياة فى العائلة" حتى نجد فى المستقبل أبناء يفخرون بأنهم تلقوا الرعاية الجيدة من آباء ممتلئين بالمودة، ومن أمهات قادرات على عطاء الحب.

قد يقول قائل: "وما جدوى كل ما تقدم بالنسبة للشاب المراهق أو الفتاة المراهقة"؟

وإجابتى هى أن الإنسان فى المراهقة يستخدم كلمة الحب استخداما كثيرا، ويرفعها كمبدأ عام عالى القيمة دون أن يترجم هذا المعنى إلى مسؤوليات محددة. ومن المسؤوليات المحددة لكلمة الحب القدرة على العناية بطفل قد يأتى بعد عناق مكتمل بين شاب عاشق وفتاة محبة، وأن يكون واضحا لدى الاثنين أن ممارسة الحب فى أى شكل له لا يفصح لنا عن مدى عمق العاطفة إلا إذا استطعنا أن نتحمل مسؤولية تنشئة الوليد الذى قد يأتى إلينا من خلال الحب ليطلب حق الرعاية.

الفصل العاشر:

الفارق بين الحب الرومانسى وحب الجسد

لعل أكثر القصص تعبيراً عن الحقائق القادمة هى قصة "شباب امرأة" التى تحولت فى الخمسينات إلى فيلم سينمائى. كتب القصة الاديب "أمين يوسف غراب" وتحركت على الشاشة بعينى المخرج العبقرى "صلاح أبو سيف"، وبأداء متقن خلاب من سيدة الرقص الشرقى "تحية كاريوكا" وبطولة إنسان تفوق فى الأداء التمثيلى هو "شكرى سرحان" وكان معهما "شادية" وكذلك سيد الإلقاء باللغة العربية والمعبر بلغة الإحساس "عبد الوارث عسر".

وموجز القصة لمن لم يقرأها ولم يشاهد الفيلم السينمائى هو انتقال شاب ريفى إلى المدينة الكبيرة ليدخل الجامعة. وكان لا بد له من مسكن رخيص فى حى شعبى. وفى أحد الأحياء الشعبية يجد امرأة لعوباً تدير مطحنا للسمسم وتملك منزلا به غرفة للإيجار. وكأن المرأة قد جعلت من هذه الغرفة مصيدة لاصطياد عشاق لها. وما إن ترى الشاب الريفى حتى تعجب بفتوته وسذاجته وترى فيه بئرا جديدة تروى منها عطش نزواتها المتلاحقة الفوارة. لكن الشاب يحاول أن يطرد وساوس خيالاته وأشواقه إلى مثل هذه التجربة، ذلك أن قلبه معلق بقصة حب شفافة مع فتاة رقيقة يحلم بها لكنها لا تثير فيه الاشتهاء الفوار، إنها حلم صاف يسافر به فوق السحاب.

وفى دوامة القلق بين الحب الشفاف وبين طبيعة الاشتهاء الخشنة ينجرف الشاب إلى

دنيا الاشتهاء الخشنة. ويخوض المغامرة مع المرأة المجربة إلى أن يشعر بالخواء. إنه ينتقل بسرعة بين الغرق الآثم ثم الغرق فى الندم. ويحذره العجوز المجرب عبد الوارث عسر من أن تمتصه تلك المرأة بنزواتها، ويحثه على أن يطلب لنفسه النجاة، لكن النجاة تظل بعيدة عنه إلى أن ينجح أخيراً في التخلص من تلك المرأة. ويبدأ فى تحمل مسؤولية دراسته ليستطيع أن يبنى بيتاً مع بطلة قصة الحب الشفافة التى أصبح ينظر إليها بعينين قادرتين على الحنان والاشتهاء فى آن واحد.

هذا ما قالته قصة "شباب امرأة". وهى قصة تدور بحذافيرها فى خيال كل مراهق. إنه يفرق دائما بين الاشتهاء للجسد وبين القيمة الروحية للحنان. ويظل هناك صراع داخلى عنيف وشرس. وهناك أحلام يقظة مليئة بالشهوة يتبعها ندم شديد، وتنمو أحلام يقظة أخرى شديدة الشفافية، ولا تنتهى تلك الأحلام التى تبدو متناقضة إلا بالتقدم فى العمر حيث تتوحد فى علاقة واحدة مع إنسان من الجنس الآخر. ويدخل الإنسان فى تجربة حب يسمو مع بطلتها إلى أعلى درجات الشفافية وفى نفس الوقت يذوب وجداً من الشوق الجسدى.

وكثيرا ما يدفع الأصدقاء بعضهم البعض إلى تجارب خشنة، ومن أكثر التجارب التى تصدم الشباب أن يذهب مع أصدقائه الذين يدعون التجربة إلى أماكن لهو مليئة بالمناظر العارية أو إلى منزل لقضاء وقت مع المحترفات. يحدث هذا فى غرب أوروبا وأمريكا وكذلك فى بعض المدن الكبرى فى الشرق، وقد يحدث أثناء الرحلات الصيفية التى يقوم بها الشباب. وغالباً ما تكون التجربة مؤلمة وصادمة. لكن أحداً لا يعلن ذلك.

وعندما يستطيع الشاب أن يحدد موعداً للقاء فتاة جذابة فإن أسئلة كثيرة تحاصره، إنه يسأل نفسه: "هل أمسك بيدها؟ أم أنها يمكن أن تتهمنى بالتسرع والعجلة وبأننى لا أحترمها"؟.

ويرد على نفسه قائلاً : "لا.. يمكن أن تتهمنى بالخمول وأننى إنسان بطيء الفهم لا أعرف أسرار اللقاء بين الرجل والمرأة".

ويعود مرة ثالثة ليقول لنفسه: "ألم تلحظ دموع صديقك عندما عاد من لقائه مع فتاة وهو يكاد يبكى من الغيظ، والسبب هو إهانتها له، فعندما حاول أن يقبلها صفعته على وجهه".

هذا عن الشاب... فماذا عن الفتاة؟

إن الفتاة تحب أن تشعر بأنوثتها، تماما كما يحب الشاب أن يشعر برجولته. وللأنوثة

معيار أساسى تتعرف به على نفسها. هذا المعيار هو مدى ما تثيره الفتاة من إعجاب الآخرين بها، فإذا ما أرادت اختبار هذا الإعجاب عمليًا ، فهى قد تقبل الخروج إلى لقاء شاب تتعرف عليه فى ناد أو عند الأقارب والمعارف. وقد لا تدرى الفتاة كيف تتصرف إذا حاول الشاب أن يلمس يدها. فقد تتحرك إلى تعنيف الشاب بعد أن تدعوه إلى ذلك لا شعوريًا ، والسبب هو أسلوب التربية التى نشأت عليها، فإن كانت تربيتها تربية محافظة فالفتاة تندفع إلى رفض مثل هذه التصرفات بعد أن تحدث والسبب فى حدوثها أن النمو الجسمى يريد أن يختبر نفسه، وما إن يتحقق الاختبار حتى يبدأ التأنيب للشاب.

ونحن نعلم أن الإنسان منذ ولادته يحاول دائمًا أن يتمكن من مهارة جديدة يتعلمها. إن الطفل يحاول أن يتقن مهارة المشى، كمهارة جسدية يتعلمها فى سنواته الأولى، ثم ينتقل إلى إتقان مهارة من نوع آخر كمهارة القراءة، وهى من عمل الذهن، ثم من بعد ذلك يتقن مهارة اجتماعية كالقدرة على التعاون مع الأسرة، ثم يتوق فى المراهقة إلى إتقان مهارة نيل إعجاب الجنس الآخر.

والمراهق يحاول أن يحرز التقدم فى مجال جاذبيته للجنس الآخر، وغالبًا ما يكون سلوكه معنيًا بإثبات جدارته الخاصة فى المجال العاطفى. ومثال ذلك أن الشاب الغارق فى الحب لفتاة معينة لا يمنع نفسه من مغازلة فتاة أخرى ما دامت تروق له، ثم يندم من بعد ذلك قليلاً ، ويعود من بعد ذلك إلى مغازلة فتاة ثالثة تروق له.

وليس معنى ذلك أن الشاب لا يؤمن بفكرة الإخلاص العاطفى، ولكن معنى ذلك أن إخلاصه يتجه أساسًا إلى فكرة أن يخلص لنفسه ولإثبات نضجه. إنه يحاول أن يأخذ موعدًا من فتاة ولا مانع أن يمثل عليها دور العاشق، وهو يعلم "أنه يكذب ولا يكذب" فى نفس الوقت. إنه كاذب بمعنى تماديه فى ادعاء أنه اختارها دون بقية بنات العالم لأنها أجمل وأكمل إنسانة التقى بها، وهو لا يكذب بمعنى أنه يريد إثبات حقيقة أساسية بالنسبة لنفسه وهو أنه مرغوب من الجنس الآخر.

أما عن ميلاد إحساس الحب الحقيقى فهو يختلف قليلاً عما سبق. إنه يبدأ من ملاحظة أن هناك إنسانة ما تعرفها منذ زمن طويل صارت تعنى لك شيئًا خاصًا فريدًا بعض الشىء، ومميزًا بعض الشىء، فأنت تحاول استكشاف هذه المنطقة من إحساسك، فتجد نفسك مندفعًا إلى تأكيد خصوصية هذه العلاقة. وتجد نفسك غارقًا فى إطلاق صفات الجمال والرقة والحساسية والجاذبية على هذه الفتاة، وتجد نفسك هائمًا فى إحساس عارم بالنشوة، وسابحًا فى نهر الإحساس بالتغير الكامل لكل أوجه حياتك.

تكتشف أنك ترى أكثر عمقًا رغم أنك غير متوازن. تجد نفسك سعيدًا وغارقًا فى الاستغراق العاطفى التام. تجد نفسك مضطربًا بما فيه الكفاية فلا تعرف كيف تحلل الوقائع، وكيف تسيطر على نفسك، وكيف تقاوم السباحة فى هذا النهر الذى يقودك إلى التغير الكامل. ثم قد يحدث أن يذوب عنك هذا الإحساس فجأة وتكتشف بعد المقابلة الأولى مع مثل هذه الفتاة أنه لا يوجد أى أساس للانجذاب بينك وبينها أو تكتشف أن هناك هوة شاسعة بين أفكارك وأفكارها. وقد يحدث العكس فتتوهج علاقتكما معًا ، وتجد أن كلا منكما مكمل للآخر، ويصبح كل لقاء بينكما فرصة جديدة لاكتشاف حاجة كل منكما للآخر، ويصبح كل منكما فى حاجة إلى أن يعطى الآخر أكثر وفوق ما يستطيع.

وعندما يقع اثنان فى الحب تدريجيًا ، فإن رغبة كل منهما فى احتضان الآخر وممارسة عناق الحب المكتمل تتزايد.

إن علماء النفس من خلال ملاحظتهم لمثل هذه العلاقات فى أمريكا وأوروبا قد وجدوا أن رغبة الفتاة فى عناق حبيبها أقل غالبًا من رغبة الفتى، وكأن الفتاة بطبيعتها تميل إلى التواصل الروحى أكثر مما تميل إلى التواصل الجسدى. ولذلك فهى تقاوم حبيبها عندما يبدأ فى احتضانها، وغالبًا ما يرضخ الفتى العاشق للحدود التى تحددها حبيبته؛ لأنه يشعر بالحنان يغمره، وكذلك الاحترام العميق لحبيبته. وعندما يحدث عناق الحب المكتمل بين فتى وفتاة يرتبطان بقصة حب فإن السيادة تكون للمشاعر لا للارتواء الجسدى فقط.

ومن متابعة علماء النفس للشباب الأمريكى وجدوا أن بعضًا من العلاقات بين الشباب والفتيات يقوم على أساس الجاذبية التى تنشأ بينهم، وهى جاذبية جسدية غير محددة الملامح عاطفيًا ، بل مجرد رغبة فى التواجد معًا فى مكان واحد، ورغبة فى ممارسة التجربة الجنسية، والتأكد من القدرة على القيام بها. وقد يحدث اللقاء الجسدى الكامل بين شاب وفتاة دون رباط حب، بل لمجرد استكشاف كل منهما للآخر. ومثل هذه العلاقات تنتشر فى أمريكا وأوروبا، خصوصًا بين الشباب الذى لا يملك طموحًا عاليًا فى التعليم. إنه يبحث عن تأكيد ذاته لا من خلال التفوق العلمى، ولكن من خلال المزيد من تعلم السيطرة على مهارة استخدام الجسد. وهؤلاء لا يظهر فى سلوكهم أى احترام متبادل أو عاطفة، ومثل هذا اللون من العلاقات قد يبدو مثيرًا فى البداية، ولكن كل طرف سرعان ما يمل الطرف الآخر؛ لأن علاقتهما لا تروى فى أعماق كل منهما هذا التطلع الإنسانى لوحدة عاطفية حقيقية عميقة.

وأما الشباب الحساس صاحب المثل العليا؛ فهو لا ينجرف إلى مثل هذه العلاقات؛

لأنها تسبب للشباب الإحساس بالاشمئزاز لأنه يرفض فكرة استخدام الجسد من أجل اللذة دون حب.

قد يسأل شاب: "وما الفرق بين العلاقة التى يسود فيها الحب الحقيقى فتكون له القيادة ويظل اللقاء الجسدى فيها مجرد تابع ثانوى لهذا الحب، وبين العلاقة التى يكون فيها الانجذاب الجسدى هو القائد دون أن يتبع ذلك وجود الحب"؟

ولا بد لنا من أن نقول هنا إن هناك آلاف الاقتراحات فى العلاقات الإنسانية.

ولا بد لنا أن نقول إن الحب الحقيقى ينمى الإحساس بالمسؤولية ولا يعانى من الاحباط المتكرر فى تجاربه المتعددة، ويكون الفشل العاطفى فى مثل هذه العلاقات امراً لا يأتى إلا لأسباب أخرى غير كراهية الإنسان لجسده عندما يسىء استعماله.

أما العلاقات التى تسود فيها الشهوة فوق كل المشاعر فتفرغ وتموت فور انتهاء لحظة الشبع منها، وقد يبدأ كل فرد فى تجاهل الآخر والانتقاص من قيمته.

إننا نعلم أن الحاجات للنمو الجسدى قد تكون لها السيادة فى بعض اللحظات، كما أن هناك إلحاحا سرياً داخل كل نفس على الرغبة فى التعرف وإتقان مهارة استخدام الجسد فى الحب.

إن هدفى من هذا الشرح البسيط للفارق بين العلاقة العاطفية التى يسودها الحب العميق وبين العلاقة التى تثيرها الشهوة، ليس الرغبة فى الوعظ أو الإرشاد، ذلك أننى أؤمن أن كل إنسان انما يستكشف فلسفته الخاصة فى الحياة معتمدا على مثله العليا وما يتعلمه من تجاربه الخاصة. لكننى أردت أن أوضح بعضاً من نواحى الطبيعة الإنسانية وكيف تتنوع بين الأفراد فى مرحلة المراهقة، وتأخذ صوراً مختلفة.

وعندما تقرأ عزيزى الشاب، عن هذه النماذج المنوعة يمكنك أن تتعرف على موقفك الخاص وتتعلم كيف تصل إلى التواؤم النفسى خلال مرحلة الشباب التى تمتلئ بالقلق.

وإذا كنت قد ركزت فى هذه السطور على موقف الإنسان المثالى فذلك لأنه هو الإنسان الذى تمتلئ أعماقه بالكثير من الأسئلة ويجب أن يتطلع أكثر لمعرفة المزيد من المعلومات سواء عن نفسه أو عن مرحلة العمر التى يعيشها.

والنظرة الهادئة إلى الأجيال المعاصرة فى أوروبا وأمريكا تجعلنا نتعجب من هذا الاندفاع السريع نحو التجارب المتعددة، واعتبار حالة الشاب الذى لا يستطيع تحديد موعد مع فتاة نوعاً من الفشل فى النضج، والنظر إلى الفتاة التى ليس لها علاقة دائمة مع شاب على أساس أنها فتاة غير مرغوب فيها من أحد.

إن هذه الأجيال الجديدة متهمة من قبل الأجيال السابقة عليها بأنها مندفعة إلى

شيخوخة مبكرة مع عدم الإحساس بجمال المشاعر الرومانسية. وبعض الآباء يحاولون فرض القيود على البنات على وجه الخصوص، ذلك أن الاندفاع إلى التجارب التى تتسم بالعمق الجسدى دون أن يكون لها عمق عاطفى تترك جراحاً نفسية يصعب التغلب عليها.

والأجيال القديمة تنظر خلفها فى تذكاراتها الخاصة لتجد أن الشاب كان يرضى بالحب عن بعد، واختطاف اللقاء بين الشاب والفتاة. ولم يكن الشاب يفكر فى الارتباط العميق مع فتاة إلا بعد أن يستعد اقتصادياً لبناء أسرة.

وغالباً ما تسأل أسرة أمريكية الطبيب النفسى عن مدى الحرية التى يمكن أن تسمح بها لأبنائها وبناتها، ذلك أن الأبناء يقيمون الدنيا ويقعدونها من عامهم الثالث عشر. إن الفتاة تطلب أن تحترم أسرتها مجيء زميلها إلى البيت وجلوسه معها فى غرفتها، وتطلب أن تذهب إلى منزل صديقها لتجلس معه فى غرفته. ونفس المطلب يأتى على لسان الشاب منذ الثالثة عشرة. ومثل هذه الخصوصية فى اللقاء بين الشاب والفتاة فى مثل هذا العمر المبكر تبدأ أولاً بملء أوقات الفراغ بالمناقشات، ثم الانغماس فى استكشاف القبلات، ثم التمادى إلى ما هو أبعد من ذلك.

وغالباً ما يخرج الشاب من مثل هذا اللقاء ليحكى لزملائه وكذلك تحكى الفتاة. ويضغط كل شاب وكل فتاة على الأهل للمطالبة بمثل هذه الحقوق. وهنا ينصح الطبيب النفسى للأسرة بأن تقف بحزم ضد مطالب من مثل هذا النوع، لأن مثل هذه اللقاءات تترك الجراح النفسية من بعد ذلك.

وبعض الأسر تستسلم _ كحد أدنى _ فتسمح للفتاة بأن يمر الشاب على الفتاة فى المنزل ليصحبها من على الباب ليذهبا معاً إلى السينما أو الحفلات الشبابية، وغالباً ما تشعر الفتاة بلون من الراحة لأنها فى حماية الشاب، كما تفخر بأن أنوثتها استطاعت أن تجذب شاباً ليتواجد معها بشكل دائم. لكن الشاب يضغط فى المقابل ليطلب من الفتاة أن تتمادى معه فى المغامرة الجسدية، وهذا ما تشكو منه الفتيات للأطباء النفسيين.

إن الحب فى عمر المراهقة يكاد يكون عشقاً بين الشاب وفكرة "الحب"، ويحاول أن يجسد ذلك فى قصة واقعية. وهذه القصة الواقعية سرعان ما تقع منهارة لأنها لا تقوم على أساس من المعرفة الناضجة، ولكنها تقوم على الشكل الخارجى للطرف الآخر والأوهام التى يمتلئ بها خيال الشاب عن الفتاة التى يحبها، أو الأوهام التى تملأ خيال الفتاة عن الشاب الذى تحبه.

إن السبب الأساسى لانكسار قصص الحب فى عمر المراهقة هو عدم المعرفة الواقعية

والواعية من الشاب للفتاة أو من الفتاة للشاب وعدم وجود اهتمامات مشتركة بين الاثنين. ولذلك تلمع قصص الحب فى المشاعر الشابة وكأنها الشهب التى تمرق فى السماء ثم يخبو ضوؤها.

وفى الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا ودول أوروبا قد يبدأ عناق الجسدين معًا فور الإحساس بمشاعر الحب الأول. لكن سرعان ما تخبو المشاعر الرومانسية نتيجة فقدان القدرة الاقتصادية لبناء أسرة. وقد ينغمس الشاب والفتاة فى العلاقة الجسدية للتخفيف من الإحساس بفشل الحب، ولكن سرعان ما يتجه الاثنان إلى الانفصال.

ولا أنسى وجه الطبيب الأمريكى الذى زار إنجلترا فاسترعى انتباهه هذا الإحساس الرومانسى الذى يتعامل به الشاب المراهق مع الفتاة المراهقة. إن الشاب يقدم الزهور إلى فتاته، والفتاة تشترى الهدايا الصغيرة، ويكتب كل منهما للآخر بعضًا من كلمات الشعر. وكان هذا الطبيب الأمريكى أكثر من حزين لأن شباب بلاده يفتقد هذه الحساسية. ويقول الطبيب الأمريكى: "إن الشاب لا يطلب موعدًا من الفتاة إلا وقد استقر فى ضمير كل منهما أن هذا اللقاء هو الطريق السريع للممارسة الجنسية. وهما يناقشان مثل هذه الأمور كما يناقش اثنان موضوعًا باردًا فى الصحة العامة".

وبالطبع أكد قول هذا الطبيب إحساسًا بأن من واجب الأسرة أن تقف بحزم أمام إلحاح الشباب المراهق على الكبار ليقبلوا بذهاب البنت مع الشاب إلى الأماكن العامة أو الذهاب إلى منزله، ومن واجب الأسرة أن تقف بحزم ضد طلب الشاب استقبال صديقته فى منزله.

إن ذلك لا يجب أن يحدث إلا بعد الخطوبة، على الأقل حتى يستطيع الشاب أن يبنى معرفته بالجنس الآخر على أساس واقعى فى الغلالة الرومانسية المناسبة لذلك.

إننا نرى المجتمعات فى الحضارة الغربية المعاصرة تئن من متاعب الشباب والبنات مع الأمراض النفسية المختلفة، ونرى هذه المجتمعات وهى تشكو من فقدان الأجيال الشابة لبناء الحياة الأسرية على أسس المعرفة العميقة التى تلزم العاشق أن يكون مسؤولاً.

إننا نرى أن الشاب فى عمر المراهقة ينظر إلى فكرة الحب وكأنها وحدها التى يجب تقديسها، لكنها تقوده إلى المفاجأة الحقيقية وهى أنه فقير فى الاستعداد للزواج لا ماديًا فقط ولكن معنويًا أيضًا.

بل إن الزيجات التى قد تتم فى هذا العمر تنتهى إلى الفشل السريع لأنها لم تقم على أسس راسخة من المعرفة المتبادلة، ولكنها قامت على أساس اشتعال الخيال، وما إن يخبو هذا الخيال حتى ينظر كل منهما للآخر وكأنه إنسان غريب عنه.

الفصل الحادي عشر:

الحمل غير الشرعي

عندما نعلم أن الحمل غير الشرعى قد تضاعف فى أمريكا ثلاث مرات خلال العشرين عامًا الماضية، لا بد لنا أن نتساءل: "وأين إذن هذا التقدم المذهل فى وسائل منع الحمل"؟ ونكتشف أن المشكلة تعانى منها إيطاليا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا والسويد والنرويج والدانمارك وفنلندا.

ولأن هذه المجتمعات تناقش مشكلاتها بصوت عال، فبإمكاننا أن نسمع عن هذه المشكلات، بينما فى المجتمعات الشرقية لا يمر عام دون أن تقرأ خبرًا فى جريدة عن العثور على طفل غير شرعى فى الطريق أو بجانب مستشفى للأطفال أو حتى فى صندوق القمامة، ولا يمر عام دون أن تقرأ عن خبر قتل امرأة حامل حملاً غير شرعى، وسبب القتل طبعًا هو الدفاع عن الشرف.

إذن، فالمشكلة لها وجود فى المجتمعات البشرية كافة، وكل مجتمع يواجهها بطريقته وأسلوبه بما يتفق مع قيمه.

ومنذ أن خرجت إلى الدنيا أقراص منع الحمل، ظن بعض من الناس أن مشكلة الحمل صارت تملك حلاً جذريًا ، وهذا ظن خاطئ.

ولا أنسى أبدًا وجه صديقى الأستاذ الجامعى الذى تفوق فى دراسته إلى حد كبير، وأرسلت إليه جامعة لندن تدعوه ليصير أستاذًا فيها. كان كثير الحديث عن تقدم المجتمع

الأوروبى، وعن انتظام الحياة فى مثل هذه المجتمعات المتحضرة، وكان يحكى همساً عن عالم مغامراته خارج دائرة الزواج، وكيف أن المرأة الإنجليزية تتميز بالقدرة على التفاعل العاطفى والجسدى أكثر من المرأة العربية.

باختصار كان يتعمد أن يزرع فى المستمع إليه إحساس "الدون جوان". وكان الرجل متزوجاً من زميلته الجامعية، وقصة زواجه بها كانت مضرب الأمثال فى الحب والتضحية المتبادلة، وعندما يسأله سائل: "ولماذا خيانة الزوجة"؟ يجيب بهدوء المغرور: "أتعتقد أنك توجد فى حديقة فتجلس تحت شجرة لها ثمرة واحدة وتظل تأكل من هذه الثمرة طوال عمرك؟ ألا تتمنى أن تأكل من بقية الثمار"؟

وبطبيعة الحال لا يلتفت أحد لأن يقول له إن المرأة إنسانة مثلك وليست شجرة، والحب بينك وبين زوجتك يسمح لك باستكشاف آفاق فى أنوثتها لم تكتشفها من قبل.

ولكن الواقع تحدث مع هذا الأستاذ العربى بلغة أخرى. وصلت ابنته إلى سن البلوغ فى لندن. وجاءت إلى والدتها لتقول لها: "أريد أن أذهب إلى طبيب أمراض النساء ليختار لى الأسلوب المناسب لمنع الحمل".

وكانت هذه الكلمات كالصاعقة التى زلزلت رأس الأستاذ الجامعى العربى. أصابه الدوار والاكتئاب. وعرف ماذا تعنى الهجرة من المجتمع الذى هاجر منه. لقد هاجر من أجل أن يحيا فى مجتمع أوروبى له تقاليد تختلف كلية عن الإطار الثقافى الذى نشأ فيه، وأراد لنفسه أن يستمتع بما هو موجود فى المجتمع الأوروبى من إمكانيات لعلاقات خارجة عن العرف الشرقى، إلى أن فوجئ بأن ابنته المراهقة تريد لنفسها علاقات خارجة على العرف الشرقى. وكانت صدمة الأستاذ الجامعى النفسية عارمة. حاول أن يشرح لابنته تقاليد المجتمع الشرقى. لكن الابنة لم تفهم واتجهت إلى طبيب أمراض النساء بمفردها لتسأله. ولأنها وصلت إلى عمر السادسة عشرة فقد غادرت المنزل بعد سلسلة لا متناهية من المعارك مع والدها، وصارت تعمل كمضيفة فى أحد المطاعم، وتعيش مع طالب باكستانى مسلم بعد أن شهد اثنان من الباكستانيين على ورقة زواجهما العرفى، ودخل الأب المصحة للعلاج النفسى.

هذا ما فجرته قنبلة صغيرة اسمها "حبوب منع الحمل" فى حياة رجل شرقى يعيش فى المجتمع الغربى.

ومن السهل تماماً أن تذهب الفتاة منذ السادسة عشرة أو حتى قبل ذلك إلى الطبيب وتسأله عن مانع الحمل المناسب لها، خوفاً من أن "تقع الفأس فى الرأس". وغالباً ما

يقول الطبيب بكلمات محددة: "هناك وسائل متعددة لتفادى الحمل، وأبسطها طريقة كانت تستخدم منذ قرون طويلة وهى عدم القذف داخل المهبل، وبالتالي لن تجد البويضة حيوانًا منويًا تتحد معه، وبالتالى فالغالب ألا يحدث الحمل ولكن هذه الطريقة غير مريحة سواء بالنسبة للرجل أو للمرأة".

وعندما تسمع الفتاة الأمريكية أو الأوروبية مثل هذا الرأى من الطبيب، يعتمل فى أعماقها قلق عنيف، وتمر بذاكرتها سلسلة تجاربها السابقة، وتشك فى أنها حامل من آخر لقاء مع صديقها، وتمر عليها أيام عصيبة، وقد تؤذى صديقها بكلمات مؤلة.

وهنا يقول الطبيب للفتاة: "على أية حال لا توجد طريقة مضمونة مائة بالمائة فى وسائل منع الحمل، ولكل طريقة الكثير من الأخطار".

وتتساءل الفتاة: "لكنى أقرأ فى المجلات النسائية عن بعض من موانع الحمل الأخرى، منها على سبيل المثال ذلك الشريط الملون الذى تضعه المرأة فى عينة من البول فيقيس نسبة قابليتها للخصوبة ويتغير لون الشريط وبذلك يمكن للمرأة أن تمتنع فى ذلك اليوم عن العناق المكتمل مع صديقها".

وغالبًا ما يضحك الطبيب قائلاً : "ولعلك تصدقين الكذب المكتوب فى تلك الإعلانات، إنهم يقولون ذلك للترويج لا أكثر. فالسماء لا ترضى إلا عن الزواج العلنى الكامل الذى يتحمل فيه كل طرف المسؤولية والرعاية الكاملة للطرف الآخر. وهذه الشرائط تقيس اختلاف درجة الهرمونات التى تفرزها المرأة، لا أكثر ولا أقل، ولا يمكن الاعتماد عليها فى تحديد ميعاد الإخصاب.

صحيح أن بعض النساء قادرات على ضبط ميعاد الإخصاب والامتناع فيه عن العناق مع الزوج، لكن حتى هذه الطريقة تختل وتكون لها نتائج سلبية. والنتيجة السلبية فى هذه الحالة هى الحمل. فما بالك وأنت لم يزد عمرك عن سبعة عشر عامًا وما زالت دورتك الشهرية بحكم العمر تتعرض للاضطرابات"؟

وتقول الفتاة: "لا بد إذن من أن أقنع صديقى بأن يستخدم الواقى الذكرى. لقد حاولت إقناعه بذلك من قبل لكنه قال لى إنه قفاز من المطاط، وحائط يفصل بين إحساسى وإحساسك".

هنا يقول الطبيب: "إن صديقك يريد المتعة لنفسه ويريد أن ينسى مسؤولياته. إنه غير واثق من جدية علاقته بك، فلو كان واثقًا من عواطفه لارتبط بك فى زواج، ولكان قد استعمل هذا الواقى الذى يستعمله الملايين من الرجال فى كل مكان رغم أنه أيضًا عرضة

للتمزق وأنت عرضة للحمل".

وتتأفف الفتاة الأمريكية أو الإنجليزية وتقول للطبيب: "لا تقل لى استعملى حبوب منع الحمل، لأنى أعلم أنها تحمل خطراً يختفى فى داخلها، وأقل ما فيه حدوث تجلط للدم فى بعض العروق".

يقول الطبيب: "أنا لا أنصحك بالحبوب لا لأنها تسبب ما تقولين عنه فقط، رغم قلة حدوث ذلك وندرته، ولكن لأنى لا أثق فى درجة اتباعك للتعليمات. إنك فى مرحلة غير مستقرة من العمر، والعلاقة التى تدخلين فيها علاقة غير مستقرة أيضاً، وهذا ما يسبب لك خللا عصبياً ونفسياً كاملاً. وقد تنسين الحبة لأكثر من يوم وبالتالى قد يحدث نوع من الرضى النفسى بينك وبين صديقك ويحدث الحمل أيضاً".

تقول الفتاة: "لا بد أن العلم قد توصل إلى شيء فعال فى مسألة منع الحمل".

يقول الطبيب: "نعم توصل العلم إلى ربط قناتى فالوب اللتين تسمحان بمرور البويضة إلى الرحم من المبيض. ولكن ذلك إذا تم فى عمر مبكر فهو يسبب لك آلاماً شهرية كثيفة كما أنه يفقدك القدرة على الحمل اللهم إلا إذا لجأت إلى التلقيح الصناعى من بعد ذلك".

تقول الفتاة: "ما دامت هذه الطريقة مؤلمة وتسبب العقم فلماذا تقول لى عنها؟ أليست هناك وسيلة أخرى"؟

يقول الطبيب: "هناك طريقة تبدو ناجحة أثناء العلاقات المستقرة، وهى أن تستخدم المرأة الحاجز المطاطى، وهو عبارة عن قبة صغيرة من المطاط تدخلها المرأة فى جهازها التناسلى فتسد عنق الرحم أمام الحيوانات المنوية. وعلى المرأة أن تتعلم طريقة استعمالها عند طبيب. وهذه القبة فيها مادة جيلاتينية تقتل الحيوانات المنوية. لكن أى خلل فى وضع هذا الحاجب يلغى فاعليته".

وتقول الفتاة: "لكنى سمعت عن اللولب الجديد، وهو ليس إلا فتلة مثبت فيها قطعة من البلاستيك التي تهتز فتمنع ثبات البويضة على جدار الرحم".

يقول الطبيب: "هذه وسيلة لا بأس بها، ولكن لا يمكن تحديدها بالنسبة لك إلا فى حالة الاستقرار العاطفى والنفسى. إنها تصلح أثناء علاقة الزواج، لأن الزواج ليس فيه اقتناص للمتعة، ولكن فيه تبادلاً للمتعة، وقدرة على التفهم العميق لمشاعر الآخر. ثم إنها تسبب زيادة فى كمية الدم النازف شهرياً أثناء الدورة الشهرية".

وتسأل الفتاة الطبيب: "لماذا إذن تسد الطريق فى وجهى؟ أتريدنى أن أحيا دون صداقة مع شاب؟ سأبدو إذن غريبة فى هذا المجتمع".

يقول الطبيب: "لست وحدى الذى أقول لك ذلك، ولكنها دعوة من معظم أطباء أمراض النساء الحريصين على صحة المرأة. إن نسبة الأبناء غير الشرعيين زادت فى الولايات المتحدة ثلاثة أضعاف ما كانت عليه منذ عشرين عاماً . ومشاكل النمو النفسى للأجيال الشابة لا بد أن يتقاسم مسؤوليتها طبيب أمراض النساء وكذلك الفتاة أو السيدة التى تسأله. ثم إن هناك واجباً علمياً لا يجب التفريط فيه وهو ضرورة تنبيه كل فتاة تسأل عن وسيلة لمنع الحمل إلى أن ذلك لا بد أن يحدث لها بعد أن تتزوج بالفعل وتنجب، أما قبل ذلك فمن الممكن أن يختل ميزان خصوبتها، وقد تتحول إلى عقيم دون أن تدرى".

تقول الفتاة: "ولنفترض أن الحمل قد تم بشكل غير شرعى، فماذا عن الإجهاض"؟

يقول الطبيب: "إباحة الإجهاض أمر مرفوض لا على المستوى القانونى فقط، ولكن على المستوى النفسى بالنسبة للمرأة، فلا أحد يتخيل الآلام النفسية التى يتركها الإجهاض فى المرأة. إننى لا أنسى وجه سيدة جاءت للإجهاض من حمل غير شرعى قام به طبيب صديق لصديقها، ودفعت له شيكات بأكثر من خمسة آلاف دولار. ورغم ذلك قالت إنها أحست أن هناك آلة حادة تقوم بتجويف روحها. إن الإجهاض عمل غير إنسانى إطلاقاً، إنه مهانة للمرأة. وعلى الرغم من ذلك فإن كثيراً من البنات ذوات الحمل غير الشرعى يحاولن السفر إلى إنجلترا للحصول على تقرير من طبيبين اثنين بأن الاستمرار فى هذا الحمل قد يتضمن مخاطر صحية جسدياً ونفسياً للأم، وأن الطفل سيتعرض نتيجة ميلاده بشكل غير شرعى إلى الإعاقة النفسية، ويمكن أن يتم الإجهاض، ولكن كل ذلك على حساب الصحة النفسية للأم".

وتقول الفتاة بغضب: "أنت تريد مجتمعاً فاضلاً إذن؟ ما الذى يمكن أن يتبعه الشاب والفتاة للحصول على السعادة جنسياً دون إنجاب"؟

يقول الطبيب: "ليس الزواج قيداً إلى هذه الدرجة بحيث يبحث الإنسان عن سعادته النفسية والجسدية خارجه. إن خلاصة الخبرة البشرية التى أقرتها الأديان، وفى إطار الزواج يمكن للرجل أن يجد متعته ومسؤوليته، ويمكن للمرأة أن تجد متعتها ومسؤوليتها".

وتقول الفتاة: "لكن الزواج ليس أمراً ميسراً بالنسبة للجيل الشاب. فنحن فى معظم الحالات نعتمد على الأب والأم اقتصادياً ، والخروج من المنزل والحياة خارجه تكلف الإنسان منا الكثير".

يقول الطبيب: "ولأن الإنسان فى المراهقة يكون فى طور الإعداد لتحمل مسؤولياته علمياً واجتماعياً واقتصادياً ، لذلك لا بد من أن يرتقى بمشاعره وأحاسيسه وغرائزه،

وأن يضع أمامه أهدافًا كبيرة تتيح له أن يشغل وقته ويرضى تفوقه، وعندما يستعد اقتصاديًا فهو سيتزوج".

تقول الفتاة: "إن ما تحكى عنه أيها الطبيب ليس متاحًا فى أمريكا أو فى أوروبا، أو هو متاح وغائب عن وعينا. إن كل شيء يلح علينا لإثارة غرائزنا ويضعها فى مقدمة الطموح. إن هناك ضغطًا غير مرئى ليستخدم الإنسان جسده جنسيًا فيشعر بالسعادة".

يقول الطبيب: "نحن إذن فى حالة بحث عن إزاحة التراب عن ترقية أحاسيسنا، واكتشاف وسائل نرتقى بها بمشاعرنا ومشاعر الأجيال الشابة. يكفى أن أقول لك كيف يحدث الحمل غير الشرعى نفسيًا ، وأن أذكر لك مراحل تطور العلاقة بين الشاب والفتاة فى هذا المجتمع، حتى نتبين ضرورة أن تكتشف الفتاة هدفا أكبر من أن تورط نفسها فى متاعب صحية ونفسية جسيمة، وضرورة أن يكتشف الشاب هدفًا أكبر من أن يورط نفسه فى متاعب نفسية واقتصادية قبل الأوان".

وتسأل الفتاة: "وهل هناك تشابه فى كل حالات الحمل غير الشرعى؟ هل هناك مسار واحد تسير فيه أية علاقة بين شاب وفتاة حتى تصل إلى تلك الكارثة"؟

يقول الطبيب: "نعم هناك تشابه فى مسار العلاقات بين الشاب والفتاة حتى يصل الأمر إلى كارثة الحمل غير الشرعى. إن الذى يحدث أولاً هو إعجاب، الإعجاب بشكل خارجى. ويتبادل الاثنان سؤالاً سريًا ، فتقول الفتاة لنفسها: ترى هل يمكن أن أثير إعجاب هذا الشاب؟ ويقول الشاب لنفسه: ما المانع فى أن أدخل مع هذه الفتاة فى تجربة؟ ويزين كل منهما كلماته للآخر، كلمات تتناول الشكل الخارجى، والفتاة تكون غالبًا أكثر ميلاً للعاطفة، والشاب غالبًا ما يكون أكثر ميلاً للاقتحام باللمسات، ثم القبلات، ثم إلى المدى الذى تسمح به الفتاة. إنه يريد أن يحول الميل الذى يشعر به مع الفتاة إلى إجراء محسوس. وغالبًا لا يتجه الفتى إلى فتاة ما إلا إذا كانت جذابة بالنسبة له. والجاذبية فى أول مظهر لها هى الجاذبية الجسدية متضمنة بعضًا من ملامح شخصية الفتاة. ويتخفى الاثنان بأهدافهما تحت عبارة واحدة يتبادلانها هى "أريد أن أعرفك أكثر".

الفتاة تريد بها فى الغالب قصة حب حقيقية مسؤولة تبنى بها بيتًا مع هذا الإنسان. وفى حالات قليلة قد تندفع الفتاة إلى أية علاقة لمجرد أنها لا تلقى إلا الإهانة فى بيتها، وتشعر أن والدها ووالدتها يسيئان إليها بالضرب والإهانة والألفاظ القاسية الجارحة. إنها فى مثل تلك الحالات القليلة تندفع إلى أية علاقة، لا بحثًا عن حب ولكن رغبة فى الانتقام من أبيها وأمها، وتنسى أنها هى التى تدفع الثمن الفادح وهو الحمل غير الشرعى.

والفتى يتجه إلى العلاقة وهو يتساءل: إلى أى مدى سأتقدم مع تلك الفتاة؟ فإذا كانت تلك هى تجربته الأولى فهو يخشى أن تتهمه بالخجل، كما أن هناك فضولاً يملأ أعماقه بالرغبة فى معرفة التجربة الجسدية، بالإضافة إلى رغبة الشاب التى لا نهاية لها ليثبت قوته ورجولته وسيادته لنفسه وللفتاة فى آنٍ واحد.

وبعد أن ينجح فى تحديد موعد للقاء مع الفتاة فإنه يرتبك فى دوامة من الأسئلة عن كيفية إثبات رجولته للفتاة، وقد يعتبر مجرد لمسته ليدها إنجازًا هائلاً . إنه يحاول أن يبدأ الخطوة الأولى. والحقيقة أن الفتاة هى التى تدله على ما تعتقد أنه مناسب ومرض، إنها تظهر له بطريقة مستترة مدى استجابتها لمحاولاته. قد يضع الفتى يده حول خصرها فلا تنهاه الفتاة عن ذلك؛ فيحاول أن يتبع ذلك بمحاولة تقبيلها فتمنعه من ذلك. إنها فى سماحها له بوضع يده حول خصرها أكدت رجولته وأرضت أنوثتها وفى منعها له من تقبيلها وضعت حدوداً لا يجب أن يتعداها فى هذا اللقاء.

ويستمر اللقاء بينهما فى مناقشة أمور الحياة والهوايات والميول. وعندما يأتى اللقاء الثانى، فالشاب يضع يده بسرعة حول خصرها ويصمت قليلاً ثم يحاول تقبيلها، وقد تسمح له الفتاة بذلك. إنها فى حاجة إلى إثبات أنوثتها وهو فى حاجة إلى تأكيد رجولته، وتلتقى عند هذه النقطة رغبة كل منهما فى الفضول واستكشاف كل منهما لجسد الآخر، ويشتعل السلوك. وينسحب التفكير فى المستقبل. وتريد الفتاة أن تتثبت من قابليتها للحب، ويريد الشاب أن يتأكد من رجولته. وما دام الأمر قد وصل إلى هذه النقطة فلا أحد يفكر فى الانسحاب. ولأن الأمر قد بدأ كله عفويًا ودون ترتيب مسبق؛ فهذا يعنى أن أحداً منهما لم يفكر فى وسيلة لمنع الحمل.

وبعد ممارسة العناق المكتمل بينهما يخيم نوع من الإحساس بالندم. وتنمو المخاوف، وتظل الفتاة فى حالة ترقب لميعاد الدورة الشهرية لتتثبت أنها ليست حاملاً، وعندما تلتقى بنفس الفتى وتعلن له مخاوفها فقد يقول بندم: لقد سبقتنا خطواتنا إلى حيث لا يجب أن نذهب. فكلاهما يشعر بالتورط، هذا مع افتراض أن كلا منهما سليم النية تماماً ويخوض التجربة للمرة الأولى، ويقرر الاثنان بحسم أنهما لن يفعلا ذلك مرة ثانية، ولذلك فهما لا يحتاجان إلى أية وسيلة لمنع الحمل. ورغم ذلك يتكرر ما حدث بينهما مرة ثانية وثالثة ورابعة، إلى أن يقع المحظور وهو الحمل غير الشرعى. ويكاد الحمل غير الشرعى يصبح عقاباً من الفتاة لنفسها إذا كانت قد تركت نفسها تتورط بسهولة فى علاقة جسدية كاملة خالية من الحب".

وتقول الفتاة للطبيب: "إذن أنت لا ترى مفراً من الحمل غير الشرعى فى علاقات الشباب والفتيات"؟

يقول الطبيب: "لست أنا الذى أرى ذلك، ولكن الواقع هو الذى يؤكد هذه الحقيقة، وإلا بماذا تفسرين ازدياد نسبة الحمل غير المشروع فى كل دول أوروبا وفى أمريكا؟ ألا تعلمين أن هناك فصولاً كاملة بالمدارس الابتدائية والثانوية فى السويد والنرويج لا تضم إلا الأطفال غير الشرعيين، وألا تعلمين أن نسبة كبيرة من المدمنين والمنحرفين هى من بين هؤلاء الأطفال غير الشرعيين"؟

وتقول الفتاة: "لكن ألاحظ أن عدداً لا بأس به من الفتيات يستجبن بسرعة لممارسة الجنس مع أى شاب يبدى إعجابه بهن، وعندما أحذر أى واحدة منهن تقول لى: إننى لا أفكر فى المستقبل، بل أريد أن أستمتع باللحظة".

يقول الطبيب: "ومثل تلك الفتيات يدفعن الثمن غالياً من بعد ذلك. فالواحدة منهن تعيش طوال الوقت بفكرة رديئة عن نفسها، وما أن تجد شاباً يرسل لها بكلمات الغزل حتى تندفع إليه، وتكون النتيجة هى التورط فى حمل غير شرعى".

وتقول الفتاة: "ولكن الحمل غير الشرعى ليس مشكلة كبيرة فى مجتمع كالمجتمع الأمريكى أو الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى"؟

يقول الطبيب: "إننى لا أقصد أن ميلاد طفل غير شرعى يسبب مشكلة عاجلة بالنسبة لمجتمع كبير، وإن كان يمثل مشكلة سوف تنفجر فى هذا المجتمع بعد سنوات، إنما أقصد أن الحمل غير الشرعى يسبب مشكلة بالنسبة للفتاة. إن الفتاة على سبيل المثال ستحاول التكتم على هذا الحمل، وستلتقى بعيون الجيران وكلماتهم الحادة. كما أن الفتاة وكذلك صديقها يفقدان الكثير من احترام أصدقائهما، والأكثر أهمية فقدان احترام النفس. وقد تخدع الفتاة نفسها وترحل من مدينة إلى أخرى، لكن سيظل هناك إحساس بالعجز عن الحصول على عمل، ثم العجز عن الحصول على مودة الجيران الجدد. وقد تحاول الفتاة أن تخفى تجربتها، لكن من الذى يمكنه أن يخفى ولادة طفل جديد؟ إن حمل طفل هو إيذان بميلاد إنسان جديد، له أسئلة عن والده وعن والدته، ويريد أن ينشأ فى أسرة متماسكة، ويحمل اللوم للأم لأنها فقدت الوالد. ولن يمنعه الكبر من بعد ذلك من الإحساس بالعار. ولذلك فمن المؤكد أن هناك خجلاً واكتئاباً فى انتظار الطفل الوليد، تماماً كما أن هناك خجلاً واكتئاباً عند الأب والأم عند انتفاخ بطن الأم بمثل هذا الحمل غير الشرعى. إن الحمل غير الشرعى أمر يصحب الأم طوال حياتها، حتى ولو تخلت عن الطفل، وهو أمر

يصحب الأب طوال حياته حتى ولو أنكر أبوته لمثل هذا الطفل، إن وجود مثل هذا الطفل أمر يجعل حياة الاثنين مليئة بالمنغصات النفسية".

وتقول الفتاة: "أعتقد أنه إذا حدث الحمل غير الشرعى بين اثنين يرتبطان بحب عميق؛ فمن الأفضل أن يتزوجا لتكون الحياة أكثر قبولاً ".

يقول الطبيب: "هذا الحل قد يريح من الكثير من المشكلات، ولكن يظل هناك خيط رفيع من الشك فى قلب الشاب، خيط تقول كلماته: لقد أسرعت بالحمل لتعتقلنى فى الزواج. وهناك خيط آخر من الشك فى قلب الفتاة تقول كلماته: لقد أضاع منى الحمل فرصة الزواج بشخص أفضل منه. ثم يولد الطفل من بعد ذلك قبل الميعاد الطبيعى لحدوث الميلاد بعد الزفاف، إنه يولد بعد ثلاثة أشهر من الزفاف أو خمسة على أفضل الظروف. وهذا لا يمنع أن يرفع الآخرون حواجبهم تعجبًا من سرعة الإنجاب بعد الزفاف. ولكن هذا أفضل بكثير من ميلاد الطفل دون أب".

وتقول الفتاة بدهشة: "كل هذا يخفيه حادث إعجاب شاب بفتاة وتطور هذا الإعجاب إلى عناق بين جسدين"؟

يجيب الطبيب ضاحكًا : "إن هذا الحادث له قدسية كبيرة، فيه تستمر الحياة، ولهذا فالفتاة اللبقة هى التى تعرف كيف تتولى قيادة عواطفها، ولست أعنى أن تكون باردة، ولكن أعنى أن توقف تيار التدفق السلوكى عند الشاب، فتمنع اقتحامه لها؛ فالشاب الحساس يشعر بالذنب سريعًا، ويتراجع إذا ما شعر أنه قد تسبب فى جرح مشاعر صديقته، كما أن الفتاة لا بد أن تكون جادة إذا ما شعرت أنها أمام شخص أنانى غير حساس، لا يهتم إلا بالتقدم سريعًا إلى الفراش".

وتقول الفتاة ضاحكة: "إن أى اثنين _ شاب وفتاة _ لو استمعا إلى آرائك فلن يكون هناك حب بينهما. أنت قاتل للحب بكلمات هادئة".

فيضحك الطبيب قائلاً : "ليس هدفى أن أقتل الحب، ولكن أن أنقذه من الدموع. وعلى أية حال هناك تقدم فى المجتمع العالمى لفكرة إنقاذ الفتاة لنفسها من متاعب الحمل غير الشرعى. وقد اكتسبت الفتيات الآن خبرة فى صد الشاب عن التمادى فى الغزل الذى يقود إلى ما بعد ذلك من متاعب؛ فالفتاة ترفع يده بهدوء عن خصرها أو تنبهه إلى أنها لا تعتقد أن الصداقة بين الشاب والفتاة لا بد أن تفضى إلى اللقاء الجسدى، وسيحاول الشاب مرة ثانية وثالثة؛ لأنه قد يخدع نفسه، ويتصور أن الفتاة ترغب فى إظهار نفسها كفتاة ليست سهلة المنال. وهنا يجب على الفتاة أن تكون حاسمة بهدوء، فإما الصداقة دون

ملامسة جسدية أو الافتراق. قد يقول الشاب: لكنك قلت إنك معجبة بى؟ فعلى الفتاة أن ترد فى نفس اللحظة: لكن لا أريد أن يتحول إعجابى بك إلى إجبار لك لتبنى طفل غير شرعى أو إنكاره.

وقد يقول الشاب: حسنًا ، إن هذا دليل على أنك عديمة الرغبة فى اختبار نفسك وإرضاء أنوثتك. وهنا يجب أن تنتبه الفتاة إلى أن الجدال بمثل هذه الحدة قد يجعلها تستسلم، وقد تقول لنفسها: إن غرائز هذا الشاب قوية، ويجب أن أظهر له قوة أنوثتى. إن مثل هذا التحدى يصل بها إلى الاستسلام لرحلة الألم التى تحدثنا عنها من قبل. إن على كل فتاة أن تعرف أن آدم منذ أن نزل إلى الأرض وهو يحاول إقناع المرأة بأن العناق مسألة سهلة، لكن كل آدم لا يمر بتجربة حمل طفل. إن الفتاة الذكية هى التى تعلن أنها تحب الحب وقادرة على كل شىء لكنها ترغب فى ادخار قدراتها لتمنحها إلى الشاب الذى يعرف كيف يبنى معها بيتًا، ويكون مسؤولاً معها عن نشأة طفل؛ لأنها لن تضحى أبداً بأى قدر من احترامها لنفسها بالاندفاع إلى هوة الملامسة الجسدية دون زواج، تلك الهوة التى تنتهى بتسعة أشهر من عذاب الحمل دون مساندة من أبى الطفل، ثم ميلاد طفل غير شرعى".

وتقول الفتاة: "ولكن هل معنى ذلك أن الشباب كلهم سيئون"؟

فيقول الطبيب: "أنا لم أقل ذلك، ولكنى قلت إن الشاب أثناء مراهقته يريد أن يستكشف آفاق العلاقة الجسدية" .

ثم تقول الفتاة: "لماذا إذن تطلب من الفتاة أن تقف ضد مشاعرها؟ أليست هى أيضًا فى حاجة إلى استكشاف العلاقة الجسدية".

فيقول الطبيب: "إننى أتحدث عن الفتاة لأنها فى الغالب هى التى تتحمل النتائج الصعبة هل سمعت عن شاب عانى من آلام الوضع ومن البحث عن أم للجنين؟ إن هذا لا يحدث، ولذلك فعلى الفتاة مسؤولية كبيرة فى حماية نفسها. ثم لماذا تنسين أننى قلت إن الفتاة هى التى تحدد للشاب مسار سلوكه معها؟ ولماذا تنسين أن الشاب يبحث غالبًا عن الصداقة مع فتاة تحترم المثل العليا، وأن القلة القليلة هى التى تتصرف بعكس ذلك؟ إننى أعلم أن فى كل إنسان _ رجل أو امرأة _ رغبة خفية فى معرفة كل الملذات، ولكنى أعلم أيضًا أن المثل العليا تفرض على الشاب أن يخجل من التمادى فى الغزل. وتفرض هذه المثل العليا على الفتاة أن تستكشف كل ملذاتها مع من تحب ومن خلال الزواج".

وتقول الفتاة: "وماذا عن الشاب الذى يجبر الفتاة فى أول لقاء له معها على فعل كل شىء"؟

فيجيب الطبيب بقوله: "هذا لون من الاغتصاب، ورغم أن كل المجتمعات تعاقب الشاب المغتصب أشد أنواع العقاب، إلا أننى لا أعفى الفتاة من المسئولية؛ لأنها خرجت مع شاب لم تتعرف عليه جيداً ".

وتقول الفتاة: "ولكن المجتمع الغربى كله تحدث فيه صداقات، ولو من خلال أن توقف الفتاة سيارة فى الطريق ليوصلها سائق السيارة إلى أى مكان".

فيقول الطبيب: "والمجتمع الغربى كله يشهد عمليات قتل واغتصاب، تبدأ بهذا الأسلوب. والفتاة فى معظم دول أوروبا وأمريكا تصرّ حالياً على أن تصل إلى منزلها بنفسها. وإذا اضطرتها الظروف، ولجأت إلى شخص عابر لا تعرفه ليوصلها إلى منزلها؛ فعليها أن توضح له أنها فى عجلة من أمرها، وعليها الوصول بأسرع ما يمكن. وقد تسمع الفتاة ـ ولو كانت حسنة التربية ـ نداء فى داخلها يسائلها بصوت خفى: ولماذا لا تحاولين؟ إن هذا الصوت موجود ويجب كتمه لأنه سيحول الحياة إلى رحلة ندم".

وتتساءل الفتاة: "ولماذا تتحدث بكل هذه المثالية أيها الطبيب"؟

فيقول الطبيب: "أنا أتحدث بصدق عن ضرورة حماية الفتاة لنفسها؛ لأن الفتاة عليها أن تعلم أن الشاب تم تصميمه وتلقينه على أساس أنه مقتحم، وهو يمضى فى إثبات رجولته إلى الحد الذى توقفه فيه المرأة. أما إذا تمادى أكثر من ذلك؛ فإنى أدعو الفتاة إلى استعمال العنف معه لوضعه عند حدود لا يجب أن يزيد عنها".

تقول الفتاة: "إن الشباب عندما سأقول لهم كلماتك هذه سيتهمونك بالتزمت".

ويقول الطبيب: "إننى لا أفرض تزمتى على أحد، ولكن واقع الخبرة الطبية وعشرات الآلاف من الأبناء غير الشرعيين، ووجوه الأمهات الصغيرات التعيسات هو الذى يدفعنى إلى قول ذلك".

فتقول الفتاة: "إذن لا داعى لأى اقتراب بين الرجل والمرأة إلا بعد الخطوبة والزواج"؟

يقول الطبيب: "إننى مع هذا الرأى، وإن كنت أتمنى أن تستمر فترة الخطوبة عامين، حتى يتثبت كل طرف من مشاعر الآخر، وأن ينمو الحب الحنون الكريم، ويتقدم ليكون الشاب مسؤولاً عن ميلاد طفله مع زوجته، بدلاً من دموع الأم وهى تملأ شهادة ميلاد الطفل، مع علمها أن والده لا يرغب فى نسبته إليه. وهذه العبارة منتشرة جداً على ألسنة الأمهات الصغيرات اللاتى وقعن فى مأساة الحمل غير الشرعى".

الفصل الثانى عشر:

الطريق إلى النضج

تظل العيون كالرادار الباحث عن حقيقة غائبة.

والحقيقة الغائبة تنقسم إلى نصفين؛ النصف الأول منها بالنسبة للشاب منذ عامه الخامس عشر هى الصورة الواقعية لفتاة ما، فهو يريد أن يعرف أكثر عن هذا الجنس الآخر.

والنصف الثانى من الحقيقة الغائبة عن الشاب، هو رغبته العميقة فى أن يتعرف على مواهبه، وعلى قدراته الاجتماعية.

وفى أعماق الفتاة الغائبة، والتى تبحث الفتاة عنها، هو رغبتها فى معرفة كل ما يمت بصلة إلى عالم الجنس الآخر: كيف يفكر، وهل تتشابه مشاعره مع مشاعر الفتاة، أم أن هناك اختلافات جوهرية؟

ونصف الحقيقة الآخر الغائب، والذى تبحث عنه الفتاة، هو رغبتها فى معرفة قدراتها ومواهبها، وهل يقدر المجتمع الذى تنتمى إليه هذه القدرات وتلك المواهب؟

ويختلف كل مجتمع فى أسلوب استجابته لرحلة بحث الشاب أو الفتاة عن هذه الحقيقة الغائبة بنصفيها؛ فبعض المجتمعات يسمح باختلاط الشباب والفتيات، والبعض الآخر لا يسمح بذلك.

إن لكل مجتمع تقاليده وعاداته.

ففى أمريكا توجد مدارس مختلطة فى بعض الولايات، ومدارس للشباب فقط، ومدارس ثالثة للفتيات فقط. وكذلك فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا.

أما فى منطقة مثل الشرق العربى؛ فعدد قليل من المدارس هى المختلطة، وعدد كثير من البلاد تنفصل فيه دراسة الشباب عن دراسة البنات.

وتظل عينا الشاب تبحثان عن صورة حقيقية للجنس الآخر. إنه يحاول الاقتراب من صديقات الأخت حتى يتعرف على الجنس الآخر، ويحاول أن يقرأ فى كل مجلة أو جريدة، الأخبار والتحقيقات التى تتناول الجنس الآخر. إن عينيه تبحثان عن معنى الحياة اليومية للجنس الآخر وتفاصيلها.

وكذلك عينا الفتاة تبحثان عن صورة حقيقية للجنس الآخر. إن عينيها ترقبان أصدقاء الأخ أو الأقارب الذين فى مثل عمرها أو أكبر قليلاً .

وبوسيلة أو بأخرى، هناك فرص للحصول على معلومات وانطباعات عن الجنس الآخر، وفى نفس الوقت تزداد معرف الإنسان بجنسه.

ولا يترك الشاب أية فرصة للتعرف على الجنس الآخر؛ فهو يحاول السفر إلى خارج مجتمعه، إلى المجتمعات التى توجد بها تجمعات شبابية من الجنسين، وكذلك الفتاة لا تترك فرصة للتعرف على الجنس الآخر، إنها تحاول أن ترى وتحس كيف يتصرفون.

وتحدث محاولات التعرف على الجنس الآخر بدءاً من زيارة الأسر الأخرى التى تتيح عن طريق الصدفة لقاء الشاب بالفتاة أو لقاء الفتاة بالشاب. ودائماً يولد مجال للحديث يملأ فجوات الصمت التى فى أعماق كل شاب وفتاة.

وعندما تتاح للشاب فرصة الانضمام لناد من النوادى الرياضية؛ فهو يمتلئ بدرجة عالية من الرضى. إنه يوجد بين شباب من نفس عمره، ويمارسون لعبة يحبونها، وما أجمل أن تتاح لمجموعة من شباب نادٍ ما فرصة اللقاء مع مجموعة من فتيات نادٍ آخر، إنها فرصة لمزيد من التعرف على أوجه النشاط عند كل فئة.

وأجمل ما يسبب الإحساس بالرضى النفسى، هو أن يشترك نادٍ ما فى القيام بمشروع اجتماعى لأهل الحى أو المدينة، وأن يدخل فى منافسة مع نادٍ آخر للجنس الآخر فى تأدية الخدمة نفسها.

إن العمر الشاب يحاول استكشاف دنيا الجنس الآخر حتى من خلال الهوايات، ولا أنسى أبداً هذا الشاب الذى بلغ الخامسة عشرة، وكانت هوايته جمع طوابع البريد، وحاول أن يقرأ عن تاريخ العلاقات الاجتماعية عن كل بلد، ووضع لذلك قاموساً صغيراً

يضم العادات والتقاليد فى مختلف بلدان العالم. وهناك هواية جمع الأحجار ودراسة الطبيعة، وهناك الألعاب الرياضية، وهناك فرق الموسيقى والرقص الشعبى.

إن العمر الشاب لا يترك فرصة للتواجد الاجتماعى والفنى إلا ويقبل عليها، والهدف هو الاستمتاع الفنى والعلمى والرياضى، وأيضًا لا مانع من جمع المعلومات عن الجنس الآخر.

وعلى سبيل المثال، فإن المجتمعات التى تنشط فيها بين الشباب الحركة الكثيفة، يزدهر فيها أيضًا نشاط الفتيات فى جمعيات المرشدات، وهى المقابل لجمعيات الكشافة التى تنضم إليها البنات.

وكل من جمعيات الكشافة والمرشدات تتبارى فى تقديم الخدمات للمجتمع الذى تنتمى إليه

وهناك جمعيات للفلاحة ولتنسيق الزهور والطيران الشراعى.

إن كل هذه الألوان من النشاط يمكن أن تملأ حياة المراهق بالقدرة على التعاون مع الغير، واكتساب معلومات جديدة فى المجالات كافة.

ومن اللائق والواجب أن يهتم ولى أمر المراهق أو المراهقة بمحاولة تشجيع الابن أو الابنة على مزاولة هذه الألوان من النشاطات.

كما أن عناية ولى الأمر يجب أن تتجه إلى محاولة تعليم المراهق بعض المهارات الأساسية مثل قيادة السيارة. إن إشراك الابن فى مدرسة لقيادة السيارات يمكن أن يكسبه الخبرة اللائقة بهذا اللون من النشاط، كما يمكن أن يجنبه محاولات التعلم بعيداً عن مراقبة الأسرة بما فى ذلك من أخطار.

والغرض من كل نشاط اجتماعى أو رياضى هو أن يكتسب الشاب الثقة فى نفسه، وأن يتعلم فن السيطرة على المواقف المختلفة، وأن يتجنب الوقوع فى المشكلات المختلفة.

كما أن النشاط الاجتماعى يعطى المراهق الفرصة لرؤية الشخصيات المختلفة فى المجالات المختلفة، ويتقن ما يثير إعجاب الآخرين، ويتعلم ماذا يعجبه من سلوك الجنس الآخر وماذا لا يعجبه، ويدخل فى مناقشات مفيدة. وهذه المناقشات تضيف إلى معلوماته الجديد، وتوسع مداركه وتعمق أفكاره.

وكل نشاط اجتماعى أو رياضى يساعد الشاب _ أو الفتاة _ على أن يرى صفاته الطبيعية فى عيون الآخرين دون حاجة إلى التظاهر أو التكلف، كما تتيح هذه الأنشطة للشاب أو الفتاة أن تظهر فيه عناصر القدرة على القيادة والإدارة ومدى التعاون مع غيره،

ويكتسب الشاب أو الفتاة من هذه الأنشطة الثقة بالنفس والقدرة على التعبير عن الرأى.

وفى العشرين عاماً الأخيرة انتشرت بين الشباب والفتيات عادة جديدة: إنها دعوة الأصدقاء والصديقات إلى حفلات فى المنزل، سواء بمناسبة أعياد الميلاد أو مناسبات النجاح فى الامتحانات أو غير ذلك من المناسبات.

ومثل هذه الاحتفالات عليها أن تراعى أساساً ظروف الأسرة الاقتصادية، فلا يمكن لأسرة محدودة الدخل أن توجه الدعوة لعدد كبير من أصدقاء الشاب أو صديقات الفتاة.

وفى مثل هذه الاحتفالات على الشباب أو البنات أن يراعوا إمكانات بعضهم، فإذا كان الشاب الداعى لمثل هذه الحفلة يعلم أن إمكانات أسرته كبيرة؛ فعليه ألا يبالغ فى أسلوب الاحتفال، احتراماً لظروف غيره من أصدقائه.

ودعونى أقل إن بعضاً من الشباب والفتيات يتخذون من هذه الدعوات فرصة لاجتذاب الهدايا، تلك الهدايا التى ترهق بدورها ميزانيات الأسر الأخرى التى ينتمى إليها الأصدقاء والصديقات الذين توجه لهم الدعوة. لذلك أقول للأسرة وللشاب وللفتاة: ليظهر كل إنسان بقدراته الواقعية، ولا داعى للمغالاة. ثم إن الهدايا المتبادلة فى مثل هذه الحفلات لا تنم عن قيمة صاحبها، بل عن مجرد رغبته العميقة فى تحية زميل أو زميلة.

وعندما تتم دعوة مجموعة من المراهقين أو المراهقات لمناسبة ما فى بيت أحدهم؛ فعلى ولىّ الأمر أن يكون موجوداً، ويا حبذا لو وجه ولىّ الأمر دعوة لآباء بعض أصدقاء ابنه؛ ليكونوا جميعاً موجودين مع شلة الشباب، وكذلك على الأم أن تكون موجودة فى أثناء دعوة ابنها لعدد من الصديقات.

ووجود الأم أو الأب بالمنزل أثناء دعوة أحد الأبناء لأصدقائه يؤثر نفسياً على سلوك المجموعة الشبابية: إن الشباب عندما يجتمعون معاً قد يفقدون قوة الضبط الاجتماعى اللازم للسلوك اللائق. وإذا ما اشتد الصخب فى الحجرة التى يجتمع فيها الشباب أو الفتيات؛ فعلى الأب أن يدخل لمجرد سؤال الشباب أو الفتيات إذا كانوا يرغبون فى شرب قليل من الشاى أو القهوة أو العصير. وأيضاً إذا ما اشتد الصمت فى الحجرة التى يجتمع فيها الشباب أو الفتيات؛ فلا بد للأب أن يدخل ليسأل إذا ما كانوا يرغبون فى شرب قليل من الشاى أو القهوة أو العصير.

إن وجود الأم أو الأب أثناء استقبال أو وجود أو وداع أصدقاء الابن أو صديقات الابنة أمر مهم؛ لأن السلوك عند الأبناء أو البنات ينضبط تحت قيادة الكبار.

وقد يحاول الأبناء الانفراد بأنفسهم، وقد يقول واحد من الأبناء لوالديه: "لابد أن تثقا

فى سلوكى، لقد كبرت وكبر أصدقائى ولا بد من احترام ذلك". وسوف يسمع مثل هذا الابن من والده قوله: "عندما تكبر بالتمام فمعنى ذلك أن تستقل بحياتك، وهذا ما لم يحدث حتى الآن. ولذلك فلا أحد يشك فى أنك تواصل طريقك إلى النضج، ولكن لا بد من احترام قواعد الحياة فى البيت. وأهم قاعدة من تلك القواعد ألا تستقبل أصحابك دون وجود أحد فى المنزل".

ومثل هذا الكلام لا يقال فقط فى البلاد ذات التقاليد المحافظة، بل صار يقال فى أمريكا وفى فرنسا وفى إنجلترا. والسبب ببساطة هو أن الكبار صاروا يتجهون الآن إلى الانضباط الأسرى، بعد موجات من التحلل الأسرى استمرت فترة طويلة من الزمن، وكان من نتيجتها تعاسة شاملة عاشتها أعداد كبيرة من البشر.

إن الفتاة فى أمريكا صارت الآن تعيش وهى متقبلة فكرة الرقابة من الأسرة، لأن فى ذلك حماية لها من مجهود صعب، كما أن فكرة انفصال الفتاة عن أسرتها وانفصال الشاب عن أسرته فكرة مشكوك فى جدواها ونجاحها.

وصار من المقبول تماماً أن تقول الفتاة الأمريكية للشاب الذى يلح على الخروج معها: "لا أستطيع ذلك لأنى أرى أن مثل هذه اللقاءات لها من الأضرار أكثر مما لها من منافع"، وهى قد تفعل ذلك وهى مليئة بالغيظ والضيق، ولكنها تحس مع الغيظ والضيق بأهمية الضبط الاجتماعى، وبأنها تدخر عواطفها للإنسان الذى ستعيش معه إلى الأبد.

وصار من المقبول أن يسمع الشاب عن الأضرار الناتجة عن الجلوس مع فتاة بعيداً عن عيون الأهل والمجتمع. إنها تقود ببساطة إلى محاولات استكشاف كل منهما لأسرار العلاقة بين الرجل والمرأة دون أن يوجد بينهما حب حقيقى.

لقد صار الشباب والفتيات يعلمون تماماً أنه من المناسب أن تلتقى جماعة من الشباب مع جماعة من البنات تحت إشراف أحد الكبار، لا لشىء إلا لأن اللقاءات المنفردة بين الشاب والفتاة لها من العواقب المؤلمة أكثر مما فيها من البهجة.

الفصل الثالث عشر:

لماذا يختلف الإحساس بالحب من وقت لآخر؟

لأن لكل مرحلة من العمر نهاية، فإن المراهقة تبدأ فى إعلان نهايتها منذ بدء العام التاسع عشر. وتستغرق تلك النهاية مدة تقرب من أربع سنوات ليبدأ الشباب مرحلة جديدة من مراحل العمر: إنها مرحلة التلقى لمسؤولياته الاجتماعية والعملية.

والشاب يجد فى نفسه الكثير من الجراءة على مناقشة مشاعره بشكل أقل خجلاً مما كان حاله عند عامه الرابع عشر. إنه ينظر وراءه فيجد أن مشاعره نحو الجنس الآخر كانت ساذجة، ويكتشف أن فكرته عن الحب لم تنبع من دراسة واقعية لمن أحبها، بل كانت نابعة من الإخلاص لفكرة الحب المجردة.

والفتاة تجد فى نفسها الكثير من الشجاعة فى نقد مشاعرها السابقة. إنها قد تتعجب كيف سهرت الليالى وراء فكرة الحب وكيف طاردت الأغانى والمعانى التى فيها، وحاولت أن تطبقها على مشاعرها، ثم تهاوت تلك المعانى كلها تقريبًا أمام اختلاف سلوك من أحبت عن الصورة التى كانت تتوقعها. إن الإنسان فى عامه التاسع عشر يبدأ فى رؤية الواقع بعمق أكثر مما كان يراه فى عامه الرابع عشر.

إن الكائن منا فى عامه الرابع عشر يندفع إلى بطولة مسرحية اسمها: "الحب حق لى"، ويبدأ الشاب فى اختيار فتاة من الجنس الآخر، ويلصق بها كل الصفات الجميلة التى يتمناها فى أى امرأة، وتبدو فى عينيه وكأنها النموذج المجسد للكمال الأنثوى وما إن

تتاح للشاب الفرصة للاقتراب من تلك الفتاة عمليًا حتى يتهاوى هذا التمثال، ويغرق الشاب فى الحزن قليلاً ، ثم يمر بعض من الوقت ويتم الشفاء من هذا الحزن تدريجياً.

والفتاة كذلك أيضًا . إن مشاعرها تفور برومانسية رائعة وساذجة فى آنٍ واحد منذ عامها الرابع عشر، وتختار شابًا من الجنس الآخر، وتراه أجمل ما رأت فى كل الحياة، وتلصق فيه _ بخيالها _ كل الصفات الرائعة فى الرجل عمومًا . إنه المثال والنموذج، تسهر الليل لتتحدث مع خياله، وتحلم به، وقد أعد لها بيتًا جميلاً، واشترى لها أجمل الهدايا، وأنقذها فى كل المآزق التى تمر بها. ويظل هذا الشاب بطلاً لكل أحلام اليقظة، ثم يحدث أن تقترب الفتاة من هذا الشاب فتراه على غير الصورة الخيالية التى رسمتها له، وهنا تتساقط أوهام قصة الحب، وتسقط معها بعض من الدموع، ويمر قليل من الوقت، ويتم الشفاء من الحزن على هذا الحب تدريجيًا .

وقد يتساءل المرء: لماذا إذن يعيش الإنسان كل هذا الخيال الذى يتعاقب فيه الفرح مع الحزن؟

وأقول بهدوء: إن الإنسان فى عمر الرابعة عشرة يقوم باختبار قدراته واستكشاف مشاعره، تمامًا كما يفعل الممثلون عندما يستكشفون مواهبهم، إنهم يشعرون أن فى داخلهم طاقة ما يحبون التعبير عنها، فما بالنا برغبة الكائن البشرى فى التعبير عن عواطفه؟ إنه يحتاج إلى التدريب عليها، والتدريب دائمًا هو "تصور خيالي لمستقبل قادم"، وهكذا ينشط الخيال فى الرابعة عشرة فى تصور العاطفة ويبدأ فى التدريب عليها بكل ما فيها من مشاعر، ثم يفاجأ بأن الوقت والظروف وطبيعة الشخص لا تتلاءم مع ما فى مشاعره من رقة وحلم؛ فيحدث الصدام الأول بين الخيال والواقع، وتتهاوى قصة الحب الأولى الخيالية. لكن السؤال الباقى هو: هل استفاد الشاب _ أو الفتاة _ من تلك التجربة الأولى؟

نقول:

- بالتأكيد نعم، والاستفادة تتركز فى عملية تدريب المشاعر على تصور المثاليات وكيفية التضحية من أجل الآخر، وسبر أغوار الشخص الآخر بهذا الخيال. كل ذلك يضيف للشباب _أو للفتاة _ خبرة عالية، ويتم صقل هذه الخبرة من خلال الواقع، ويتعرف الشاب _ أو الفتاة _ على الحقيقة الواضحة، وهى أن الحب لا يقوم على التخيل فقط، ولكن على مدى تقبلنا لصفات الطرف الثانى ومميزاته.

ولذلك فإن الإنسان _ شابا أو فتاة _ عندما يبلغ التاسعة عشرة يجد نفسه واجداً من أربع مجموعات:

* **المجموعة الأولى**: وهى التى يدخل الواحد منها فى علاقة عاطفية جديدة. وتقوم هذه العلاقة على معرفة لا بأس بها بكل ظروف الطرف الآخر على أساس واقعى، وبالتالى فإن لقاءات الشخص منهم مع من يحبه فيها جزء من الإحساس بالمسؤولية. هذا الإحساس جيد، ولكنه أيضًا إحساس ثقيل؛ لأنه يشتت قدرات الإنسان فى مجال دراسته. إن الإنسان منهم يسعى للتواجد مع من يحب معظم الوقت، ويكون ذلك على حساب قدرته على إنجازات أساسية يجب أن يقوم بها لاكتساب مكانة علمية أو أدبية.

* **والمجموعة الثانية**: وهى التى يعرف الواحد فيها أنه غير مستعد جديًا للوقوع فى الحب، ولكنه يرتبط بعلاقة صداقة منتظمة مع فرد من الجنس الآخر، وهذا النوع من الشباب قد ينساق إلى عمق التجربة الجنسية الكاملة دون مشاعر، لذلك فمن المطلوب دائمًا أن يكون اللقاء مع الجنس الآخر فى إطار جماعة من الشباب التى لها هواية ما؛ لأن فى ذلك وقاية أكيدة من التورط غير الناضج.

* **المجموعة الثالثة**: وهى التى يكون الواحد منهم على غير استعداد للدخول فى علاقة منتظمة مع طرف من الجنس الآخر، لا لعدم الثقة بالنفس، ولكن لأن الإنسان منهم غير مستعد للتجربة الرومانسية أو التورط فى علاقة جسدية تسلب منه طاقته على العمل بإتقان للتفوق العملى أو المهنى.

* **المجموعة الرابعة**: وهى التى يكون الإنسان منهم خجولاً فى تعامله مع الجنس الآخر، ولا ينسحب هذا الخجل ليؤثر سلبيًا على طاقته الإبداعية، بل يكون الإنسان منهم منتجًا وناضجًا ، ولا بد هنا من أن نقول: إن بعضًا من أعظم المبتكرين فى العلوم والفنون كانوا من هذا النوع الخجول، وهذا الخجل لم ولن يمنع أحداً من أن يتزوج ويبنى حياة أسرية ناجحة.

وقد قمت بعرض هذه النوعيات المتعددة من الشباب لأذكر أن كل إنسان منهم هو كائن طبيعى وعادى. أقول ذلك لأن بعضًا من الشباب يتهم إحساسه بالخجل بأنه عقبة فى سبيل بنائه لحياته العاطفية، والبعض الآخر يتهم نفسه بأنه غير أمين فى مشاعره؛ لأنه يبحث عن لقاء متجدد مع أى طرف من الجنس الآخر لمجرد إثبات الوجود. بل هناك من الشباب على وجه الخصوص من ينغمس فى علاقة جسدية لمجرد إثبات الإحساس بالرجولة لأنفسهم، وغالبًا ما يخرجون من مثل هذه التجارب بإحساس كبير بالذنب.

إن الشباب قد ينغمس فى علاقة عاطفية عميقة أو ينغمس فى علاقة جسدية كاملة ومتكررة ودائمة؛ فيعانى من ثقل العلاقة على كتفيه، ولا يستطيع التفرغ للإنجاز الدراسى؛ لأنه يحس دائمًا بالإثارة، وبالرغبة فى الاندماج أكثر وأكثر فى مثل هذه العلاقة، ويعانى

من بعد كل لقاء مع من يرتبط معها بهذه العلاقة من الإحساس بالذنب، ويتبدد منه الوقت فلا يجيد التحصيل الدراسى.

إن الشاب فى مرحلة المراهقة لا يجب أن يجد السيارة الفارهة والعلاقة السهلة؛ لأن ذلك يبدد طاقاته فى التظاهر، ويعانى من عنف الإحساس بالقلق فى التلقى الدراسى.

وعدد نادر من الشباب هو الذى يمكنه أن يتوازن دراسياً فى مثل هذا الإطار.

وعدد أقل ندرة من الشباب هو الذى يتميز بالطموح الثابت، وبالقدرة العالية على تحمل المسؤولية، ولا بد أن تكون زوجته مثله.

وتشهد العيادات النفسية فى أوروبا وأمريكا عدداً كبيراً من الشباب الذى يعانى من التشوش والقلق والارتباك، وعدم القدرة على تحديد المهنة، وذلك بسبب الزواج المبكر.

ولنا أن نلحظ أن الذين يرغبون فى استكمال تعليمهم الجامعى يبخلون بمشاعرهم، فلا يبددونها فى العلاقة العاطفية أو الجسدية، ولكن الذين يعملون بعد الدراسة الثانوية والتأهيل المهنى يميلون إلى بدء الحياة الأسرية، والدخول فى قصص حب تقودهم إلى الزواج، فالعمل فى أى مهنة لا يتطلب الضبط النفسى الذهنى الذى تتطلبه الدراسة.

ولكن، هل معنى ذلك أن الشاب لا يجب أن يسمح لنفسه بالوقوع فى الحب خشية أن يفشل دراسياً؟

إن أغلب الحالات التى يرهقها الانغماس العاطفى الرومانسى فى قصص حب أثناء الدراسة الجامعية تدفع ثمن ذلك من قدرتها على التفوق، ولكن هذا لا يعنى أن الإنسان الشاب لا يجب أن يحيا دون عاطفة، خصوصاً وأن الحياة العاطفية قد يتحكم فيها الإنسان وقد تتحكم فيه، وتهذيب الحياة العاطفية يقتضى امتلاك الشاب _ أو الفتاة_ لهدف علمى أو فنى كبير.

والملاحظة المؤكدة أن غالبية من تقودهم العلاقة العاطفية فى المراهقة إلى الزواج نراهم يعيشون حياة مضطربة.

ومع التراخى الاجتماعى الذى أصاب المدن الكبرى فى الغرب، ظهر نموذج جديد للعلاقات بين الشباب والبنات، خصوصاً هؤلاء الذين وصلوا إلى السنة النهائية فى التعليم الجامعى. لقد انغمست أعداد كبيرة من هؤلاء الشباب والبنات فى علاقات من نوع خاص؛ فالشاب يتفق مع صديقته على استئجار غرفة مشتركة بعيداً عن الأهل ويقيمان معاً بعيداً عن أسرتيهما.

ومنذ عام ١٩٢٠ وحتى الآن نمت هذه الظاهرة فى الولايات المتحدة على أساس أن

الشاب _ أو الفتاة _ يختبر أسلوب الحياة مع آخر قبل أن يتزوج.

وفى البداية انزعج المجتمع الأمريكى من هذه التجربة، واعتبرها مساسًا بالأخلاق، ولكن مع تقدم الزمن صار المجتمع يتقبلها بشكل أو بآخر.

وحتى كتابة هذه السطور، هناك بعض من الآباء والأمهات لا يعلمون أن أبناءهم يفعلون ذلك، وهناك بعض آخر يعلم هذا الأمر ويتظاهر أنه لا يعلم شيئًا، وبعض ثالث يعلم ولا يعرف كيف يتصرف إزاء هذا الموقف، وبعض رابع يرفض تماماً حدوث ذلك. وعندما يواجه الأب ابنه أو ابنته؛ فإن الابن _ أو البنت _ يقول: "إنها حياتى وأنا فى السنة النهائية من التعليم الجامعى، ومن حقى أن أعيش كما أريد". وعندما تمت دراسة هذه المجموعات الشبابية وجد العلماء النفسيون أن غالبية الشباب جاد ويمارس المسؤولية كاملة، وأن كلا منهم يفكر بشكل عميق فى كيفية تحويل هذه العلاقة إلى زواج دائم، وأن نسبة كبيرة منهم تتزوج فى النهاية. وهم لم يفعلوا ذلك من أجل الانغماس فى اللذة الجنسية، ولكن لاختبار أسلوب الحياة من كل أوجهها، وليس فيهم شاب متعدد العلاقات مع عدد كبير من الفتيات، وليس فيهم فتاة متعددة العلاقات مع عدد كبير من الشباب. إن كل إنسان منهم يتمتع بقدرة كبيرة على تحمل المسؤولية.

ولكن يبقى السؤال التالى: ما مستقبل مثل هذه العلاقات التى لا يوافق عليها المجتمع الأمريكى فى غالبيته؟

من الواضح أن أمريكا كأى مجتمع بشرى آخر تمر هذه الأيام بتغير سريع فى التقاليد، وأن الوقت وحده هو الذى سيحكم على مثل هذه العلاقات، هل هى سليمة أم لا. فإذا كانت مثل هذه العلاقات ستتحول إلى نموذج أسرى ناجح بلا آثار جانبية فسوف يتقبل المجتمع ذلك. أما إذا ظهرت فى مثل هذه العلاقات الكثير من العيوب فسوف يرفضها المجتمع.

وكلمتى للشباب هنا ألا يحاولوا تقليد أحد فى نمط الحياة، ولكن لهم أن ينظروا إلى آبائهم، فهم المثل والنموذج الذى يمكنهم أن ينقدوه ويقيموه مع الحرص على أن يضعوا فى الاعتبار مشاعر هؤلاء الكبار. فإذا كانت مثل هذه الفكرة مقبولة من الآباء فيمكنهم أن يطبقوها، وأما إذا كان الفزع هو أسلوب استقبال الآباء لها فإن الشاب حتى ولو أقدم على هذه التجربة فلن يشعر فيها بالراحة، حتى ولو كان غيره من الشباب يفعلها ويعيشها.

إن الكبار _ أردنا أم لم نرد _ يسكنون فى ضمائرنا وعلينا احترام الضمير لنتواءم مع أنفسنا.

الفصل الرابع عشر:

آلام نهاية أى قصة حب

ليس منا من لم يمر بتلك المشاعر المؤلمة، مشاعر انفجار قنبلة الفراق الحزين فى قصة حب ما. فالمفاجأة تحدث كالزلزال عند سماع الشاب لكلمات النهاية على فم الفتاة التى أعطاها الكثير من خياله ومشاعره. إنه يمر عبر جحيم صغير من العرق والخجل والافتقاد والإحساس بالعار، والإحساس بالخيبة والامتلاء بالغيظ. يحدث له كل ذلك عندما يجد على شفاه من يحبها قولها: " لقد انتهى كل شىء".

والمفاجأة تحدث كالكارثة العارمة فى أعماق الفتاة، وتمتلئ بالغيرة والإحساس بالمهانة، وتزدحم أعماقها بمشاعر خيبة الأمل، وضياع الكرامة، وفقدان هذا الفخر الداخلى بالأنوثة.

ولا أنسى وجه الشاب الذى وصل إلى السادسة عشرة، وكان لعامين كاملين يترك لخياله فرصة السفر إلى ما لا نهاية فى تأمل قريبته التى فى مثل عمره. دق الشاب باب العيادة النفسية لينفجر ببكاء هادئ ويقول: "لقد فقدت الأمل فى الحياة". وكان هذا الشاب يخصص ساعتين كل يوم ليكتب عن كل ما حوله، وكل ما يدور فى نفسه فى كراسات زرقاء اللون ومكتوب عليها: "إلى حبيبى". ولم تكن تلك الحبيبة تعلم من أمر هذه الكراسات شيئًا.

ولم تكن تعلم بعمق هذا الخيال الجامح، وعندما اقترب منها الشاب ذات نهار أثناء

زيارة عائلية، واعترف لها بالحب، قالت له بهدوء: "لكنى لا أفكر فيك بمثل هذا الأسلوب. أنت قريب لى وفى مكانة أخى، ودعنى أصارحك القول بأننى قبلت خطوبة المهندس الشاب الذى تقدم لى"، وترك الشاب منزل أقاربه، وعاد مسرعًا إلى البيت، وكانت هذه الزيارة لبيت الحبيبة المتوهمة قبل امتحان السنة النهائية فى الدراسة الثانوية، وبطبيعة الحال لم يستطع الشاب أن يستجمع قواه ليدخل الامتحان وهو فى حالة من عدم التوازن النفسى، وبطبيعة الحال لم يكن أداؤه فى الامتحان معبرًا عن كمية استيعابه للدروس ولذلك كانت النتيجة الطبيعية هى الرسوب.

وكان الشاب حزينًا لرسوبه، لكن حزنه الأكبر كان لفقدان الحبيبة، وعندما سأله الطبيب عن آلامه، وطلب منه أن يصف الآلام بالضبط، قال الشاب: "جفاف فى الحلق، وعدم قدرة على بلع الريق من الحزن، وإحساس بثقل كبير فى الساقين. وأسئلة كثيرة تتزاحم فى الأعماق عن السبب فى عدم احترامها لمشاعرى، ثم أسئلة أخرى كثيرة عن إحساس بعدم استحقاقى لها كزوجة لى، ثم مجموعة من الأسئلة الأخرى عن هذا الشاب الذى تقدم لها ولماذا أعجبها"؟

وتستمر أحلام اليقظة عند الشاب العاشق؛ فتبدأ من كارثة مفاجئة يقع فيها العريس الذى سيأخذ بطلة قصة الحب، ثم يتقدم الشاب العاشق المصدوم ليأخذها من أنياب هذا الوحش، ويخرج الشاب من حلم اليقظة الذى ينقذ به حبيبته، وهى لم تعرف أنها حبيبته إلا بعد أن جاءها الخطيب الذى تسعد به، ويذهب إلى حلم يقظة آخر، حلم ينتقم فيه من حبيبة القلب فيضربها بالسوط، وتتوسل إليه أن يقبل حبها، لكنه يعرض عنها وينصرف إلى غيرها من النساء، ويفيق من هذه الأحلام المتتابعة ليجد نفسه حزينًا فاشلاً، ويدق باب عيادة الطبيب النفسى ليشكو له؛ فيقول الطبيب كلمات واضحة هى: "إننا نمر بتجربة الفشل فى الحب الأول؛ لأننا ببساطة نلوم شخصًا لا يعلم شيئًا عن مشاعرنا منذ بدايتها، بل قد لا يعلم على الإطلاق شيئًا عنها، وليس من العدل أن نلوم شخصًا لم يكن فى قدرته أن يصنع نفسه وفقًا لخيالاتنا عنه، ونحن ندفع ثمن التمادى فى الخيال الذى لا يقوم على واقع، ندفع الثمن ألمًا وصدمة واكتشاف فراغ فى الأعماق، نشعر كأن ريحًا باردة تهب على القلب فيزداد الإحساس بالوحدة، ونشعر أن كرامة الإنسان منا قد اهتزت، ويلحظ الأهل ذلك وكذلك الأصدقاء، ونظل أسرى اتهام الإنسان الآخر بأنه مدلس وكاذب ومخادع. لكن كل ذلك يجعلنا نبنى مشروعنا العاطفى القادم بيقظة وانتباه، وعلى أرض الواقع الصلب".

وهذا ما يحدث في غالبية الأحيان، تماماً كما حدث مع ذلك الشاب الذى اجتاز امتحاناته من بعد ذلك بنجاح، وحاول أن يصوم عاطفياً إلى أن وصل إلى عامه الدراسى الأخير في الجامعة، ودخل فى تجربة عاطفية مع زميلة تصغره فى السن، وأحس كلاهما بالقدرة على رعاية الآخر، وبدأت رحلة زواج ناجحة.

لكن ماذا عن انكسار قصة حب تبادل فيها الاثنان المشاعر، أو لم تكن قصة حب من طرف واحد؟

تحكى فتاة أمريكية فى التاسعة عشرة عن هذه اللحظة، لحظة الصدمة التى حاولت بعدها الانتحار، لكن تم إنقاذها؛ فتقول: "كان ما بينى وبينه حب عميق بكل المقاييس. اندفع كل منا إلى الآخر منذ أن كنا فى السادسة عشرة. أحس كل منا أنه مخلوق للآخر. كنا نعرف أن الخطر الحقيقى على حبنا أن نضعف أمام رغبات الجسد.

كنا نقوم بالرحلات الرياضية ونمارس الألعاب ونستذكر، ويلح كل منا على الآخر حتى يتقدم دراسياً. كانت مشاعره متدفقة وكأنها النهر القوى، وكنت أفرح بهذه المشاعر كثيراً. واضطرتنى ظروف أسرتى أن ألتحق بالمدينة الجامعية، نظراً لأن والدى انتقل من عمله بالمدينة التى توجد بها الجامعة إلى مدينة أخرى.

ولم يكن من المعقول أن أترك الجامعة، لكن صار من الطبيعى أن أقيم ببيت للطالبات؛ حيث شاركتنى فتاة الغرفة التى أقيم بها. كنت أحكى لها عن حبيبى وعن مميزاته، اخترعت لى مشكلة دراسية وقالت لى: حبيبك قادر على حلها، إنه متفوق فى المادة التى أنا ضعيفة فيها، وبدأت تتردد على حبيبى، وبدأت لقاءاتهما تكثر، وكنت أحس بها مبتهجة جداً بعد أن تلقى حبيبى، وكان حبيبى يقول لى عنها: إنها فتاة متعاونة جداً، وعندها استعداد للتفوق الدراسى، وبدأت أشعر أن ما بينهما قد زاد عن حدود المعقول. كنت أعرف أن زميلتى فى الغرفة تهوى المتعة الجسدية، وأنها تتقدم بهدوء إلى الشاب الذى تعجب به، وتؤمن أن مثل هذه العلاقات تتيح لها الاستمتاع فقط، وأحسست أنها وصلت مع حبيبى إلى مثل هذه النقطة.

وقمت بزيارته فى غرفته التى يقيم بها فى أحد الفنادق أثناء زيارة زميلتى له، ووجدت الهول أمامى. كان يحتضنها وكانت تحتضنه. نزلت على درجات الفندق لألقى بنفسى فى النهر. لم أكن أصدق خيانته لى، وكنت أريد أن أموت فعلاً قبل أن أمر بمثل هذه الصدمة، ولكنى عرفت بعد ذلك أنها لم تكن الخيانة الأولى لحبيبى: إنه مدمن خيانة".

وكان الطبيب النفسى يعلم أن صدمة العاشقة كبيرة، ولكنه كان يخشى أن تظل الفتاة

أسيرة دوامة الشكوى. صحيح أن أحلاماً جميلة قد انكسرت، وصحيح أيضاً أن تكرار الشكوى يتحول إلى دوامة تضيع فيها من الإنسان قدرته على الاستفادة من التجربة وتخطيها من بعد ذلك. إن الشكوى تصبح بعد تكرارها لأكثر من صديق وصديقة مجرد عرض درامى يبحث فيه الإنسان عن "إتقان" الشكوى و"إجادة" دور الضحية، وينسى الإنسان ـ رجلا أو امرأة ـ أنه بتكرار ذلك الموقف يفقد الإنسان القدرة على استعادة التوازن. لذلك كان على الطبيب النفسى أن يقول "إن الألم الذى عندك يقابله ألم آخر عنده؛ لأنه معك كان يشعر بلون من الأمان سيفتقده من بعد ذلك، ولك أن تعرفى أن كل خيبة أمل تساعد الإنسان على أن يتعلم كيفية رؤية الحقيقة، وإذا أردت العدل مع نفسك، فلا بد أن تسألى نفسك عن أخطائك الخاصة التى شاركت أنت بها فى تحطيم علاقتك العاطفية. إن الثرثرة الزائدة عن الحد، وتصوير المباهج الفائقة فى الحب، وكلماتك التى لم يكن لها نهاية فى حكاياتك عن حبيبك للفتاة التى تشاركك فى حجرتك، كل ذلك أثارها، وولد فى أعماقها رغبة ملحة فى اكتشافه.

ولا بد لنا أن نعرف أن جزءاً من كل علاقة عاطفية يقوم على مبدأ قد نراه غير حقيقى، ولكنه حقيقى تماماً، مبدأ يقول إن هناك دائماً فى علاقة الحب إنساناً يقدم عواطفه للآخر وهذا الإنسان يوافق على الاستمتاع بالعواطف المقدمة إليه. وقد حدث ذلك فى علاقتك بحبيبك، وحدث أيضاً فى علاقة حبيبك بصديقتك".

وكانت كلمات الطبيب توضح أمام الفتاة مسؤوليتها الجزئية عما حدث، وكانت تكتشف الحقيقة الواضحة فى أن كل خيبة أمل تساعد الإنسان على أن يتعلم كيف يرى الآخرين على حقيقتهم، وأن يتعرف فى نفس الوقت على حقيقة ما يريد لنفسه.

كانت كلمات الطبيب تهدف أيضاً إلى أن تضع الفتاة نهاية لهذا العرض المسرحى الذى تستثير به سخط كل من حولها ضد هذا الخائن، وذلك حتى تنقذ نفسها من الوقوع فى براثن الاستمتاع بشفقة الآخرين عليها، وقد يصل الأمر إلى أن ينفد صبر الآخرين من تكرار روايات الاتهام تلك، وعندئذ يبدأ الآخرون فى السخرية من مدمن الشكوى.

ما الحل إذن عندما تنتهى قصة حب؟

الحل يبدأ من محاولة صعود سلم نفسى اسمه "سلم المباراة الرياضية".

نعم، على الإنسان الذى تلقى الهزيمة العاطفية أن ينظر إلى قصة حبه على أنها مباراة رياضية تلقى فيها الهزيمة، وصارت ماضياً، وليدع الماضى للماضى، وعليه أن ينتظر التئام الجرح، ومهما كانت مشاعر الحب عميقة فإن التئام الجرح قادم لا محالة. وبما أن

الشباب يتعرض بسهولة للوقوع فى الحب؛ فعليه أن يتوقع أيضًا أن ينتهى هذا الحب بمفاجأة قد تكون مؤلمة.

والعلاج الوحيد الذى يمكن أن يقدمه الشاب لنفسه هو أن يكون صادقًا مع نفسه ومع من يحب؛ فإن لاحظ أى تغير أو فتور فى مشاعره؛ فعليه أن يعلن ذلك بهدوء مهما كانت النتائج، والنتائج محصورة فى الآتى:

النتيجة الأولى هى الإحساس بالذنب من العاشق الذى تغيرت مشاعره لأنه لم يكن يريد أن يسبب آلامًا لمن يحب، أو إحساسًا بالذنب من العاشقة التى تغيرت مشاعرها ولم تكن تريد أن تسبب آلامًا لمن أحبت.

ومن الطبيعى أن الشاب أو الفتاة عرضة للإصابة بالفزع والضيق والتوتر من المناقشات التى تهدف إلى إحياء مشاعر ماتت.

ولكن ليس معنى الصدق أن يكون الإنسان متوحشًا أو غليظ القلب، بل من الممكن اختيار كلمات هادئة لإعلان الخبر السيئ، وهو موت المشاعر.

ومن الطبيعى أن تستمر المناقشات لفترة، ويحافظ على مثل هذه المناقشات الشخص الذى يتلقى خبر نهاية العلاقة العاطفية. وبما أنه لم يكن يتوقع ذلك فهو يبحث عن أسباب، وقد يكون هذا الشخص قويًا إلى الدرجة التى يعلن فيها ترحيبه بانتهاء هذه العاطفة، وقد يقول الشخص فى مثل هذه الحالة بعضًا من الكلمات المؤلمة أو الاستفزازية.

ولكن فى الغالب يحاول الشخص الذى يشعر بالهجران _ شابًا كان أو فتاة _ أن يحصل على لقاء من أجل الاستفسار، وقد يتوسل من أجل هذا اللقاء، وغالبًا ما يوافق الطرف الآخر على مثل هذا اللقاء حتى لا يظهر بمظهر الهارب. وقد يظن شاب أن محاولة تدليل الفتاة وإغراقها بالكلمات الجميلة هو سبيل لاستعادتها، وقد تحاول الفتاة إذا كانت هى المهجورة أن تدلل الفتى، وهذا ظن خاطئ لأن الحب إذا مات فلا سبيل لاستعادته. وعلى الشاب أن يرفض تكرار اللقاء حتى لا تتحول العلاقة إلى إهانة متبادلة للمشاعر، وعلى الفتاة أن ترفض ذلك أيضًا .

وسيخرج كل طرف رهو يتهم الطرف الآخر بالأنانية والظلم وعدم التقدير وعدم العرفان بالجميل، ويتناسى كل طرف البداية الرومانسية للحب، والتى كانت مليئة بوعود خلابة، وعود تبدأ من أن الإنسان قادر على أن يقوم بفعل أى شيء يسعد به شريك حبه.

ولكن، ما الذى يجعل الحب يموت؟

سؤال حقيقى لكن إجابته صعبة، ومع ذلك سنحاول الإجابة عنه.

إن الشاب عندما يلتقى بالفتاة لأكثر من مرة، فمن الطبيعى أن يكتشف كل منهما خلافات فى الرأى وفى الشخصية وفى أسلوب الحياة، وقد يروض الإنسان نفسه على قبول هذه الاختلافات، وقد يصبح قبول هذه الاختلافات أمرًا صعبًا إن لم يكن مستحيلاً، وتتجمع هذه الاختلافات تحت سطح العلاقة، وقد تزداد عندما يكتشف طرف من الطرف الآخر بعض الصفات المزعجة، ذلك أن الإنسان بعد فترة ما من بدء العلاقة لا يحرص على إظهار محاسنه فقط، وعندما تصل هذه الصفات إلى درجة عالبة من الإزعاج، فإن الطرف الآخر يعلن ضيقه، وتبدأ الخلافات.

والاختلاف غير الخلاف. إن الاختلاف أمر طبيعى ومقبول من الشاب والفتاة معًا ، لكن الخلاف هو انفجار لسلسلة من الإزعاجات المكشوفة، وهذه الخلافات تأخذ شكل المشادات الصغيرة، وهى تعبير أساسى عن الرغبة فى استمرار الحب: إننى أختلف معك فى كذا، وأتشاجر معك فى كذا وكذا من أجل أن تعدل سلوكك.

إن كل حبيبين يعرفان _ بشكل ما _ أن الكمال رحلة ليست قريبة، ولكن لا مانع من محاولة كل منهما تعديل سلوك الآخر، وهناك الملاحظة العفوية التى تكشف لكل طرف الخصائص المزعجة فى الطرف الآخر، ويحاول كل طرف أن يعدل من سلوك الحبيب المزعج، لكن عندما تكون الخصائص المزعجة أكبر بكثير من الخصائص اللطيفة فإن الحب يموت.

وعيون العاشق والعاشقة هى التى تحدد معيار السلوك المزعج أو السلوك الجميل. فإذا كانت العيون العاشقة قادرة على رؤية الجميل فى السلوك الذى يراه الآخرون مزعجًا ؛ فقد تتطور العلاقة إلى زواج، ما دام كل طرف يغض الطرف عن عيوب الآخر، ويعمل فى نفس الوقت على أن يعدل باستمرار من سلوكه المزعج. هنا يشعر كل منهما بقدرته على التأثير الفعال فى سلوك بعضهما البعض.

لكن هناك بعضًا من الناس يستمتعون بأذواق يصعب شرحها أو تبريرها، فقد تعجب فتاة بفتى مغرور يعتبره معظم الناس مزعجًا وسخيفًا، وقد يسعد فتى حساس بفتاة يعتبرها كل من حولها دميمة ومزعجة، والقول العربى المأثور يلخص ذلك، وكلمات ذلك القول هى: "وللناس فيما يعشقون مذاهب".

وأحيانًا يلتفت الإنسان إلى أن من أعطاه كل مشاعره هو إنسان لا يستحق هذه المشاعر. يحدث ذلك دون سبب، والحقيقة أن هناك أسبابًا فعلية لحدوث الإعجاب وأسبابًا فعلية لزوال الإعجاب، ولكنها أسباب، كالتفاعل الكيميائى، لا تظهر بسرعة للعين.

وعندما يأتى الفشل فى الحب فعلى الشاب، أو الفتاة، أن يتذكر الحقيقة البديهية، وهى أن كل إنسان لديه ميل طبيعى لمقاومة الفشل العاطفى. ولذلك فهو قد يضاعف الاهتمام بمن أحب أو يحاول الانتقال بسرعة إلى شخص آخر ليبثه المشاعر الحميمة، ولكن لا بد من أن يقول الإنسان لنفسه فى مثل هذه الحالة: لا تكن أحمق ولا تخدع نفسك. دع الأسى يأخذ صورته الطبيعية لتتخلص من كل الألم الناتج من تلك التجربة.

وعلى الإنسان أن يعلم أن الإحساس بعدم الوثوق فى الحب يستمر لمدة أسابيع ولكنه يزول، ويبدأ الإنسان فى الإحساس من جديد بثقة، واستفادة من التجربة السابقة.

وعندما يبدأ الإنسان فى تجربة عاطفية جديدة فإن هناك عبارة تقال بسرعة وببساطة وهى: "لا يجب أن تكون هناك أسرار نخفيها عن بعضنا البعض". ويبدأ الشاب فى حكاية تجربته الماضية، من وجهة نظره بطبيعة الحال، وهى لا تحمل كل الحقيقة، كما أنها تغفل عن عمد الأخطاء التى ارتكبها شخصياً ، بالإضافة إلى أنه يحكى ليثير _ دون قصد_ غيرة من أمامه، ولذلك فمن اللائق ألا يحاول الإنسان أن يحكى لشريك جديد تفاصيل غير صادقة بالتأكيد عن تجربة سابقة.

والشاب قد يبحث عن التاريخ السابق لفتاته بكل ألوان الأسئلة والاستجوابات، ومثل هذا الشاب لا ينتبه إلى حقيقة أنه إنسان غيور للغاية، وأنه عندما يسمع أى شئ عن ماضى فتاته سيعيش فى دوامة من التعاسة.

وعندما يأتى الحديث عن الزواج، أظن أنه من اللائق أن نعطى بعضًا من الملامح السريعة عن علاقتنا السابقة دون أن نغرق فى التفاصيل، وذلك حتى يمكن أن تنشأ العلاقة الجديدة دون إحساس لدى كل طرف بأن الطرف الآخر يخفى عنه ما يعرفه غيره.

ولكن هناك إنسانًا قد يخجل من أن يقول ولو جزءًا بسيطا من تاريخه الخاص، لا لشىء إلا لأنه يراه مؤلمًا للغاية. حسنًا .. إن الأمر يتعلق هنا بمدى ثقة الطرف الآخر بنفسه، فإذا كان إنسانًا كريم الروح؛ فهو يعرف تمام المعرفة أن كل تجربة فى حياة الإنسان إنما تستفيد منها حياته المستقبلية، أما إذا كان ضعيف القدرة على الثقة بالنفس فإنه سيصنع عذابه بيديه؛ لأنه قد ينهى تجربة عاطفية من الممكن أن تضىء حياته بنور ودفء وتفاعل حميم.

الفصل الخامس عشر:

جذب عيون الآخرين

إذا كنا نرى الساسة فى عصرنا يصبغون صفحات الصحف بتصريحاتهم وصورهم، فلنا أن نلتفت إلى لحظة تصويرهم تليفزيونيا عندما يلتقون معًا. نرى رئيس دولة ما يقابل رئيس دولة أخرى فنلحظ ارتباكًا وخجلاً يستمر لمدة ثوان بسيطة، ومن بعد ذلك يستعيد كل منهما حالته الطبيعية ليمارس دوره المنشود منه.

وفى أعماق كل مراهق إنسان يهفو إلى قيادة العالم كله. إنه يرغب فى معرفة شؤون الحياة جميعًا. وفوق ذلك يتمنى أن يكون وجوده مرغوبًا فيه فى أى مكان يذهب إليه، ويشتاق إلى أن يرى الإعجاب فى عيون الآخرين، وأن يكون سيدًا محترمًا فى كل مجتمع. أما بالنسبة إلى الفتاة فهى تتمنى أن تكون فاتنة وخلابة.

والواقع اليومى يؤكد للمراهق أو المراهقة أن فى فصله الدراسى أو فى مجموعة أصدقائه أشخاصًا لهم جاذبية عالية، سريعى البديهة والنكتة، أناقتهم ملفتة للنظر وكذلك نجاحهم مشرف فى أغلب الأحيان، وقد ينظر إليهم بعض أقرانهم بمرارة وحقد.

ولكن على المراهق _ أو المراهقة _ أن يعرف أن خصائص الآخرين عرضة للتغير. فالفرد الذى بإمكانه أن يدفع جمعًا من الأصدقاء إلى الضحك وعمره خمسة عشر عامًا قد يتحول فيما بعد إلى إنسان يميل إلى الحزن. والفتى الوسيم الرقيق الذى يخلب لب معظم الفتيات، ما يلبث أن يفقد سحره عند الثامنة عشرة. والفتاة التى تبدو كأميرة من أميرات الحيوية والنشاط فى مراهقتها المبكرة، قد تبدو مزعجة بعد ذلك بأعوام.

وقد يقول قائل: "أيعنى ذلك أن كل ما يظهر على السطح فى بدء المراهقة ينقلب إلى القاع من بعد ذلك؟ وهل العكس صحيح"؟

وأقول: لا.. ولكن هناك الكثير من التحولات العنيفة التى تظهر فى المراهقة، وقد تختلف المميزات فى بداية المراهقة عن نهايتها فى بعض الأحيان.

إن شاباً _ أو فتاة _ فى بداية المراهقة قد يحس أنه ملىء بالصفات المتميزة لكنه غير قادر على جذب انتباه شخص من الجنس الآخر. إنه قد لا يعثر على موضوع يتحدث فيه مع شخص من الجنس الآخر، ويكون هذا الشخص قد أثار انتباهه بالفعل وله جاذبية شديدة. وأقول لمثل هذا الشاب أو تلك الفتاة:

- إن من الرائع أن تتذكر أن عاطفتك إذا كانت جادة نحو أى شخص من الجنس الآخر، فإن رسالة إعجابك ستصل إليه بالرغم من عجزك عن التعبير أو التباعد الذى تصنعه الصدف.

إن مشاعرك الصادقة ستصل حتماً إلى مشاعر هذا الإنسان، ولكن بشرط أن تكون هذه المشاعر حقيقية ودائمة. وهذا الشرط الأخير لا يتوفر فى بعض الأحيان فى المراهقة.

وفى الصداقة، يحاول المراهق أن يعثر على نكهته الخاصة، وطابعه المميز وسط مجموعة الأصدقاء. إنه يحاول أن يتميز بالكرم أو سرعة الفهم أو الحيوية أو سرعة البديهة وإطلاق الفكاهة. وغالباً ما تقبل المجموعة الصغيرة من الأصدقاء صفة مميزة لكل واحد فيها، لكن المشكلة هى كيفية إظهار تلك الصفة لفرد من الجنس الآخر.

لكن مع نمو الإنسان فإن فرص الاحتكاك بالآخرين من الجنس الآخر تزداد طبقا لظروف المجتمع الذى يحيا فيه الشاب، وإن لم يكن المجتمع يسمح بذلك فإن السفر إلى المجتمعات الأخرى صار سمة مميزة للعصر الذى نعيش فيه. وشخصية الشاب _ أو الفتاة _ تحاول أن تجد فى نفسها الصفات والمميزات التى تتفاعل من خلالها مع الآخرين، وهذه الصفات والمميزات لا تكون واضحة فى بداية المراهقة، ولكنها تنضج تدريجياً عندما يتعلم الشاب _ أو الفتاة _ كيفية الاستفادة من أفكار الآخرين.

وعلى الشاب _ على سبيل المثال _ أن يتقن كيف يختار الكلمة المؤثرة الراقية التى يعبر بها عن إعجابه بسلوك فتاة ما. وإن لم تكن الكلمة فى مقدوره، فإن النظرة المحترمة فيها من بريق العين ما يكفى، أو أن تكون الابتسامة الرقيقة دليلاً على الإعجاب، وعلى الشاب أن يحذر السلوك الثقيل الذى لا يقبله لشقيقته، وعليه أن يكتسب ثقافة فى موضوع أو هواية يمكنه أن يتحدث فيه لمدة عشر دقائق أو ساعة من الزمان مع شخص آخر. وعلى

أيامنا كان الحوار عن الكتاب الجيد أو الرواية المتميزة هو جسر الحوار بين الجنسين فى الجامعة، وهذه الأيام يأخذ المسلسل التليفزيونى مكان الكتاب أو تحتل قائمة المطربين المعاصرين دائرة الاهتمام الأولى بين الشباب.

ولكن هناك من الشباب من يقول: "ليس عندى أدنى فرصة للحديث مع أى فتاة من الجنس الآخر".

وقد تقول الفتاة: "إننى أخجل من أن أتحدث مع شاب؛ لأن ذلك قد يفسره غيرى على أنه لهو غير برىء".

وأقول إن الأمر يبدو فى بدء المراهقة كأنه مشكلة مؤلمة، ولكن ما إن يتقدم الإنسان فى دراسته وهواياته حتى يكتشف أنه يتقدم أيضاً فى قدراته على الحديث مع شاب أو فتاة، بل قد يصبح الإنسان المتفوق فى الدراسة أو الهواية كأنه زهرة يجذب الجنس الآخر تماماً كما تجذب الزهور النحل.

ولذلك فلا داعى لليأس، ولكن المطلوب دائماً هو أن يحث الإنسان نفسه على التفوق دراسياً وفى المجال الرياضى أو فى الهواية الفنية.

إن الإنسان منا متعدد المواهب، ولابد له أن ينمو فى مجالات متعددة، ومن خلال هذه المجالات سيجد نفسه على البداية الصحيحة للتعرف الراقى على الجنس الآخر، وعند الإنسان منا الكثير ليقدمه من الإبداعات فى المجالات المختلفة، وعندما نتقدم إلى الأمام سنجد أن العلاقات مع الجنس الآخر أصبحت متاحة.

كما أن الشاب _ أو الفتاة _ يجب أن ينتبه إلى حقيقة إنسانية صدقها القليل من البشر وكذبها الكثير منهم، وهى أن التفكير فى مشاعر شخص آخر أكثر من التفكير فى النفس يتيح لهذا الآخر أن يتحدث معك لأنك تفهمه.

وكلما أكثر الإنسان من إعطاء الفرصة لمن أمامه ليتحدث عن نفسه، كان ذلك زاداً إنسانياً جديداً، وصداقة مؤكدة ستأتى على الطريق، واذا سألت الشخص الذى أمامك عن اسمه ومدرسته وهواياته والأشياء التى يحبها ولماذا يحبها؛ فأنت تعطى نفسك فرصة أن تفتح أعماق من أمامك ككتاب مفتوح، وإذا وجدت درجة من التقارب بينك وبين من يتحدث إليك؛ فهذا معناه الاقتراب من بداية التفاهم الحقيقى.

ولكن عليك أن تلاحظ أثناء أسئلتك لمن أمامك درجة الود فى صوتك. إنك لست شرطى مرور تسأل إنساناً ما عن رخصة قيادته وتترصد له، ولست محامياً يسأل متهماً فى النيابة، ولكنك إنسان ودود يرغب فى الصداقة مع غيره، لذلك فعلى لهجتك أن تنم عن الود

والحساسية والصداقة.

كما أنك يجب أن تلاحظ أن أذنك ليست وحدها التى تسمع إجابة من أمامك، وأن مشاعرك هى التى تتفاعل مع الكلمات التى تخرج من شفتيه، وأن عينيك يجب أن يكون تركيزهما بدرجة ما على عينى المتحدث إليك، وكل تعبيرات وجهك هى التى تظهر التفاعل الحى، فعندما يتحدث عن شىء يعتبره ممتعًا فلا بد أن تظهر السرور، وعندما يتحدث عن شىء يغضبه فلا بد أن تتجاوب مشاعرك معه. إن عليك أن تشارك محدثك فى درجة الحماسة التى يتحدث بها.

قد يقول قائل: "ولكن مثل هذا الأمر حدث معى؛ ففوجئت أن محدثى يتكلم فى رياضة الجولف وليس لى سابق معرفة بها أو اهتمام، بل إننى أنظر إلى من يلعبونها على أساس أنهم أناس يختارون لأنفسهم رياضة غريبة، يترفعون بها على غيرهم من البشر".

وأقول لمثل هذا القائل: نعم، ولكن عليك أن تظهر درجة من الأنس والمرونة لتواصل النقاش مع محدثك، ويمكنك أن تعترف بجهلك باللعبة وبالدافع إليها وما هى المباهج التى تعود على لاعبها، وما أنواع التقدم فيها. إن ذلك يجذب إليك المتحدث، وتحوله أنت دون أن تدرى إلى راوٍ جيد للقصص، وترفع من قيمتك كإنسان يملك قدرة رائعة على الاستماع، وإذا كان المتحدث إليك شخصًا من الجنس الآخر فلعلك دون أن تدرى تفتح لنفسك باب قصة حب ناجحة بهذه الدرجة من الاستماع الراقى.

وفى الحضارة الصينية القديمة كان الأب يقول لابنه: "لا تحتقر أبدًا موضوعًا للحديث، فالحديث مهما كان مملاً أو رتيبًا إلا أنه كالطعم الذى تصطاد به السمك".

وقد يقول شاب تعليقًا على مثل هذا الرأى: "إننى بذلك أتحول إلى إنسان يزيف مشاعره".

فأقول: لا.. ولكن إذا كنت تبحث عن طريقة تكون بها معروفًا ومحبوبًا فعليك أن تكون هذا الإنسان الودود المتعاطف. إن عليك أن توارى أنانيتك بعيدًا لمدة ساعة حتى تكتشف فى نفسك درجة عالية من القدرة على تحمل النقاش، وستكتشف فى نفسك مناقشًا بارعًا

.

وقد يقول شاب آخر: "إننى قادر على المشاركة فى أى اهتمام أو أى نشاط لكن الخجل لا يفارقنى، ولا أستطيع أن أعبر عن مشاعرى".

وأقول: إن الطريقة المثالية للقضاء على الخجل هى أن يقضى الإنسان أكبر فترة ممكنة مع مجموعة من الأصدقاء، وأن يحرص على التواجد معهم أثناء الرحلات أو المباريات،

وهذا سيفيدك فى أن تظهر خبراتك، وأن تشترك مع الآخرين فى تجارب، وستعطى نفسك فرصة لتقديرهم. إنك عندما تتواجد بشكل مستمر مع الآخرين فإن ذلك سيدفعهم إلى تقديرك حتماً، كما أنه يتيح لك فرصة التمرس على التفاعل الاجتماعى. وهناك عدد من المراهقين يعبرون عن تطلعهم إلى الشعبية والقبول الاجتماعى بأن يكثروا الكلام والمزاح، وهذا اللون من السلوك إذا ما تمادى فيه الإنسان فهو يظهره كشخص مزعج. وعلى الإنسان أن يتذكر أن الشخص الهادئ هو الأكثر سحراً وجاذبية.

وعلى الشاب أن يتذكر _ وكذلك الفتاة _ ألا ينجرف إلى احتلال أذن من أمامه بالحديث المستفيض عن النفس، وأن الصمت مهم لأنه يعطى من أمامه فرصة ليتكلم.

والفتاة لا بد لها من عدم الاندفاع إلى الحديث إلى شاب خجول، اللهم إلا فى حدود احترام خجله، وبأسلوب مهذب ورقيق؛ فالشاب يهرب حتماً من الفتاة التى تحاول أن تكون خشنة.

وبعض المراهقين يتمادون فى نقد كل شيء، وكل شخص، بل ويسلطون ألسنتهم بحدة، ولهؤلاء أقول: إن هذا التسلط وتلك الحدة سيجعلان من صاحبهما إنساناً مرفوضاً فى النهاية ما لم يعط نفسه الفرصة للاستماع إلى المعارضين له.

إن كل شاب _ وكل فتاة _ بإمكانه أن يتدرب عملياً على أن يكون جذاباً. وهذه براعة موجودة فى أعماق كل إنسان، وهى لا تحتاج إلا إلى قليل من الجهد لاكتشافها.

الفصل السادس عشر:

الأناقة فى العمر الشاب

الهدف الأول للملابس هو الحماية من البرد أو وقاية الإنسان من الحر.

والهدف الثانى بطبيعة الحال هو اتباع "الموضة".

لكن الشباب غالبًا ما ينسون الهدف الأول، وينغمسون فى الهدف الثانى.

لا بأس من هذا الاهتمام بالملابس، وهو أمر موجود فى كل العصور.

وغالبًا ما تقف الفتاة أمام المرآة، وتطلب من فستانها أن يقوم بعملية مهمة جداً، وهى إخفاء عيوب الجسد، ولفت النظر إلى مواطن الجاذبية.

وغالبًا ما يقف الشاب أمام المرآة، ويطلب من ملابسه أن تصنع منه نموذجًا للشاب القوى، إنه يشد كم القميص لينتفخ وكأنه صاحب عضلات، ويشد صدر القميص ليكبر حجم صدره وكأنه مصارع، ويضبط وسط البنطلون ليجعله مشدوداً على ساقيه.

إننا نطلب من ملابسنا أن تصنع لنا جمالاً، ونطلب منها أن تخفى بعضًا من العيوب التى نراها غير جذابة فينا، ونطلب منها أن تضيف لنا إبراز ملامحنا الجذابة.

وعندما نريد إسعاد شخص ما أو جماعة نلتقى بها، فنحن نرتدى ملابس أنيقة. وعندما لا نريد إظهار أى اهتمام بالذين نلتقى بهم فنحن نرتدى ملابسنا بإهمال.

وهكذا يتميز الجنس البشرى بسلوك متميز تجاه الملابس.. إنه يستخدمها للفت الأنظار، ومن أجل ذلك تغيرت موضة الملابس من عصر إلى عصر، ومن زمن إلى آخر، وكان الهدف دائمًا _ ومازال _ هو أن تلتفت عيون الآخرين لترى جسد الشخص مضافة

إليه الصورة التى يجب أن يظهر بها.

وبطبيعة الحال يختلف هذا التصرف تجاه الملابس من سن إلى أخرى.

ومن الغريب أن الإنسان فى طفولته الأولى يحاول أن يعرى نفسه، ولكنه ما إن يبلغ السادسة من العمر حتى يبدأ فى الإصرار على الاحتشام أمام الآخرين، ويخجل من أن يراه الآخرون عاريًا ، ويصر على أن يغلق الباب عند دخول دورة المياه أو أثناء الاستحمام.

ويبدأ الشاب أو الفتاة فى رؤية جسده بالتفصيل ليعرف الفروق بين مرحلة وأخرى من مراحل نموه، ويبدأ فى استخدام الملابس التى تجعله يبدو أكبر سنًا. إنه يحب منذ بلوغه العام العاشر أن يبدو أكبر ولو بعام، ويستخدم الموضة من أجل هذا الهدف.

وما إن يدق الشاب باب المراهقة حتى يبدأ فى محاولة إظهار حيويته ورجولته.

وما إن تكبر الفتاة لتصل إلى مراهقتها حتى تتحول عيناها إلى رادار حساس يكتشف كل جديد فى عالم الأزياء، وتحاول أن ترتدى هذا الجديد بما يتحدى فى أقل القليل تقاليد المجتمع الذى تعيش فيه. إنها تحاول بشكل أو بآخر أن تلفت نظر الأم إلى أنها قد نضجت، وفى نفس الوقت تلفت نظر الفتيان إلى أن هناك امرأة جميلة قد جاءت إلى هذا العالم، ويجب الانتباه إلى ذلك الحدث الضخم من وجهة نظرها الشخصية.

وتتغير الموضة من زمن إلى زمن، فعند اختراع موضة "المينى جوب"، تبارت الفتيات فى تقصير الفساتين إلى ما فوق الركبة، وصحب ذلك أيضًا موضة إظهار الكتفين دون أى غطاء. حدث ذلك فى باريس وانتقل إلى روما ثم إنجلترا ثم دول الشمال ثم أمريكا، وحتى فى منطقة الشرق الأوسط ببلدانها كافة.

أما فى بعض البلدان التى تتميز بارتداء الفتاة غطاء عام للجسم، فاستمرت الفتيات فى ارتداء اللباس القومى، ولكن تحت هذا الزى القومى كانت هناك موضة "المينى جوب".

وبطبيعة الحال كانت هذه الموضة تحمل صدمة.

وانتشر ظن خاطئ استنادًا إلى اعترافات الشباب والفتيات فى أوروبا الغربية وأمريكا، وهم الذين عاشوا فى فترة التمرد على كل أنماط الحياة بعد الحرب العالمية، ومارسوا نوعًا من التحدى العام للمجتمع؛ فعاشوا فى معسكرات للعراة مثلا. فقد اعترف شبابهم أن رؤيتهم للنساء العاريات لا تسبب أية إثارة - اللهم إلا بنسبة قليلة جدًا - مادام العرى صبغة عامة للحياة فى هذه المعسكرات.

وفى اعترافات أعداد من الرجال الذين يديرون عروضًا للفتيات العاريات فى باريس

ولندن ونيويورك، يقول أحد مصممى هذه العروض: "إن أى فتاة تقوم بمثل هذا العرض لا بد أن يتم تدريبها، ذلك أنه لا يمكن إثارة الجمهور الذى يحضر مثل هذه العروض لمجرد أن تظهر الفتاة عارية على المسرح، لكن الجمهور يحب أن يرى عملية التدرج فى كشف الجسد.

إن المشاهد يعيش هنا إثارة التوقع لما يحدث، لذلك فعلى الفتاة التى تقوم بمثل هذا العرض أن تمثل التردد، وأن تترك الملابس تقع منها، ثم تشدها مرة أخرى على جسدها بأسرع مما ترى عين المشاهد. كل ذلك من أجل أن يقتنع المشاهد أنه يرى مشهداً أقرب إلى الواقع".

وهكذا نرى أن العرى ليس مثيراً فى حد ذاته، هذا ما أذكره دائماً لأى فتاة تحاول أن تبرز جمالها بتقليص مساحة ملابسها.

ومثل العرى تماماً محاولة الفتاة اصطناع الجرأة عندما تظن أن "المساواة" تقتضى أن تغازل هى الرجل وتقتحمه بخشونة. إن هذه الخشونة تجعل الشاب أقل سعادة؛ لأن القاعدة الطبيعية هى أن يكون الفتى هو الداعى للفتاة. إن إظهار الفتاة لعدم التأكد فى ميلها إليه وتساؤلها هل ستسمح له بأن يتقدم إليها عاطفياً أم لا، هو السلوك الذى يثير الفتى ويدفعه إلى مواصلة التقرب إلى الفتاة.

ولكل ما تقدم يمكن للفتاة أن تعرف أن الاحتشام أكثر فاعلية فى جذب الاهتمام من الملابس العارية. ولست أغالى عندما أقول إن ٩٥٪ من الفتيات على شاطئ البحر صيفاً هن أكثر جمالاً عندما يرتدين كامل الملابس، وقد يكون ما أعبر عنه الآن فيه تحيز ضد العرى وأنا لا أخفى ذلك.

والمرأة على أية حال أكثر اهتماماً من الرجل بالتصميمات الحديثة للملابس وما الذى يتغير فيها، وهل طالت قبة الفستان أم قصرت، وهل اتسعت الفساتين أم ضاقت.

والأجيال الجديدة فى الأمم الغربية تعيش منذ عام ١٩٦٨ وحتى الآن ما يسمى "ثورة الشباب"، وهى ثورة متعددة الأوجه، أعطت لنفسها أكثر من أسلوب للتمرد على الواقع الاجتماعى الذى تعيشه أوروبا. فقد أعطت تلك الثورة لنفسها أسلوباً فى العلاقات بين الشباب والفتيات، هو الفوضى الكاملة فى إقامة العلاقات الجسدية، وأعطت لنفسها أسلوباً فى السلوك الاجتماعى يرفض المنافسة والتفوق الدراسى، ويكتفى بالقليل من المال الذى يكفى الحياة. وكان من نتيجة ذلك ازدياد كبير فى أعداد المرضى النفسيين؛ لأن الإنسان دون تنافس على العلم، ودون رغبة فى تقدم الحياة، ودون حرص على بناء حياة

شخصية متوافقة مع المجتمع ومطورة للمجتمع، يصاب بأعراض من الخمول والاكتئاب، وغير ذلك من الأمراض.

لقد وجه هذا الجيل النقد الحاد للأجيال السابقة، لكنه لم يستفد من بيت شعر من قصيدة روسية يقول فيها الشاعر: "إذا أطلقت الرصاص على كل الماضى فتوقع أن يطلق المستقبل المدافع على واقعك"، وهذا ما حدث بالفعل.. لقد أطلقت الأجيال الرصاص على الماضى فامتلأ الحاضر بالألم. وليس معنى ذلك أننى أدعو إلى تقديس الماضى، ولكنى أدعو إلى تقييم الماضى مع العمل لبناء المستقبل.

وانعكست ثورة الشباب أيضًا على الملابس حين مارسوا التمرد على الأزياء، وصار الشباب يفضلون الملابس البسيطة والمظهر غير المهندم.

ولكن هذه الثورة كان لها وجه إيجابى يجب احترامه، وهو صرخة الجيل الجديد لحماية البيئة، وقدرة الجيل الجديد على إنكار الذات، والبدء فى تطوير تعلمه الشخصى لأدوات الحياة المعاصرة، مثل تعلم استخدام الكومبيوتر، ومحاولة اكتساب أسلوب العمل كفريق، وإبداء الشجاعة فى المواقف الحاسمة. لقد بدأت المثالية تستيقظ من سباتها الذى بدأ بعد الحرب العالمية الثانية.

ولى كثير من الأمل فى أن تجد الأجيال الشابة طرقًا بناءة للتعبير عن التعاون الشجاع لمواجهة متاعب العصر.

وفى الوقت نفسه لى كثير من الأمل فى أن يتجه الجيل الجديد إلى العناية بملابسه، ولا أقصد بذلك الرضوخ لموضة ما، ولكن ليغادر هذا الجيل تلك الفوضى المقصودة، وهذا الإهمال لتنظيف الملابس. إننى أدعو الجيل الجديد إلى أن ينفضّ عن أسلوب استخدام الملابس دون غسلها، وأدعوه إلى العناية بالنظافة الشخصية التى يسبب إهمالها الكثير من المتاعب الصحية.

إننى أؤمن أن الأناقة تكمن فى النظافة، ولا أقبل من يقول إننا نحافظ على نظافة الروح ولا نحافظ على نظافة الجسد والملبس، لأننى أؤمن أن نظافة الروح أمر مطلوب بإلحاح وكذلك نظافة الجسد والملبس.

الفصل السابع عشر:

الحب الحقيقى والحب الزائف

لا أحد يستطيع أن يضع قائمة محددة لأنواع الحب المختلفة، فهناك الحب الخيالى وهناك الحب الجنسى، وهناك الحب الرومانسى، وهناك "الشذوذ" الذى يطلق على نفسه اسم الحب أيضًا ، وكل ذلك يأخذ اسمًا متعارفًا عليه هو "الحب".

لكن ما الذى يميز الحب الحقيقى عن الحب الزائف؟

ما الذى يجدر بنا أن نفعله لنتبين حقيقة مشاعرنا؟

إن رحلة الحب فى حياة الإنسان تبدأ من الطفولة؛ حيث يرتبط الطفل بأمه بعمق ويعتمد عليها فى كل احتياجاته، ويصاب بالقلق إذا غابت عنه، ويبتهج عندما تعود. إنه حب اعتمادى إلى أبعد الحدود.

وما إن يصل الطفل إلى الثالثة حتى يبدأ فى حب من نوع جديد، حب الصحبة لبعض الأطفال من الذين فى مثل عمره. ويتجه الطفل بمشاعره نحو أبيه ليبدأ الإعجاب العميق به. ويتطور هذا الإعجاب إلى حب شديد التوهج نحو الأم إذا كان الطفل ذكرًا ، أو ناحية الأب إذا كان الطفل أنثى.

ويكبر الطفل ليصل إلى السادسة فيبدأ فى حب مجموعة أصدقاء له من نفس عمره لأنه يجد فيهم المرح والتسلية، وقد تجمع شلة الأصدقاء هواية مشتركة، ويزيد على كل ذلك أن كلا منهم يقبل الآخر ويحبه.

ومن بعد ذلك يصل الطفل إلى بدء المراهقة بالبلوغ، خلال مرحلة المراهقة يطل الحب الشهوانى، وفى الوقت نفسه يطل حب آخر هو الحب الخيالى الرومانسى، ثم يمتزجان فى عاطفة واحدة رغم اختلاف كل منهما.

فالحب الشهوانى خشن وجسدى، والحب الرومانسى كريم وحنون ومثالى، ومن الاثنين يأتى إلينا هذا المزيج المدهش الذى نبنى به الحياة الأسرية.

وهناك إحساس كل منا بحب نفسه، وكل منا يفكر فى نفسه بدرجة أو بأخرى، وكل منا يرغب فى أن ينال إعجاب الآخرين وتقديرهم، وكل منا يتحدث عن نفسه وإنجازاته كلما سنحت له الفرصة، أو استطاع أن يعثر على مستمع جيد.

وقليل منا هو القادر على أن يخفى حبه لنفسه خلف ستار من خدمة الآخرين فيحبونه ويغدقون عليه الاحترام، ونحن نميز بإحساسنا كل يوم بين هؤلاء القادرين على منح الحب لمن حولهم، وأولئك الذين يفضلون الاستمتاع فقط بحب الآخرين دون منحهم أى حب.

وفى رحلة بناء كل منا لحياته نفاجأ فى فترة من الفترات بفقدان القدرة على تمييز مشاعرنا. واذا فتش كل منا فى ذكرياته فسيجد صوراً متعددة لما أقول.

ولأضرب بعضاً من الأمثلة التى رأيتها:

كانت "أسماء" ذات الأربعة والعشرين عاماً تتيه بجمالها. إنها تعرف قدر حيويتها وترى اتساع عيون الشباب إعجاباً بها، وتشعر بالمزيد من التغنى بأنوثتها عندما تسمع كلماتهم عن حبهم لها. ويحاول أحدهم أن يكسب منها وعداً بأن يتقدم إليها لخطبتها، لكنها تسوف وتؤكد أنها غير واثقة من عواطفها نحوه.

ولما كان لها أخت تصغرها اسمها "زينب"، ولما كانت "زينب" تعرف أن جمالها مقبول، وأن مرحها لا يقلب الهزل إلى جد، ولا يقبل أن يتحول الجد إلى هزل. ولما كان سلوك "زينب" مثار إعجاب أساتذتها وزملائها وزميلاتها فى الكلية، ولما كانت عيناها ترقبان معيداً بكليتها يحاول أن يتقرب منها، لكل ذلك عندما طلب المعيد أن يتقدم لخطبتها وافقت على الفور، وأقيم احتفال الخطوبة بعد أسبوع واحد من مفاتحة المعيد "لزينب"، وكان أهل "زينب" فى غاية الفرح.

ولكن كانت هناك واحدة فقط من الحاضرات لهذا الاحتفال تعيش حالة من الوجوم. إنها "أسماء" ذات الأربعة والعشرين ربيعاً . لقد اكتشفت أسماء أنها هى التى كانت تستحق هذا الاحتفال وكانت تستحق أن تجلس فى صدر هذا الحفل هى والشاب الذى أعلن عن حبه لها. إنها تكتشف فى هذه اللحظة أنها تحبه بعنف، وأنها تشتاق إليه، وأنه

لم يكن يستحق منها هذا الأسلوب من التردد. إنها لم تكن تعى حبها له.

وهكذا نرى أن الحب يمكن أن يختفى تحت سحابة من التردد. يحدث ذلك للفتيات ويحدث أيضاً للشباب.

وأورد مثالاً آخر على هذا، هو الرجل الذى اشتهر بقدرته على جعل أى فتاة تنبهر به. إنه ينتقل من قصة حب إلى قصة حب، ويسمع المجتمع أنين ضحاياه، ولكنه يتزوج أخيراً بفتاة دميمة ولكنها ثرية. لقد قرر الزواج ليطمئن ماديًا، ثم يفاجأ بعد الزواج بأن عروسه أبخل من البخل؛ فيعود إلى محاولة اجتذاب الفتيات فتحاول زوجته استرضاءه بالهدايا، ويعيشان لعبة القط والفأر على هذا المنوال.

وأورد مثالاً ثالثًا لفتاة من أسرة متميزة الثراء، تختار لنفسها قرينًا بلا أية مميزات تقريبًا سوى أنه وديع فى علاقته بها. إنها تحتاج إلى الهدوء النفسى والاطمئنان الذى يوفره لها هذا الزوج المطيع. لكنها تلتقى ذات مساء بشاب آخر متوهج الحيوية، فتندفع لتطلب الطلاق من زوجها. لقد وجدت الجذاب الذى يمكن أن يشعل شموع عواطفها، وتنفصل عن الزوج بالطلاق لتعيش فى قصة زواج جديد مع كائن يجعل حياتها تسير فوق سطح ساخن من نيران الغيرة.

والمثال الرابع لشاب فى الخامسة والعشرين من عمره، يسمع عن أرملة ثرية فى الخامسة والأربعين، وظروف حياته المادية صعبة؛ فيقرر أن يفعل المستحيل حتى ينال إعجابها، ويفتعل الظروف حتى يلقاها، وما إن يلقاها حتى يقع فى غرامها بالفعل، ويكتشف أن ثراءها هو آخر مسألة تعجبه فيها، وإنه مندهش بحنانها الفياض.

ونحن نلتقى جميعًا كل يوم بشاب يتحدث عن ليونة فتاة معينة ودلالها، وكيف تختار هذه الفتاة من الملابس ما يبرز الأنوثة، ويبقى خيال الشاب مشتعلاً إلى أن يتزوجها ليفاجأ بأن كل ما تخيله منها هو مجرد وهم، وأن تلويحها بمفاتنها كان مجرد تصرف لا شعورى لاصطياد الرجال وإيقاعهم فى غرامها، فى حين أنها لا تملك أدنى قدرة على التفاعل العاطفى.

والمثال الخامس لفتاة مليئة بالجاذبية، ولكنها تمتلئ بالمعارضة لكل آراء والدها ووالدتها، ويفاجأ الجميع بالخبر، خبر وقوعها فى حب رجل يمثل نقطة المعارضة لكل ما تمثله أسرتها. وهذا لا يعنى أنها تحبه فعلاً لميزاته الجذابة، ولكن أحد الأسباب القوية لتمسكها به هو رغبتها فى معاندة الأهل.

والمثال السادس نراه فى المجتمعات التى يسودها التعصب. فإننا نجد الأيرلندية

الكاثوليكية التى يموت إخوتها من أجل النضال ضد إنجلترا، تقع فى حب باحث بروتستانتى تابع للكنيسة الإنجليزية. أو نجد فتاة بيضاء فى جنوب أفريقيا تهرب إلى كندا لتتزوج بأحد أبناء حركة النضال ضد التفرقة العنصرية وهو أسود. وآه من نظرة الأهل لمثل هذه الفتاة، إنها نظرة تحمل من القيود ما يفوق التصور.

إنى أقول دائمًا: إن استخدام الزواج فى إظهار عدم التعصب أو فى محاربته هو مسألة تثير التعاسة، لأن ذلك هو محاولة لتحريك صخرة كبيرة بواسطة عصا رفيعة، وهذا أمر صعب كما نعلم جميعًا ، لأن الصخرة لن تتحرك، ولكن العصا هى التى تنكسر.

ومثال ذلك هو الزواج بين أفراد من ديانات مختلفة: إنه يشبه الارتجاج فى العقل الثقافى لهذه الأسرة.

وإذا ما نشأ حب بين فتى وفتاة من أصول دينية مختلفة، كزواج المسلم من مسيحية فى المجتمع المسلم أو زواج المسيحى من يهودية فى المجتمع المسيحى، فإن الخطوبة الطويلة هى التى تتيح للاثنين فرصة اكتشاف مدى اختلاف كل منهما عن الآخر، ويمكن لقصة الحب أن تأخذ نهايتها المحتومة وهى الفشل قبل البدء فى الزواج.

ولست أقصد أن كل زواج يتم ضد العرف الاجتماعى السائد لا بد له من الفشل، ولكنى أذكر أنه يمتلئ بالصعوبات النفسية الجمة. إنه كما قلت تحريك لصخرة كبيرة بواسطة عصا رفيعة، فتنكسر العصا وتستحق الصخرة من يحاول تحريكها بهذه الوسيلة الساذجة.

وفى بعض العائلات نجد الابن ينظر لوالديه نظرة الامتعاض وعدم الارتياح، إنه لم يكن يتمنى أن يكون والده هذا الإنسان أو أن تكون والدته هذه الإنسانة. إن والديه غير مناسبين له فى نظره، ولذلك نجد الفتى يتجه إلى الفتيات غير المناسبات. إن الفتاة التى تثير إعجاب مثل هذا الشاب هى من النوع الذى يغضب أهله.

ويحدث مثل ذلك أيضًا لدى بعض الفتيات. فقد تختار الفتاة لصداقتها شابًا لا يمكن أن يرضى عنه أهلها، وفى غالبية الأحيان يتغير هذا الوضع وتسقط المشاعر فى بئر بعيد وفى قاع الذكريات وتنتهى هذه القصص، لكن فى أحيان أخرى، ولسوء حظ بعض الشباب والبنات، فإن الواحد منهم _ أو الواحدة منهن _ يستمر فى مثل هذه العلاقة.

وقد يتساءل قارئ عن المقصود بفتاة سيئة أو شاب سيئ.

ونجيب عن هذا السؤال بمنتهى الصراحة فنقول إن المقصود بذلك هو شاب بلا جهاز قيم يدير به حياته ويتعامل به مع الآخرين، فنراه يكذب ولا يتورع عن السرقة، ولا عن

الانغماس فى الملذات دون أى وازع أخلاقى. وكذلك نقصد بالفتاة السيئة الفتاة التى تعيش بلا جهاز قيم تدير به حياتها وتتعامل به مع مجتمعها، فنراها تكذب ولا تتورع عن السرقة أو الانغماس فى الملذات دون تقدير لأى ارتباط لها.

ونجد أن الشاب الذى تميز سلوكه الأسرى بالانضباط الشديد المبالغ فيه وعاملته أسرته بدرجة من المحافظة المبالغ فيها، ورسخ فى ذهنه أن الجنس شيء قذر، قد لا يختار إلا فتاة سيئة السمعة، ويبتعد دائمًا عن أية فتاة تتشابه أخلاقيًا واجتماعيًا مع أمه أو أخواته.

ونفس الأمر يحدث بالنسبة للفتاة التى تنشأ فى وسط متزمت، ينظر إلى الجنس على أساس أنه شيء وضيع، يحط من قدر الإنسان؛ فهى قد تخطئ وتختار لنفسها شابًا من الذين يفتقدون القدرة على احترام أنفسهم؛ لأنها لا تشعر بأية استجابة جنسية للرجال الذين تكن لهم الاحترام أو الحنان.

وهناك ملاحظة يجب أن نلفت النظر إليها، وهى أن حب الجنس أكثر إلحاحًا عند الرجل، وهو قلما يغلفه بالحنان الرومانسى، اللهم إلا إذا بلغ درجة عالية من التحضر. أما المرأة فإن الجانب الروحى عندها يرتفع بدرجات عن الجانب الجنسى، لذلك قد تصدم الفتاة التى نشأت وسط رعاية أسرية طيبة من سلوك الرجل القاسى أو الخشن عند الزفاف.

وأحب أن أهمس فى إذن الشاب بالكلمات التالية: إذا ما اتيحت لك الفرصة للتعرف على فتاة، لا تقتحم عالمها بخشونة، بل حاول أن يجمع بينكما حديث ودود وطيب؛ لأن الهجوم بخشونة يدل على عدم ثقتك بنفسك، ويؤكد لمن أمامك أنك قاس ولا تفكر إلا بأنانية.

وأحب أن أهمس فى أذن الفتاة بالكلمات التالية: قد يحدث أحيانًا أن يمتلئ قلبك إعجابا بحديث رجل فى عمر والدك، وقد يفسر هو هذا الإعجاب على نحو خاطئ؛ فيظن أنك فى حالة وجد عاطفى، فيفقد توازنه النفسى، ويندفع إلى محاولة التقرب العاطفى والجسدى منك. ودورك هنا أن توضحى بسرعة أنك لا تشعرين بمثل ما يشعر به، ويجب عليه أن يتوقف فوراً عن إهانة نفسه بمثل ما يفعل. وغالبًا ما يحترم مثل هذا الرجل نفسه، ويعود إلى صوابه، ويخاف من أن يشاع عنه ذلك فى المجتمع. وعليك فى مثل هذا الموقف ألا تكونى نصف مترددة؛ لأن التردد سيجعل مثل هذا الرجل يستمر فيما يظنه، واهمًا ، حالة عاطفية.

ولا بد لنا من أن نتناول ما تفعله القسوة فى الطفولة المبكرة بالشاب أو الفتاة. إن القسوة فى طفولة الولد تذكره دائمًا أن والدته لم تكن تحبه، وأن والده كان يراه إنسانًا غير مرغوب فيه. وما إن يصل إلى البلوغ حتى يبدأ فى رحلات البحث عن عاطفة يحقق بها لنفسه درجة ما من الاطمئنان.

ويكون مثل هذا الشاب متدفقًا عاطفيًا إلى الدرجة التى يمكن أن تصدقه أى فتاة. وما إن تقع فتاة فى حبه حتى يبدأ على الفور فى هجرها. إن حبها بالنسبة له عديم الفائدة وبلا قلب، وسرعان ما يتجه إلى فتاة أخرى، وهكذا.

ومثل هذا الشاب يسميه بعض العلماء "جامع جلود الرأس" نسبة إلى المقاتل الشرس الذى يقطع رأس عدوه فى القتال. إنه أنانى جدًا ، وغير ناضج.

والفتاة أيضًا إذا ما مرت فى طفولتها بمثل هذه القسوة التى شرحتها من قبل يمكن أن تتحول إلى "جامعة رؤوس" لا تهتم بمن يقع فى غرامها، ولكن تهتم فقط بمن لم يقع.

قد يتساءل أحدنا عن الغيرة فى الحب؟

فأقول إن بعض الناس يفضلون الإحساس بأنهم يملكون من يحبون، أو بأن من يحبهم يملكهم. وبعض الناس يناضلون ليصبحوا أحرارًا، ويكرهون هذه الغيرة لأنها قيد.

وأما الذين يفضلون الإحساس بأن هناك من يمتلكهم؛ فهم يتجهون دون قصد إلى إثارة غيرة من يحبهم، وهذا جزء من إحساسهم بالسعادة فى الحب.

والغيور إنسان جاء إلى العالم من أب أنانى أو أم أنانية، وتعلم دون وعى أن يرى والده فى حالة ثورة من أى شىء يمس ممتلكاته. ويمارس الشاب مثل هذه الغيرة عندما يصل إلى الحب. وغالبًا ما يتزوج مثل هذا الإنسان من فتاة قادرة على إثارة غيرته. وهكذا تظل عجلة الغيرة الاستفزازية مستمرة فى هذا العالم.

الفصل الثامن عشر:

رحلة فى أعماق البلوغ الجنسى

كل منا يعرف تماماً تفاصيل اللحظة التى وصل فيها إلى البلوغ.

الشاب يعرف بذاكرته هذا الاضطراب المليء بالحيرة والسرور فى آنٍ واحد عندما اكتشف أنه تحول من الطفولة إلى بدء الرجولة.

لكن النضج الجنسى لا يعنى النضج الكامل، فما زال الشاب بعيداً عن الاستقلال الاجتماعى والاقتصادى، وفوق ذلك فهو بعيد عن النضج العاطفى.

والأمر قد يختلف عند الفتاة. فأول دورة حيض تمثل عندها تحولاً دراميًا، ولا يكون بلوغ الفتاة إيذانًا بوصولها إلى قدرة الحمل. ولا تمثل أول دورة شهرية فى حياة الفتاة النمو الجنسى الكامل؛ لأن النمو الجنسى يسير فى رحلة تستمر لسنوات قبل الدورة الشهرية الأولى، ولمدة عام بعدها حتى تصبح قادرة على الحمل.

وكل من الشاب والفتاة يأخذ طريقه إلى النضج العاطفى والجسدى، ويحيا وسط مشاعر مضطربة، ولمدة سنوات بعد لحظة البلوغ.

لكن ماذا عن الفترة السابقة على لحظة البلوغ؟

إن هناك فترة تمتد لعامين من عمر كل من الشاب والفتاة يتم التمهيد فيها للنضج. والفتى يمر بهذه الفترة غالبًا بين سن الثانية عشرة والرابعة عشرة، والفتاة تمر بنفس تلك الفترة غالبًا بين سن العاشرة والثالثة عشرة.

فالفتاة قبل العاشرة كانت تزداد طولاً كل عام بمقدار أربعة سنتيمترات، ولكنها بعد

العاشرة تزداد طولاً بمقدار ثمانية سنتيمترات، ووزنها قبل العاشرة كان يزيد بمقدار كيلو جرام ونصف كل عام، أما بعد العاشرة فوزنها يزيد بمقدار سبعة كيلوجرامات سنوياً. والصدر يبدأ فى النمو، وقد تلاحظ الفتاة تلك الملاحظة الدقيقة للغاية وهى أن أحد ثدييها يبدأ فى النمو قبل الآخر.

كما يبدأ شعر العانة فى النمو وكذلك شعر الإبط، وبعد عامين من النمو السريع تكتسب الفتاة الشكل الأنثوى الكامل؛ فالوسط يصبح خصراً، والصدر يكتمل، ويستدير الفخذان، ويستمر الجسد فى الاكتمال الأنثوى لعدة سنوات بعد الرابعة عشرة.

أما الفتى فمتوسط نموه بعد الثانية عشرة يزيد من سبعة سنتيمترات إلى عشرة سنتيمترات سنوياً، ووزنه يزداد بنسبة تتراوح بين سبعة كيلوجرامات وعشرة كيلوجرامات فى السنة، ويكبر القضيب والخصيتان، وينمو شعر العانة والإبط، ويتغير الصوت، وفى نهاية العام الرابع عشر يكتسب الشكل الرجولى الكامل، ويستمر النمو بأسلوب أبطأ من قبل لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام من بعد ذلك.

ويختلف تأثير سنوات ما قبل البلوغ من مجتمع إلى آخر، وأحياناً يختلف من أسرة إلى أخرى، فعلى الرغم من أن غالبية الفتيات يبدأن رحلة الاستعداد للبلوغ فى العاشرة من العمر، إلا أن هناك عدداً قليلاً منهن يبدأن تلك الرحلة فى التاسعة من العمر، وعدداً أقل من القليل يبدأن الرحلة فى الثامنة من العمر، وعدداً أقل من ذلك يبدأن تلك الرحلة فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة؛ فلا يتم البلوغ إلا فى الخامسة عشرة. والملاحظة لرحلة الاستعداد للبلوغ أكدت أن الأكثر طولاً، من الأولاد والبنات، يبدأون تلك الرحلة مبكراً، وأن الأقصر طولاً يتأخرون قليلاً.

وأنماط البلوغ المبكر أو المتأخر تختلف _ كما قلت _ من عائلة إلى أخرى أو من مجتمع إلى آخر، ونادراً ما يكون ذلك بسبب شىء غير طبيعى، ولكن قلق تلك المرحلة يظهر بوضوح لأن أغلب الشباب يكره أن يكون مختلفاً عن الأصدقاء والزملاء، فمن الجارح لفتاة فى الثامنة أن تظهر فى المدرسة وقد برز صدرها قليلاً أو طالت قامتها بسرعة، خصوصاً إذا لم تكن تدرك سعادة أن تكبر الفتاة وتصل إلى النضج، وهى لا تدرك ذلك بطبيعة الحال لصغر سنها.

وقد يختلف الأمر بالنسبة لفتاة كانت تتطلع للنمو والنضج بسرعة. وقد يزيد طول الفتاة فى تلك المرحلة بسرعة، الأمر الذى يضاعف قلقها من أن تكون أطول قامة من كل زميلاتها.

أما إذا تأخر بلوغ الفتاة لفترة، وكانت أقصر من أى زميلة لها فى المدرسة، فهى تغرق فى القلق؛ لأنها تخشى أن تظل طفلة إلى الأبد، وهذا الخوف ضرب من الوهم فى غالبية الحالات، لأنها ستنضج من بعد ذلك، وتصل إلى الحجم المناسب لطبيعتها.

والفتى قد يتعرض أيضاً للقلق نتيجة الطول المبكر عن كل زملائه، أو عندما يتأخر بلوغه إلى الخامسة عشرة. إنه يخطئ الظن فيتوهم أن سيغدو قزماً، رغم أن ذلك لا يحدث له، وسرعان ما ينمو. إنه خائف من أن يصير ضعيفاً وغير قوى. لكن ممارسة الرياضة بانتظام تتيح للجسم الشاب أن ينمو باتساق.

والإنسان ـ رجلاً أو امرأة ـ يحتاج إلى بعض المعلومات البسيطة عن الشكل التشريحى للأعضاء التناسلية.

والأجهزة التناسلية تنقسم إلى قسمين: قسم خارجى يمكن رؤيته، وقسم داخلى يوجد داخل الجسم.

والجهاز الخارجى فى الفتى هو القضيب، ومن خلفه كيس الخصيتين، والقضيب يحتوى على قناة واحدة بالداخل يمر من خلالها البول عند تفريغ المثانة، ويمر فيها أيضاً السائل المنوى الذى يحتوى على الحيوانات المنوية أثناء عناق الحب المكتمل أو بعد بلوغ الإثارة الجنسية تماماً.

وطول القضيب يتراوح بين سنتيمترين وخمسة سنتيمترات فى الطفولة، ويتطور بعد ذلك ليصبح طوله من ثمانية سنتيمترات إلى أحد عشر سنتيمتراً. وعندما يولد الطفل يكون رأس القضيب مغطى بغلاف جلدى، هذا الغلاف يتم قطعة بعملية الختان، وهى عملية مرغوبة بالنسبة للرجل سواء فى الديانة اليهودية أو الإسلامية، وغالبية المسيحيين فى أوروبا يقومون اليوم بهذه العملية رغبة فى الحفاظ على النظافة، خصوصاً وأن هذا الغلاف يفرز مادة غير نظيفة، وذات رائحة كريهة.

والقضيب مكون من أنسجة شبه إسفنجية تمتلئ بالدماء أثناء الإثارة؛ حيث يتضخم القضيب فى مثل هذه الحالة، وينتصب مثل بالونة مطاطة مليئة بالهواء المضغوط، وغالباً ما يعود القضيب إلى وضعه العادي بعد القذف.

والخصيتان هما جزآن كل منهما على شكل زيتونة، وتوجدان داخل كيس الخصيتين ويسمى الصفن، وهو جراب جلدى مجعد ومغضن. وتصنع الخصيتان الحيوانات المنوية، وعندما يحدث الجماع فغالباً ما يتحد الحيوان المنوى مع البويضة التى يفرزها مبيض المرأة ليبدأ الاثنان فى مثل هذه الحالة بتكوين الجنين.

والخصية تتكون من أنابيب دقيقة طويلة ملفوفة حول نفسها مثل كرة الخيط، وهى تنتج الحيوانات المنوية منذ المراهقة وحتى عمر متقدم جداً، وعندما تنتج الخصيتان حيوانات منوية؛ فهى تدخرها فى حويصلات موجودة داخل الجسم، والحويصلات تحفظ الحيوانات المنوية فى سائل لبنى له رائحة مميزة، وعند الاستثارة الجنسية الكاملة أو أثناء الجماع فإن السائل المنوى ينزل على صورة دفعات متعددة نتيجة انقباضات لا إرادية، ينتج عنها إحساس بالمتعة الشديدة. وحول القضيب يوجد شعر العانة، وكذلك ينمو الشعر فوق الصفن.

أما العضو التناسلى عند الفتاة فيشتمل على البظر، وهو مكون من بعض الأنسجة الحساسة التى تنتصب أثناء الإثارة، وهو موجود فوق الشفرين الصغيرين اللذين يحيطان بالمهبل وفوقهما الشفران الكبيران. وكل من الشفرين الكبيرين والصغيرين يحيطان بفتحة المهبل ويكادان يغطيانه. أما فتحة المهبل التى تؤدى إلى الرحم؛ فهى مكونة من أنسجة مطاطة، وفى فتحة المهبل يوجد غشاء البكارة، وهو طبقة من الجلد الحساس التى يختلف سمكها وشكلها من فتاة إلى أخرى، وهذا الغشاء يتمزق قبل أن يستطيع القضيب دخول المهبل للمرة الأولى، ولهذا يقولون إن الفتاة فقدت عذريتها نسبة إلى المرة الأولى التى تمارس فيها الفتاة التواصل الجسدى مع الرجل.

ويقود المهبل إلى الرحم، والرحم هو العضو المصمم لاحتواء الجنين أثناء الحمل، وفى حالة عدم الحمل يكون الرحم فى صغر ثمرة الكمثرى، وبطبيعة الحال يتصل عنق الرحم بالمهبل. وعند التواصل الجسدى بين الرجل والمرأة، فإن الحيوانات المنوية تدخل من عنق الرحم، فإذا كانت الفتاة قد أفرزت بويضة من المبيضين؛ فإن حيوانًا منويًا يتحد مع البويضة ويبدأ تكوين الجنين، وهنا يتفتح الرحم تدريجياً ليسمح برحلة نمو الجنين التى تستمر حوالى أربعين أسبوعاً. وأثناء الولادة ينقبض الرحم ليسمح للجنين المكتمل بالخروج إلى الدنيا.

ويتصل الرحم من الجانبين العلويين بأنبوبتين رقيقتين تمتدان إلى المبيضين، وتتصل كل أنبوبة بمبيض، وكل من الأنبوبتين تسمى بقناة فالوب نسبة إلى من اكتشفها تشريحياً، والمبيض فى حجم الزيتونة، وكل مبيض يفرز بويضة كل شهرين، أى أن المبيضين يتبادلان تلك المهمة، وبذلك يكون الناتج شهرياً هو بويضة واحدة، تفرز ما بين اليوم الثانى عشر واليوم الثامن عشر، قبل ميعاد الدورة الشهرية.

فإذا ما التقت البويضة بحيوان منوى فهما قد يتحدان معًا لتبدأ رحلة تكوين الجنين،

مع العلم بأن كل حيوان منوى يحمل داخله جزءاً من الخصائص الوراثية. وعندما يتكون الجنين فهو يحمل هذه الخصائص بما يجعله يشبه الأب أو يشبه الأم. ويتم تحديد جنس المولود حسب نوع الحيوان المنوى، وليس للمرأة أى دور فى تحديد نوع المولود ذكراً كان أم أنثى.

وعندما تكتمل الشهور التسعة، وهى فترة الحمل؛ فإن الرحم ينقبض وتتقلص عضلاته بما يسمح للجنين بالخروج من عنق الرحم، وهذه الانقباضات ورحلة خروج الجنين من بطن الأم تسبب آلاماً موضعية تدفع بعض النساء إلى أن يصرخن بعنف.

ويعتقد بعض الأطباء أن الخوف من آلام الوضع مغروس فى النساء منذ بدء تسجيل التاريخ الإنسانى؛ فمعظم الكتب المقدسة، تذكر أن الأم تحمل الطفل وتتألم خلال الحمل والولادة. وبعض من الأطباء ما زال يدرس كيفية تصميم نوع من التدريبات فى التنفس والممارسة الرياضية لتتم الولادة طبيعية بأقل آلام ممكنة.

وتتساءل أعداد كبيرة من الفتيات عن أسباب اختلاف الدورة الشهرية والآلام المصاحبة لها؛ فالدورة الشهرية عند فتاة ما تأتى كل ٢٤ يوما، وعند فتاة أخرى تأتى كل ٣٤ يوماً، وهناك فتاة ثالثة تعاودها الدورة كل ٢٩ يوماً.

وهنا أريد أن أقول الحقيقة التالية: إن لكل فتاة دورة شهرية خاصة بها، وفى هذه الدورة تكتشف كل فتاة مواعيدها خلال السنوات الخمس الأولى بعد البلوغ. والغالبية العظمى من الفتيات تأتيهن الدورة الشهرية كل ثمانية وعشرين يوماً، وتستمر الدورة الشهرية حوالى أربعة أو خمسة أيام فى المتوسط. وكانت النساء فى الجيل السابق يشكين من الآلام والإحساس بالضعف أثناء الدورة الشهرية، ولكن أعداداً كبيرة من الفتيات تحولن اليوم إلى الاتجاه المعاكس، لدرجة أن الفتاة التى تعانى بالفعل من تقلصات شديدة قد تنكر ذلك، وغالبية الفتيات فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية يحاولن الحفاظ على نشاطاتهن المنتظمة بما فيها الرياضة والسباحة.

والمرأة المتزوجة يمكنها أن تستخدم الحفاضة المعاصرة التى تشبه السيجارة المصنوعة من ألياف ماصة، والتى توضع داخل المهبل وتجذب من الخارج بواسطة خيط متصل بها. أما الفتاة العذراء فهى بطبيعة الحال تحمى بكارتها، لذلك يجب أن تستخدم أثناء الحيض الحفاضة التقليدية التى توضع من الخارج لامتصاص الدم.

وفى السنوات الأولى من المراهقة، تشكو العديد من الفتيات من عدم انتظام فترات الحيض؛ فهناك انقطاع للطمث قد يدوم لمدة شهور. وقد يكون الدم كثير التدفق وقد تكون

التقلصات شديدة، وأغلب هذه التغيرات لا تدل على أمر غير طبيعى أو غير صحى، ومن المستحسن أن تستشير الأسرة طبيباً متخصصاً بأمراض النساء، تثق الأسرة فى أمانته فى حالة القلق من مسألة الدورة الشهرية.

الفصل التاسع عشر:

مخاوف المراهق من الجنس

رغم أن عصرنا يتميز بضبابية الرؤية من حيث السلوك الجنسي، إلا أن الإنسان المراهق _ ولداً كان أم فتاة _ يعتريه الكثير من القلق على صحته الجسدية والنفسية.

وإذا كانت المجتمعات الأمريكية والأوروبية، والمجتمعات ذات الثقافة الغربية، تعيش الآن فترة ارتجاج بين معتقدات أباحت الجنس منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة، وحتى ظهور مرض فقدان المناعة المكتسب؛ فإن ظهور مرض فقدان المناعة المكتسب المسمى بالإيدز صار نقطة تحول بالغة فى السلوك الجنسى.

إن الشاب يركز اهتمامه منذ البلوغ على شكل جسده، وهل ينمو بانتظام أم لا، ويميل إلى الإحساس بالذنب تجاه الجنس منذ اللحظة التى يصل فيها إلى قذف الحيوانات المنوية، سواء من خلال الأحلام الليلية التى يفاجأ بها، أم بممارسة العادة السرية _ تلك العادة التي مهما قيل عن عدم إضرارها، فإن القول بعدم وجود أضرار لها غير صحيح.

إن الشاب الذى لا يتمكن من الزواج فى سن مبكرة، والذى يحفظ نفسه من ممارسة العادة السرية، معرض للقذف الليلى، وهذا القذف لا يسبب له الضعف وتكراره لا يدعو إلى القلق.

لكن الشاب الذي يمارس العادة السرية أو يلجأ إلى علاقات غير سليمة أو مقبولة اجتماعيًا، يعيش فى خوف مبهم وعميق، هذا بالإضافة إلى القلق من افتقاده لتدليل

الأسرة أثناء طفولته المبكرة، وحيرته البالغة لأنه لم يصل إلى الاستقلال الاجتماعى والاقتصادى.

وغالبًا ما يسمع من أصدقائه أن ممارسة العادة السرية تؤذيه جسديًا ونفسيًا، وأنها تقود إلى العصبية أو الجنون. ورغم معرفة أن مثل هذه الأقوال ليس صحيحًا علميًا، إلا أن ذلك لا يحل مشكلة المخاوف من ممارسة العادة السرية.

إن هناك تخيلات كثيرة تداهم الشاب من خلال قراءته للقصص المثيرة أو رؤيته للأفلام التى تمتلئ فى بعض الأحيان بمشاهدة الإثارة، ويتبع ذلك أن يحاول الشاب استكمال ما بدأته المشاهد المثيرة بلجوئه إلى الاستمناء.

ونعلم أن زماننا صار يطيل أمد الإعداد للزواج؛ فالتعليم المعاصر يزداد صعوبة، كما أن قدوة العفاف والطهارة تضعف فى المجتمعات المعاصرة، ثم هناك الخوف الدائم من الارتباط بالشخص الخطأ وهناك الخوف من الحمل، ومعظم الشباب له طموح عالٍ وكبير لبناء المستقبل، وبعضهم يمارس العادة السرية كوسيلة بديلة من اللقاء الجنسى الكامل، ومع تعقد الأمراض التناسلية وانتشار وسائل الإعلام بها؛ فإن أعدادًا كبيرة من الشباب بدأت فى الامتناع عن ممارسة العادة السرية. صحيح أن الأعوام الخمسة والعشرين الماضية فى الحضارة الغربية المعاصرة قد أزالت الكثير من الغموض ومن الإحساس بالذنب تجاه الجنس، ولكن الصحيح أيضًا أن اكتشاف مرض فقدان المناعة المكتسب صار حافزًا جديدًا على التطهر والعفة.

وبعض من الشباب ذوى الطموح العالى يقلقهم تمامًا أمر العادة السرية؛ فهم قد نشأوا فى عائلات ذات مثل عليًا ، تجعل جزءًا كبيرًا من اهتماماتهم وطاقاتهم الجنسية تتسامى فى إنجاز طموحاتهم ونجاحاتهم، ولكن أمر العادة السرية يظل مقلقًا ، لأن الجسد بطبيعته فى هذا العمر فوّار بالرغبات.

والشباب _ أو الشابات _ يحلمون بزواج مثالى، ولذلك فالواحد _ أو الواحدة _منهم يتردد بشدة قبل التورط فى علاقات طارئة، وهكذا نرى صراعًا حادًا فى أعماق هؤلاء الشباب لأنهم لا يجدون وسيلة للتعبير المباشر عن مشاعرهم الجنسية، ويقعون أحيانًا فى شبكة من الخيالات المثيرة مما يدفعهم إلى ممارسة العادة السرية ليقعوا من بعد ذلك فى الإحساس بالذنب.

ويتساءل الكثيرون عن مضار العادة السرية وأقول ببساطة ووضوح: إن العادة السرية مؤذية، ولا يوجد ما يدعم القول المنتشر حاليً بأنها غير مؤذية إذا ما تمت ممارستها

باعتدال، ولكن يجب أن نعلم أن الغالبية العظمى من البشر تتكيف حياتهم مع وجود نسبة ما من الإحساس بالذنب بسبب ممارستهم للعادة السرية.

إن أصحاب القيم الملتزمة لا بد أن يشعروا أن أى شكل لممارسة أى نشاط جنسى خارج الزواج يعرض الشخص للإحساس بأنه غير جدير بالإعجاب؛ لأن ذلك النشاط لم يتم فى إطار علاقة طبيعية وفى إطار الزواج.

وطبقا لبعض الأبحاث الميدانية فى الولايات المتحدة وجد الباحث الأمريكى المعروف "كينزى" على سبيل المثال، أن الشباب من أصحاب الطموح العالى يكبحون فى معظم الأحيان مشاعرهم، ولا يمارسون أى علاقة مع الجنس الآخر إلا بعد التخرج ومن خلال علاقة الزواج، وقد يقعون أحيانًا فى ممارسة العادة السرية بنسبة بسيطة.

ولكن الشباب الذى لا يملك طموحًا علميًا أو فنيًا أو مهنيًا قد يغرق إما فى ممارسة العادة السرية أو فى ممارسة العلاقة الجنسية الكاملة، وينجرف فى تيار حياة قد لا يرضاها لنفسه لو نظر إليها بدقة وتمييز.

وقد تسبب الإثارة الجنسية المتجددة للشاب ألمًا ما بين الفخذين. وهذا الألم ناتج من تكرار الانتصاب والانقباض الذى يؤدى إلى احتقان بعض من الأوعية الدموية الآتية من الخصيتين، والحويصلات المنوية. والأمر الطبيعى أن يتم القذف بعد الإثارة الجنسية، أما عكس ذلك فيسبب مثل هذا الألم.

وتنتشر بين بعض من الشباب مخاوف عن العجز الجنسى الكامل دون أدنى مبرر اللهم إلا سماعهم لبعض الأقاويل عن ذلك.

ونقول بوضوح: ليس هناك شاب معرض للعجز الجنسى إلا إذا تعرض لحادث جسيم مثل إصابة أى جزء من العمود الفقرى بالشلل، أو التعرض لتجربة جسيمة الأثر من الناحية الجنسية أثناء الصغر.

ولا بد لنا من أن نعرّف العجز الجنسى. إن العجز الجنسى هو عدم قدرة الفتى أو الرجل على الانتصاب والقذف. ويجب أن نفرق بين العجز الجنسى وبين العقم، فالعقم هو أن تكون الحيوانات المنوية للرجل غير قادرة على إخصاب البويضة الأنثوية، وهذا لا يثبت إلا بالتحليل المخبرى.

وبعض الرجال أو الشباب لديهم قدرة ضعيفة على الانتصاب غير المكتمل مع القذف السريع، وهؤلاء يمكن أن يعرضوا أنفسهم على طبيب أمراض تناسلية لتلقى العلاج الصحيح.

والشاب قد يتعرض للعجز المؤقت إذا كان صاحب قيم ومثل عليا، ووجد نفسه مدفوعًا

من مجموعة من الأصدقاء إلى ممارسة الجنس مع إحدى المحترفات. وهذا لا يمكن أن يسمى عجزاً على الإطلاق، بل إنه أمر طبيعى لإنسان يحترم نفسه، ويعرف أن مشاعره يجب أن تسبق جسده.

والرجل فى غالبية الأحيان لا يصاب بالعجز الجنسى، ولكن تقل رغبته فى التواصل الجسدى بعد عمر الستين تدريجياً .

وإذا ما تعرض الشاب لخبرة جنسية مؤلمة للغاية تنعكس من بعد ذلك على حياته بالعجز الجنسى؛ فإن العلاج النفسى كفيل بعلاجها.

وبعض الرجال الذين يقعون فى تجربة حب مثيرة قد يصابون بالعجز مع أى امرأة غير المرأة التى يحبونها. إن مثل هذا الرجل لا يمكن أن يصف نفسه بالعاجز جنسياً.

وأغلب الرجال يفضلون الإصابة بأى مرض على الإصابة بالعجز الجنسى، لأن ذلك يطعن الرجل فى كبريائه وطموحه. وعلى ذلك فليس هذا الخوف نابعاً من فقد متعة الجنس، ولكنه نابع من الخروج من دائرة الرجولة.

ويختلف معنى ذلك من رجل إلى آخر، فهناك من الرجال من يرغب فى المنافسة وإظهار الشجاعة، والقدرة على الانتصار فى المعارك، والرغبة فى امتلاك المال أو السيارة القوية، وفوق كل ذلك يرغب فى إرضاء زوجته جنسياً. وكل هذه المشاعر مرتبطة ببعضها فى أعماق كل رجل.

ولا بد لى من أن أقول هنا إن بعضاً من الرجال الذين أصيبوا فعلاً بالعجز الجنسى أظهروا عبقريات غير عادية فى مجالات تخصصاتهم، وعاشوا مع زوجات راضيات بذلك. وعلى ذلك فالعجز الجنسى ليس كارثة.

وإذا كان الشاب يخاف من العجز الجنسى؛ فالفتيات يخشين الاتهام بالبرودة، وعبارة "امرأة باردة" عبارة حادة لا تحب أية امرأة أن تسمعها؛ لأن معنى ذلك أنها غير قادرة على الشعور بالمتعة فى الاتصال العاطفى أو الجسدى مع من تحب. وبعض النساء يجدن مثل هذا الاتصال أمراً منفراً بالفعل، بل ومؤلماً فى بعض الأحيان.

والبرودة يمكن أن تتسبب فيها تجربة عاطفية أو جسدية غير ناضجة، أو أن تكون الفتاة قد اكتسبت من الطفولة قيماً متزمتة تماماً تجاه الجنس، ومثل هذه الحالات يمكن علاجها نفسياً.

وهناك عدد قليل من النساء ممن نشأن فى أسر محافظة لا يستجبن بسرعة للإثارة الجنسية، ولكن مع الزواج الناجح المتوافق تبدأ مثل هذه الفتاة بتجاوز هذا الأمر

الفصل العشرون:

العناية بالجلد والتخلص من حب الشباب

يفاجأ الشباب أثناء نضجه اليومى أن المرآة تخدعه فى بعض اللحظات، فها هو ذا فى يوم ما يرضى عن نموه وطوله وفى يوم آخر لا يرضى عنهما. والحقيقة أن المرآة واقعية تماماً ؛ لأنها تنقل صورة الواقع نقلاً دقيقًا .

والواقع الدقيق عن الجلد فى مرحلة الشباب هو ما يلى:

يحتوى الجلد على ملايين الأجسام الصغيرة التى تسمى الغدد الدهنية، وهذه الغدد لها وظيفة مهمة، وهى إفراز مادة دهنية تحفظ للجلد ليونته وللشعر بريقه. وتنشط هذه الغدد فى أداء وظيفتها بعد سن البلوغ تحت تأثير الهرمونات الجنسية التى يزداد إفرازها عند هذه السن.

ولسبب ما زال مجهولاً عند الأطباء؛ فإن بعضاً من الشباب فى هذه المرحلة يحدث لهم انسداد فى فتحات الغدد الدهنية، ويظهر هذا الانسداد على شكل رؤوس سوداء. وكنتيجة لهذا الانسداد يحدث تراكم للإفراز الدهنى داخل الغدة، وعند هذا الحد تنتهز البكتريا الموجودة على سطح الجلد هذه الفرصة لتدخل تحت سطح الجلد، وتسبب الالتهاب الذى يظهر على شكل البثور الحمراء. والاحمرار هو نتيجة للإصابة، ونتيجة لتجمع كريات الدم البيضاء فى محاولة تدمير الجراثيم.

وظهور "حب الشباب" بكثرة قد يسبب لوعة وإحساساً عميقا بالأسى، ويرتبك المراهق

أو المراهقة لذلك. وهنا يجب أن يستشير المراهق طبيب الأمراض الجلدية ليتم علاج هذه المسألة بهدوء ودون توتر.

ومن المفيد أن يعرف الشاب أن حب الشباب ليس نتيجة الاتصال الجنسى، أو الاستمناء، أو الأفكار الجنسية، كما يتصور بعض من المراهقين.

ومن المفيد أيضًا أن يعرف الشاب أن الاعتقاد القديم بأن تناول الحلوى أو الشوكولاته هو أحد أسباب ظهور حب الشباب قد ثبت علميًا أنه غير صحيح. لكن هناك خلافًا بين الأطباء، فبعضهم يرى أن تناول الشوكولاته يزيد من مدة حب الشباب وكذلك المكسرات كاللوز والفستق والبندق، والبعض الآخر لا يرى ذلك.

والاستعمال اليومى للصابون المطهر يفيد فى إزالة جزء كبير من ميكروبات الصديد من على البشرة بما يقلل من احتمال إصابة الحبوب بالالتهاب، واستخراج الأكياس الدهنية ذات الرؤوس السوداء يجب أن يتم بأيد مغسولة، وأن يتم تطهير مكانها فوراً. ولا يجب إخراج البثور الحمراء أو ذات الرؤوس البيضاء؛ لأن الضغط بالأصابع على أماكن البثور الملتهبة يؤدى إلى انتشار الجراثيم خلال الأنسجة المحيطة. ومن الحكمة أن يبتعد الشاب عن حك أو إثارة أماكن الإصابة بيديه، وأن يحتفظ بيديه فى معظم الوقت بعيداً عن العبث ببشرة وجهه، حتى لا تزيد نسبة الإصابة. واستشارة الطبيب أمر مفيد جداً فى تقدير أسلوب التعامل مع حب الشباب لئلا يزداد انتشاره، ويسبب ندوبًا قد تضطر بعضًا من الشباب _ أو البنات _ إلى إجراء جراحة تجميلية.

وغالبًا ما يتوقف حب الشباب عن إزعاج الشاب أو الشابة بعد وصولهما إلى تمام النضج والكبر.

وكما ينزعج الشاب _ أو الشابة _ من حب الشباب، ينزعج أيضًا من رائحة العرق. فرائحة العرق فى أثناء المراهقة تصبح قوية كنتيجة طبيعية للتغير الحادث فى الغدد والجلد، وكنتيجة لنمو شعر الإبط؛ حيث يتجمع العرق ويتحلل بواسطة البكتريا. وإذا ما حافظ الشاب على أخذ حمام يومي أو أكثر فهو ينظف جلده بشكل مستمر، مما يحمي البشرة من تلك الرائحة المنفرة.

والشاب عندما يستخدم صابونًا أثناء الاستحمام لا يحمي نفسه من العرق فقط، ولكنه يحمي أيضًا جلده من الالتهاب، ويحمي شعره من القشر الذى يزعج أعداداً كبيرة من الشباب. ويستحسن فى حالة زيادة قشرة الرأس استشارة الطبيب لأن العلم تقدم كثيراً فى مجال العناية بالشعر.

وبالملاحظ أن كثيراً من الشباب فى مرحلة المراهقة يحتقرون القواعد العامة للصحة مما يسبب لهم اضطرابات هم فى غنى عنها، مثال ذلك عدم المواظبة على ساعات النوم الكافية، وعدم تناول وجبات غذائية متوازنة. إنهم يفعلون ذلك بدعوى إثبات الرجولة والجراءة. وقد تحاول الفتاة إثبات الأنوثة عن طريق اتباع "الرجيم القاسي" مما يسبب لها هزالاً .

ولكن لا بد هنا من التنبيه إلى أن فترة المراهقة هى فترة تكون فيها الصحة العامة قوية، ولكن الاستهتار وعدم الاهتمام الجدي بالصحة يؤديان إلى بدء الإصابة بأمراض مؤلمة. لذلك فمن الأفضل أن يأكل الإنسان بانتظام وجبات متوازنة، وأن يذهب إلى طبيب الأسنان مرة فى العام على الأقل لإزالة الجير، وحماية الأسنان من التسوس.

وإذا كان العلم قد تقدم فى اكتشاف أساليب حماية الإنسان من أمراض تصلب الشرايين وقصور الشرايين التاجية فى الكبر؛ فإن الأطباء يطالبون الإنسان المراهق بتجنب الوجبات الغذائية المليئة بالدهون، وكذلك اللبن الدسم، وألا يتناول المراهق أكثر من بيضتين فى اليوم، وأن يحاول ممارسة التمرينات الرياضية كل يوم. وفوق ذلك عليه أن يبتعد عن العوامل التى تسرق من الإنسان صحته على مهل، أعني الدخان والكحول والمخدرات والانحراف.

الفصل الحادى والعشرون:

الدخان والكحول والمخدرات والانحراف

من السبب في انتشار عادة التدخين بين الشباب؟

هذا السؤال الصعب تتعدد نواحي الإجابة عنه. لكن النظرة الأولى فى الموضوع تؤكد لنا أن إعلانات شركات السجائر فى الصحف والمجلات تؤدي دوراً كبيراً فى استغلال رغبة الشباب فى النضج والتحدي، ثم هناك سبب رئيسي آخر، وهو عدم موافقة الآباء على السماح للأبناء بالتدخين، مما يجعل التدخين نوعاً من تحدي السلطة للكبار.

وكاتب هذه السطور يشعر بالتعاسة الكاملة لأنه غرق فى بحر التدخين العميق، وقد صارت محاولة الإقلاع عن التدخين تمثل له تحدياً يواجهه وهو يكتب هذه السطور بالذات، ويقال إن الخروج من براثن التدخين يحتاج إلى مدة ثلاثة أعوام شاقة ينسى بعدها الإنسان تماماً عادة التدخين.

ولقد انتشرت الآن فى أوروبا وأمريكا مقاومة التدخين، ونجحت إلى حد كبير، لدرجة أنه صار من المتوقع أن يتوقف غالبية البشر فى أوروبا وأمريكا عام ٢٠٠٠ عن التدخين. وقد استطاع الأوروبيون والأمريكيون أن يحققوا تلك النتائج عن طريق الإعلام النشط، وبالتركيز على التدخين كواحد من أهم أسباب الإصابة بسرطان الرئة وأمراض القلب.

وأنا أثق أن الإنسان الذي لم يدخن فى حياته إنسان محظوظ، ذلك أن متوسط أعمار غير المدخنين أعلى بكثير من متوسط أعمار المدخنين، وأثق أن الإنسان الذى لم يدخن هو إنسان أنقذ نفسه من أنياب عذاب طويل، هو عذاب القلق الشرس الذى يعاني منه

المدخنون، فضلاً عن أن غير المدخن يمتلك إحساسًا متجددًا بالحيوية وتظهر على ملامحه نضارة الشباب، وذلك على عكس المدخن الذى يبدو أكبر من عمره فى أغلب الأحوال.

إن الشاب يدخل تجربة التدخين ويستمر فيها لمجرد التحدي. إنه الاستخدام السلبي لطاقة التحدي الموجود فى أعماق الإنسان، والإنسان فى المراهقة يمتلئ بطاقة للنمو، وهذه الطاقة يمكن أن تمتلك توجيهًا دقيقًا وحازمًا، إذا ما مارس المراهق الرياضة. إنه بذلك يمتلك الإحساس النقي بالقدرة على دخول المخاطرة المحسوبة، والقدرة على إثبات أنه رجل شجاع غير متردد. وللأسف فإن إعلانات السجائر تحاول أن تسرق هذه الحقائق البديهية من غير المدخنين وتلصقها بمن يدخن، وهذا غير حقيقي بطبيعة الحال.

إن الرغبة فى النضج هى واحدة من أكثر الدوافع التى تحرك البشر، وبدونها لا يتقدم الجنس الإنساني، وسيكتب تاريخ البشرية عن القرن العشرين أنه القرن الذى استغل فيه بعض من كبار الأفاقين رغبة النمو عند الشباب، وحاولوا أن ينشروا بينهم عادة التدخين. صحيح أن التدخين موجود منذ عشرات السنين، لكن الترويج له لم يأخذ شكل الحرب المباشرة ضد صحة البشر إلا فى هذا القرن.

ولا أملك إلا أن أتوجه بالرجاء لأي مراهق بأن يحاول تفادي التدخين قبل الوقوع بين أنيابه، ولسوف يشعر أنه نضج خلال سنوات دون اتخاذ التدخين كعلامة على النضج، ولن أقول إنه كإنسان سيتمنى مرة أخرى أن يمتلك إحساس الشباب عندما تأتيه الشيخوخة؛ لأن الإنسان من طبعه أن يحب الكبر إذا كان صغيرًا، وأن يتمنى العودة إلى الشباب إذا ما وصل إلى الكهولة. كل ما أقوله للشاب أن عادة التدخين سوف تسبب له القلق فيما بعد إلى أن يقلع عنها.

وقد يلاحظ أحدنا أن بعض الأطباء يدخنون رغم أنهم يحذرون من التدخين، وأقول هنا أن الأطباء الذين يدخنون هم أكثر الناس قلقًا ؛ لأنهم يرون رأي العين نتائج هذا الخطر. إن الخطر شيء لا يسمعون عنه، بل يشاهدون ضحاياه أسبوعيًا.. إنهم يشاهدون البشر الذين يموتون لمجرد رغبتهم فى "الاستمتاع" بالتدخين.

على أية حالة، لا بد لى أن أقول إن السيجار والغليون "البايب" أقل ضررًا من السجائر، لكن عددًا قليلاً من المدخنين هم الذين يميلون إلى هذين النوعين.

وفى السنوات الأخيرة زاد عدد الفتيات اللاتي يدخن. لقد فعلن ذلك بسبب من انتشار فكرة المساواة، وأراد بعض الفتيات أن يمارس المساواة حتى فى ذلك الخطر الداهم المسمى التدخين. ومن نتيجة ذلك أن تقع الفتاة فريسة هذه العادة، ثم ما إن تتزوج وترغب

فى الإنجاب حتى يبدأ الخطر الحقيقي، والتدخين أثناء الحمل يزيد من احتمال وفاة الطفل أثناء الوضع بنسبة ثلاثين مرة عن الأحوال الطبيعية بالنسبة لغير المدخنات وإذا ما عاش طفل المدخنة؛ فإنه يكون أقصر قامة وأقل وزنًا وأقل ذكاء من أطفال غير المدخنين.

وماذا عن الكحول والمخدرات؟

هنا نبدأ فى الحديث كسموم واضحة سواء كانت خمورًا أو مخدرات، مثل الحشيش والماريجوانا أو الكوكايين أو الهيروين، وكل هذه السموم تدخل فى عمل وظائف المخ.

لقد عانت أمريكا ما بين الحربين العالميتين من انتشار الخمور بشكل كبير، وكانت تقدم ـ وما تزال ـ فى الحفلات الكبيرة كرمز للكرم وحسن الضيافة. كما أن ذهاب الطلبة فى حفلة نهاية الأسبوع إلى أماكن تقديم الخمور ما زال ينظر إليه كعمل جريء، وهناك كثير ممن يصابون بالقيء أو الإغماء نتيجة الإفراط فى تناول الخمور، وفى السنوات الأخيرة انتشرت المخدرات بين الشباب فى الولايات المتحدة وأوروبا كبديل للخمر.

وأضرار الخمر معروفة: إنها تشبه الدخول فى دوامة؛ فمن يدخل فى دائرتها ويعتمد عليها بشكل يومي، لا يستطيع أن يخرج من دوامة الرغبة فى احتسائها ليلاً ونهارًا، ويستمر فى ذلك إلى درجة مزعجة، وليس أدل على ذلك من أن مدمني الخمر يخسرون أعمالهم ووظائفهم، ويفقدون أيضًا الحياة الطبيعية مع الأسرة، ويفقدون كرامتهم فى الحي الذى يسكنون فيه، وهم غالبًا ما ينطقون بألفاظ نابية، ويشيعون الفوضي فى كل مكان يذهبون إليه، وغالبًا ما يقع الواحد منهم فى مأزق، كارتكاب حادث سيارة أو غير ذلك، ويقسم أنه لن يعود إلى الخمر، لكن ذلك مجرد وعد كاذب. إن المدمن للخمر يتذكر بينه وبين نفسه بدايات تلك الرحلة الصعبة، رحلة ما قبل الإدمان للخمر. لقد بدأت الرحلة بالشرب فى الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية المختلفة، وقد يبدو المرء بادئ الأمر مسيطرًا على نفسه وعلى عدد الكؤوس التى يحتسبها، ثم ما يلبث أن يتمادى في الشرب حتى يصل إلى مرحلة يرتبط الخمر عندها فى حياته بعدم القدرة على مواجهة الصعاب، وما إن يواجه صعوبة ما حتى يلجأ إلى الخمر. لقد صارت الخمر فى حياته طريقًا للهرب، وتتساقط منه ذاكرته بعيدًا. أصبح كثير النسيان، ومن بعد ذلك يجرى إلى المناسبات الاجتماعية، لا بحثًا عن الألفة بينه وبين البشر، ولكن من أجل أن يجد شرابًا مجانيًا، وفور أن يوجد فى مكان فيه خمر؛ فهو يحتسي أكبر كمية متاحة من أجل الوصول إلى نقطة الغياب، وتبدأ حياته الخاصة فى التدهور، وتدور كل أفكاره حول الخمر؛ فيبدأ باحتسائه كل صباح، ويخاف أن يفقد جسمه الإحساس بالتواجد الدائم مع الخمر، ثم يبدأ بالهذيان

والارتعاش والارتباك والهلوسة، ويرى أوهامًا تحيط به: حيوانات تتحرك، أو زحف من البق الوهمي على الجسد، وقد تحدث الوفاة في مثل هذه المرحلة.

ويعتمد برنامج العلاج من إدمان الخمر على وسائل متعددة، لكن نتائجها غير مؤكدة إلا إذا أصرّ المدمن على علاج نفسه، والمدمن لا يصرّ على علاج نفسه إلا إذا واجه كارثة محققة في العمل أو في البيت، ويعتمد العلاج على محاولة استبصار النفس من خلال العلاج النفسي، ويتركز اهتمام المعالج في البحث عن الأسباب التي تدفع المرء إلى الخمر، وكيف يمكن أن يواجه إحساسه بالقلق والعداء نحو نفسه ونحو المجتمع والشعور الدائم بالنقص، والخوف الشديد من الضعف الجنسي والضعف الاجتماعي، ويتطلب الأمر أن يلتحق المدمن بمستشفى، ويعالج بأدوية معينة تباعد بينه وبين الإحساس الذي يعطيه له الخمر، كل ذلك مع ممارسة العلاج بالرياضة، ومع التواجد مع مرضي آخرين يقوم كل منهم بتبادل الأدوار، والتعرف على الأسباب التي أدت بهم إلى ذلك، مع البدء ببرنامج تثقيفي حول كيفية التوقف عن الخمر.

وتتنوع وسائل العلاج من إدمان الخمر، ولكن أكثر الجمعيات فاعلية في أمريكا هي جماعة "المدمنين القدامى"، وقد أسس المدمنون القدامى في الولايات المتحدة هذه الجمعية، وهدفها مساعدة الأفراد في الإقلاع عن الإدمان، شرط أن يعترف المدمن أنه مدمن فعلاً، وأنه يحتاج إلى علاج. وللأسف فإن عدداً قليلاً من مدمني الخمر هم الذين يقرون بذلك، وغالبيتهم يستمرون في الانحدار إلى الحضيض.

وأما عن إعجاب أغلب أبناء الحضارة الغربية بالخمر؛ فسببه أن هناك وهمًا بأن الخمور تنعش المرء، وتزيل توتره، وتجعله أكثر ثقة بنفسه، وأكثر مهارة في الاتساق الجسدي، وأكثر قدرة على التعبير عن النفس، ولكن ثبت بالتجارب العلمية أن كل ذلك غير حقيقي؛ فصحيح أن كل تلك الأحاسيس تمر على الإنسان فيَ اللحظات الأولى من تأثير الخمر، لكنها تنقص من الرصيد العام لصحة الإنسان فينقلب المرح إلى اكتئاب، والتناسق الجسدي إلى ترهل وكسل، والثقة بالنفس إلى توتر وتردد، وسرعة التعبير عن النفس إلى لعثمة. ولذلك فإني أقول للشباب: لولا الخطر الواضح للخمور على صحة الإنسان، ما اتجهت المجتمعات حاليًا إلى تغيير النظرة لمن يشربها.

ومن المعروف أن أكثر حوادث السيارات التي تؤدي إلى الوفاة في كل البلاد الغربية سببها الخمر. لذلك فإن هناك حملات منظمة من الشرطة ورجال المرور، مهمتها تعقب السائق المخمور وتغريمه ومقاضاته.

وغالبًا ما يندفع السائق المخمور إلى ادعاء شجاعة هى فى حقيقتها تهور. وأنا دائمًا أقول لكل شاب: لا تقترب من الخمر، وإن اقتربت منها فلا تقرب عجلة القيادة، فمن الأفضل أن يتهمك أحد بأنك جبان، من أن تتسبب فى قتل نفسك أو غيرك.

ذلك عن الخمر، فماذا عن المخدرات، وخصوصًا "الماريجوانا" أو "الحشيش"؟ لقد أصبحت "الماريجوانا" ومعها "الحشيش" الأكثر انتشاراً بين الشباب، وذلك بسبب سهولة الحصول عليها فى أمريكا وأوروبا. إن بعضًا من الشباب الأوروبي والأمريكي يزرعها فى حدائق منازلهم أو فى الغابات المجاورة لهم، وتعرقل "الماريجوانا" و"الحشيش" القدرة على الانتباه المتواصل أو فهم المعلومات المعقدة، كما تزيد من نبض القلب وضغط الدم، وتصيب العين بالاحمرار الدائم نتيجة توسيع الأوعية الدموية. وليس فى مقدور مدخن "الحشيش" أو "الماريجوانا" أن يقود سيارته بأمان، أو أن يتذكر تسلسل الحوادث. وباختصار، فإن تعاطيهما يؤثر على قوة النظر والصوت واللمس والتفاعل الاجتماعي. وقد وجد العلماء أن باستطاعتهم مواجهة "الماريجوانا" و"الحشيش" عن طريق وضع عدد من الأسس التى ترفع من قدرات الشخص النفسية لمواجهة هذا الخطر البطيء، وهذا الخطر يتركز فى فترة المراهقة، فالمراهق إنسان قد يكره الدراسة لأنها تؤجل حصوله على حريته واستقلاليته، وينسى أن إنجاز العمل هو وسيلة الحصول على الاستقلال والرقي، وقد يغرق فى الإحساس بالوحدة نتيجة عدم قدرته على التفاهم مع غيره، وهو يتأثر بوالديه، وجدير ذكره أيضًا أن المدمن لهذا النوع من المخدرات لا يتورع عن السرقة فى كثير من الأحيان.

وبالنسبة للعلاج من المخدرات فهو مثل العلاج من الخمر؛ أى أنه يستدعي التواجد فى مصحة. إن خطر "الماريجوانا" و"الحشيش" هو أنهما فى العادة بمثابة الخطوة الأولى إلى أنواع أخرى من المخدرات.

ويمثل الكوكايين وباء معاصراً يجتمع العالم الآن ليقاومه، والسبب فى مقاومة العالم للكوكايين هو آثاره الضارة بالمجتمع ككل وبالأفراد كل على حدة. إن مدمن "الكوكايين" هو نوع آخر من الأفراد يعتمدون على شيء خارجي يحقق قدراً من البهجة الزائفة، والتواكل الكسول الذى يتبع هذه البهجة المزيفة. والمعروف أن "الكوكايين" مستخرج من نبات "الكوكا"، هذا النبات الذى كان يستعمله الإسبان كطعام لأهل أمريكا الجنوبية، من أجل أن يعملوا دون إحساس بالجوع فى مناجم استخراج الذهب، وكان يتساقط منهم العشرات ضحايا الهزال والموت. ولما كانت مدة مفعول "الكوكايين بسيطة"، فإن مستعمله يرغب فى سرعة الحصول عليه، وهو يحقق لدى مستعمله جنونًا فى الرغبة فى استعماله،

وبذلك يدخل الإنسان فى دائرة جهنمية مفرغة لا حل لها إلا العلاج أو الموت نتيجة الجرعة الزائدة. والعلاج هنا يكون بعقاقير تزيل أثر "الكوكايين" من الجسم، ثم بالتدريب على التخلص من تلك العاهة الخلقية. وأما "الهيروين" فهو أحد المواد المستخرجة من "الأفيون"، ويدخل أيضاً الإنسان فى الدائرة المفرغة الجهنمية من فرط الرغبة فى استعماله؛ فلا مفر من العلاج النفسي والعلاج بالعقاقير، هذا إن لم يفاجئ الموت المدمن قبل مرحلة العلاج.

ولنا أن نلحظ وجود أسس تقود الإنسان إلى الإدمان، وهى وجود ضعف خلقي ونفسي ما يؤدي إلى ذلك، وهذا الضعف على التحديد يكمن فى "شحوب" الضمير.

هذا "الشحوب" الذى يصيب الضمير يأتي من البدايات الأولى لحياة الإنسان فى أسرته، فإما أنه افتقد فى أسرته الحب الكافي، أو أنه لم يملك الإحساس بالحنان اللازم، أو عانى من القسوة الشديدة، أو أن الوالدين كانا ناقصي الضمير، ويعيشان بلا قيم أخلاقية متوازنة. وباختصار، إن الدافع إلى "شحوب" الضمير هو عدم الرغبة فى أن يحيا الإنسان وفقاً للسلوك الاجتماعي المتفق عليه. هذا السلوك الذى يتطلب من الفرد أن يؤدي كل عمل بجدية وانتباه، وأن يعيش مخلصاً للمجتمع الذى ينتمي إليه، بدءاً من مناداة الآخرين بأسمائهم أو مسبوقة بألقابهم، ومروراً بالنظر إلى قيمة العلم وتحصيله، ووصولاً إلى بناء مستقبل ناجح وسط النسيج الاجتماعي الموجود.

وقد يقول معترض إنه لا يوجد شخص فى هذا العمل لا يعاني فى لحظة من اللحظات من شحوب الضمير.

وأقول إن ذلك قد يكون صحيحاً، ولكن من الصحيح أيضاً أن تكرار التسيب مع "شحوب" الضمير بشكل متجدد يقود الإنسان إلى الصدام مع المجتمع، والمجتمع له مؤسساته العقابية التى قد تعامل الشاب بشكل معين بهدف علاجه، فالشاب تتم محاكمته تحت عامه السادس عشر فى غالبية المجتمعات بأسلوب يختلف عن معاملة الكبار. إن الغالب فى هذه المؤسسات التى تتعامل قانونياً مع الشاب هو محاولة رعايته نفسياً واجتماعياً مع حجزه عن المجتمع الذى ينتمي إليه لفترة من الوقت، وذلك بهدف إعادة تأهيله لتقبل المجتمع والامتثال لقيمه.

وتختلف بطبيعة الحال ألوان الأفعال التى يقف من أجلها الشاب أمام المحكمة، والتى يقال عنها إنها محكمة الأحداث. إن مثل هذه المحكمة تراعي فى قوانينها مسألة إعادة تقوية الضمير فى أعماق الشاب، بهدف تهيئته للثقة بنفسه، والنظر إلى المجتمع بعين التعاون، لا بعين الكراهية، وذلك حتى لا يوضع الشاب مع المجرمين العتاة الكبار الذين

يفتقدون الإحساس بالرحمة، فضلاً عن أن المساجين الكبار يعلمون تماماً أنهم منبوذون من مجتمعاتهم، فلذلك لا يراعون أبداً أى أخلاق فى التعامل مع من هم أصغر منهم، بل يعلمونهم أسرار الجرائم التى يمكن أن يشاركوا فيها بعد الخروج من السجن.

إن الشاب يحاول دائماً أن يكتسب رضا من حوله، فإذا كان فى طفولته محبوباً من أسرته؛ فهو يحاول أن يكتسب رضاها عند مراهقته، حتى وإن أظهر التمرد، وإن لم يكن محبوبًا من أسرته؛ فإنه يبحث عن قيم شلة الأصحاب ليعتنقها، ويحاول أن يكون محبوباً من هذه المجموعة.

وغالبًا ما تدخل مجموعات المراهقين الذين لا ينتمون إلى أسر قوية الأخلاق فى دائرة التنافس فى عدم احترام التعليم، ولا يوجد عند هؤلاء صبر كاف على تحمل توبيخ من هم أكبر منهم من المدرسين أو سائر القوى الاجتماعية الفاعلة. ويختلف الحال طبعاً مع المراهق الذى ينشأ فى أسرة محبة، ترسخ قيم الإحساس بالواجب فى ضمير المراهق. إن مثل هذا المراهق يعتبر التلفظ بألفاظ جارحة لمشاعر الغير أو ارتكاب أى فعل يسبب طرده من المدرسة جريمة لا يمكن أن يقترب منها، وبطبيعة الحال فهو ينظر إلى السرقة أو الغش برعب وفزع، ويختلف ذلك عن مراهق آخر نشأ فى أسرة ضعيفة الضمير، ولا تلقي بالاً إلى التعليم؛ فالمراهق الذى نشأ فى مثل هذه الأسرة قد لا يمانع فى أن يسرق شيئًا من متجر. إنه سريع التهيج، قابل للتنافس المتمرد مع الكبار، سواء كانوا آباء أم معلمين أم رجال شرطة. كما أن المراهق من هؤلاء يفهم الشجاعة بقصر نظر، ويحاول أن يثبت استقلاليته بعدوانية، ولا يحسب حساباً للعواقب والنتائج.

إن الانحراف قد يبدأ من سرقة تفاحة أو برتقالة من متجر، وقد يتوقف الأمر عند ذلك؛ فقد أثبتت الدراسات أن أربعة من كل خمسة مراهقين ارتكبوا مثل هذا الفعل يوماً ما وهم قد فعلوا ذلك مع أقرانهم، وذلك لإثبات الخشونة والعدوانية التى يتميز بها الرجل، إذ نادراً ما ترتكب الفتيات مثل هذه الأفعال، وقد يتطور الانحراف عند الذين نشأوا فاقدين الأب والأم فيها قيمًا اجتماعية وأخلاقية عالية. ويتطور الانحراف ليصبح الشاب عضواً فى مجموعة تحطم عن عمد ممتلكات الغير، وهذا العمل يتطلب عنفًا مكبوتًا وضميراً أقل حساسية تجاه المسؤولية الاجتماعية.

ويزداد الانحراف من بعد ذلك إلى السطو على المتاجر بواسطة شلة من الشباب، وبعضهم قد تقول عنه الصحف إنه من أسرة محترمة، وتنسى الصحف أن قيم بعض هذه الأسر التى تبدو محترمة من الخارج، تفتقد من داخلها وسائل رعاية الأبناء، ولا يعطي

الكبار فيها الحب الكافي للأبناء.

ويتولى الانحراف من بعد ذلك إلى السرقة المسلحة أو إطلاق النار على الغير أو الاغتصاب.

أما الانحراف عند الفتيات فله طابع مختلف؛ فالحنان الناقص يولد عند الفتاة رغبة في الهرب من هذه الأسرة التي تعاني فيها من القسوة والحرمان والحرمان العاطفي، ويلي ذلك بطبيعة الحال الانحراف الجنسي؛ حيث تكثر الفتاة من التعرف على الرجال، وتقع في أنياب عصابات التجارة في الرقيق أو الدعارة أو توزيع المخدرات، وبطبيعة الحال فمثل هذه الفتاة تقع أخيراً تحت طائلة القانون لتلقي العقاب، فإن حدث ذلك قبل تمام سن الرشد؛ فمن حسن حظها أن تجد إعادة التأهيل الذي يزرع في أعماقها الثقة بأنها ستكون إنسانة تحترم القيم الاجتماعية المتفق عليها، وأما إذا ما وقعت تحت طائلة القانون بعد سن الرشد؛ فهي ترضخ للعقاب بالتواجد داخل سجن النساء.

والفتاة غالباً لا تميل إلى العدوان المباشر على المجتمع مثل الفتيان، بل تميل إلى نوع من الانتقام غير المباشر من ذويها بإقلاقهم حول سلوكها الجنسي المنحرف.

والفتاة أيضًا عندما "يشحب" ضميرها، غالباً ما تكون قد نشأت في أسرة "شاحبة" الضمير أو مفتقدة للحب والقدرة على احترام المجتمع. مثل هذه الفتاة قد تسرق شيئًا من محل ما، ويكون للشيء المسروق قيمة محددة بالنسبة لها، كسرقة بعض مستحضرات التجميل.

ولكن هناك قلة قليلة من الفتيات من أسر غنية تسرق الواحدة منهن شيئًا عديم القيمة بالنسبة لها، وتستطيع شراءه، ومن الأشياء المفضلة بالنسبة لهذا النوع من الفتيات سرقة الأفلام. إن مثل هؤلاء الفتيات بحاجة واضحة إلى العناية من قبل الطبيب النفسي.

الفصل الثانى والعشرين:

علاقة جيدة مع الآباء... كيف؟

نعم

الأبناء فى عمر المراهقة أكثر تمرداً على أسلوب تفكير الآباء وحياتهم.

نعم

الآباء الذين لهم أبناء فى عمر المراهقة يكثرون من الإلحاح على أبنائهم من أجل إنجاز أهداف معينه.

نعم

الأبناء فى عمر المراهقة يحبون التصرف المرتجل مهما كانت نتائجه؛ لأنه يحقق لهم الإحساس بالتحدي، بينما الآباء يصرخون فى وجوه الأبناء، مطالبين بضرورة النظر إلى الواقع واحترامه حتى يأتي المستقبل جميلاً.

ونعم أخيراً ..

إن الآباء سرعان ما يذوبون فى نهر الحياة، ويتحول الأبناء إلى آباء، ليأتيهم أبناء جدد يتمردون، ويلح الآباء الجدد على الأبناء الجدد، لكن الأبناء الجدد يسلكون درب التصرف المرتجل.

وهكذا تسير دورة الحياة.

ولأن الحياة لا تتوقف، يندهش الآباء من نقد الأبناء. إن الأب قد يثور وقد لا يتقبل انتقاد ابنه له، وقد يتفجر الأمر بين الاثنين فيخرج الابن من المنزل، وهذا ما يحدث بالفعل

فى أوروبا وأمريكا، وهذا ما قد يتمناه بعض الأبناء فى بلادنا، ولكن الظروف الاجتماعية لا تسمح به.

والأبناء يرفعون الصوت بالشكوى من جمود الآباء عندما يرون أن الأبناء لا يدرون بحركة العصر الحديث، والأبناء يتهمون الآباء بقائمة طويلة من الاتهامات. يقول الأبناء مثلاً إن الآباء متسلطون، ويرغبون فى التحكم فى كل تفاصيل الحياة، وأنهم فاقدو الثقة فى قدرات الأبناء على التعامل مع كل أزمات الحياة بدءاً من أزمات الدراسة مروراً بأزمات الصداقة إلى أزمات العلاقة مع الجنس الآخر. كما يتهم الأبناء الآباء بأنهم كثيرو الإلحاح بدون داع على موضوعات معينة، وهم دائمو التجهم والعبوس، وخصوصاً فى أي أمر يخص العلاقة بين الأب والابن.

ودعوني أقل إن جزءا من اتهامات الأبناء للآباء صحيح، هذا إذا ما درسنا الواقع جيداً.

فالواقع يقول إن الوالدين نادراً ما يمنحان التقدير الكافي لقدرات أبنائهما المراهقين.

ودعوني أقل إن الآباء ينسون فى معظم الأحيان كيف كانوا يشعرون هم أنفسهم أيام الشباب، أذكر على سبيل المثال فزع أبي وأمي، عندما أخبرتهما بأنني سوف أتزوج، وأن مرتبي أنا ومرتب زوجتي معاً سيكفيان لسداد مصروفنا إذا اقتصدنا جيداً.

قال أبي: "ولماذا ترهق نفسك بالزواج فى ظل ظروف اقتصادية صعبة"؟

ولم أقل لأبي أني أحتاج إلى التوازن النفسي الذى تحققه لى علاقتي العاطفية مع زوجتي، وخصوصاً بعد أن مرّ عامان على آخر قصة حب لي، وهي قصة كلفتني الكثير من التوتر، وكانت مليئة بالمعارك، وكنت فى تلك الفترة قد أنهيت دراستي وبدأت حياتي العملية فوراً، ولم أجد ما يمنعني من الوصول إلى التوازن العاطفي.

وقالت أمي: "وهل ستفهم زوجتك كيفية التعامل معك وأنت فى معظم الأحيان تشرد بعيداً عن المتحدث معك لأنك تفكر"؟

ولم أقل لأمي إن زوجتي تحترم صمتي؛ فصمتى نوع من الحوار الداخلي الذى لا تتدخل هى فيه، وبعد اثنين وعشرين عاماً من الزواج، كان ابني البكر يعلن خلال السنوات الثلاث الأخيرة أخباره العاطفية فأقابلها بالصمت، خوفاً من أن أكرر تجربة النصائح التى كنت قد زهدت فيها. لكني أصررت على أن أقول رأيي بصراحة فى علاقته العاطفية الأولى، إذ كانت الفتاة تطيعه فى جميع الأحوال، مما جعل حياته معها "عزفاً منفرداً" للقرارات. قلت له: "أنت تتصرف وهي ستحكم على التصرفات وهذا لون ضار من

العلاقات"، وأصدرت حكمي على العلاقة العاطفية الثانية؛ حيث ترك كل قيادة حياته لفتاته فبدا منقاداً لها، وهنا تدخلت لأقول له: "إن التوازن مطلوب".

وعندما أعلن لى خبر نهاية علاقته العاطفية، رجوته أن يختار وأن يدير حياته بنفسه؛ لأنني أراه دائماً أجمل كائنات الأرض، لكن مسؤوليته نحو نفسه يجب أن يتولاها هو.

وهاأنذا أرى علاقة عاطفية متوازنة تبدأ، وهو يقودها بعيداً عن آرائي، وأعتقد أنه لو سألني أن يتزوج فسوف أقول له: "افعل ما تراه مناسباً"، وأعترف أنني سأقولها وأنا مشتاق لمعرفة التفاصيل، لكني سأحاول أن أكتم شوقي حتى لا تأتيني التفاصيل فأرسل له النصائح والآراء التى أرى أنها تناسبني أنا ولا تناسبه هو؛ فهو فى عمر الحلم والقدرة على تحقيقة، وأنا فى عمر القدرة على الخوف المتجدد على ابني وعلى أحواله المادية، والمقياس مختلف بطبيعة الحال.

ولا بد لى أن أعترف أن السبب الأول لعصبية الوالدين تجاه ما يفعله الأبناء المراهقون هو عدم تذكر الآباء والأمهات للمشهكلات التى عانوا منها، وكيف انتصروا عليها؛ فهم يتذكرون فقط المشكلات التى عانوا منها، وفشلوا فيها، ويريدون تجنيب الأبناء مثل هذا الفشل.

والآباء، تحت ضغط وسائل الإعلام المعاصرة، صاروا يعرفون الكثير عن انحرافات الشباب، لذلك قد يضغطون بعنف على الأبناء بالمخاوف. وينسى الآباء أنَ الأبناء الذينَ ينشأون فى أسر متحابة، لا يقعون فى انحرافات العصر الحديث، وأن الأبناء هم فى عمر التفاؤل بقوة العمر، والآباء هم فى عمر التشاؤم تحت ضغط العمر.

إن سلوك الأبناء مختلف بالتأكيد عن سلوك الآباء؛ فالشباب يحبون أن يفعلوا بعض الأفعال بارتجال لإظهار قدرتهم على التحدي، وتحمل مسؤوليات هذا التحدي، والآباء يخافون من غدر الزمن، لذلك تراهم يخططون لكل شيء لأنهم يخافون أن يباغتهم شيء صعب. إن حياة الآباء تسير أمام أعينهم كنهر هادئ، ولا يريدون لحادث ما أن يعكر الصفو. ولذلك أتوجه للشباب بالقول: "إذ أردت شيئاً من الكبار فعليك بالتمهيد له؛ فإذا أردت أن تقترض سيارة الأسرة مثلاً، فلابد من المقدمات، وغالباً ما سوف تنجح. صحيح أن والدك سيقول لك إن كل من يعرفهم من الشباب يقود السيارة بسرعة تزيد عن المائة، ولكن الصحيح أيضاً أنه يسعد عندما تأخذ السيارة وتعود بها سليمة. إنك بذلك تنمي ثقته فيك بشكل كبير".

والآباء أيضاً ينزعجون عندما يقول لهم أحد الأبناء: "لن أدخل امتحان التجربة الذى

ستجريه المدرسة أو الكلية فى منتصف العام؛ لأنه امتحان لا تعطي عليه درجات، ولن يؤثر على نتيجة آخر السنة". إن الأب بذلك يرى أن الابن لم يقم بواجبه كاملاً لذلك يخاف من الامتحان، وعلى الابن ألا أن يتمسك بعدم بعث الاطمئنان فى قلب والديه؛ لأنه بذلك يوجه لهما الدعوة للتدخل فى حياته بشكل مزعج له ولهما أيضًا.

وعلى الآباء أيضًا أن يتعاملوا برقة مع أسلوب اختيار الأبناء للزي أو قص الشعر بشكل معين أو سماع الموسيقي الحديثة. هذه الأمور لا ينبغي أن يتوقف عندها الآباء كثيراً لسبب بسيط، هو أن الدافع الذى يحرك الأبناء للبحث عن التمييز فى أسلوب قص الشعر أو استعمال ملابس معينة على أحدث موضة أو سماع موسيقي صاخبة هو الرغبة فى الاستقلال، هذا التمايز وراءه رغبة الأبناء فى أن يقولوا لنا نحن الكبار، لذلك نحن نؤسس مجتمعنا الصغير بموسيقاه وزيه المميز، وموضات قص الشعر الجديدة"، ولنا أن ندرك نحن الكبار أن الأبناء يسعدون عندما تثير مثل هذه الأمور انزعاجنا لأننا نعرف لأبنائنا _ وليس لنا نحن _ اليد العليا فى تنسيق أسلوب حياتهم وذوقهم الفني والاجتماعي.

وفى بعض الأحيان، يفتعل الأبناء التمرد والكبرياء تجاه وجهات نظر يعتقدون أنها صحيحة، لكنهم يرفضونها لمجرد أنها صادرة عن الكبار. إن الابن يتمرد هنا حتى لا يظهر أمام نفسه كخائن لأفكار جيله الذى ينتمي إليه.

ولكني أقول لمثل هذا الابن: "دع عنك هذا الإحساس، واحتفظ بتمردك لما هو أكبر من التفاصيل. إنك تستطيع أن تضيف لمجتمعك ولجيلك بأن تبحث فى تحديات علوم العصر، وإذا جاءك رأي تراه صائبًا من والدك فاشكره عليه. إنك بذلك تمتلك القدرة على أن تقول لأبيك إن رأيه فى هذا الأمر يعجبك، لكن رأيه فى الموضوع الآخر لا يعجبك وإنك غير مقتنع به". ودعني أقل لك إن تمردك سببه سنوات طويلة من الطفولة قضيتها تحت سيطرة والديك، ومن الطبيعي من بعد ذلك أن تظهر درجة من التمرد، ولكنك إذا نظرت إلى الواقع بعمق ستجد أنك تقضي على الأقل من ثماني ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة كل يوم، بعيداً عنهما وفى احتكاك مع عالم الكبار من مدرسين وأناس كبار آخرين، وهؤلاء الكبار الذين تتعامل معهم يحترمون آراءك إذا ما كانت صائبة، وأنت بتعاونك مع الكبار تتدرب على أن تكون ناضجاً بالفعل. صحيح أن الكبار الذين حولك يوجهون لك النصح أحيانًا، والنقد فى أحيان أخرى، لكن الكبار يرضخون أخيراً لرأيك إذا كان صائبًا، ووالدك ووالدتك سيفرحان بذلك، إنهما يفرحان بالتعامل مع الجزء الناضج منك أكثر مما تتخيل،

لأن معنى ذلك أنك فارقت الطفولة، ولم تعد كثير الشكاوى. لذلك لا يجب أن تفكر فى والديك كسلطة يجب أن تتمرد عليها فى كل صغيرة وكبيرة، ولكن اجعل التعاون جزءً من خطتك للوصول إلى مسؤوليتك عن نفسك، وستفاجأ بأن أهلك هم أكثر الناس فرحًا بقدرتك على تحمل المسؤولية، وستجد أنهم يسلمون لك بالسلطات التى تطلبها لنفسك. هذه هى الفلسفة التى يتبعها رجال الإدارة الحديثة فى اكتشاف المديرين الناجحين. إنهم يبحثون عن المدير الذى يكتشف أسلوبه الخاص فى إتقان العمل وقدرته على التعاون مع الغير، ويحقق لعمله إعجاب الآخرين، ويشارك الآخرين أيضًا فى أعمالهم برأيه دون جرح مشاعرهم.

والمسؤولية الدراسية هى أحد المعايير المهمة لتقدير الآباء للأبناء، فإذا كان الابن قادرًا على أن يؤدي مسؤولياته الدراسية دون إزعاج؛ فهذا أمر يعطيه أمام الكبار الفرصة الكاملة لإعلان أنه إنسان مسؤول عن ذلك، فهذا يعني أنك توجه الدعوة إلى الكبار ليتدخلوا فى شؤونك لأنك تفتقد التقييم السليم لنفسك.

وهناك مسألة يعتبرها بعض المراهقين دليل حريتهم.. إنه أمر العودة إلى المنزل فى ميعاد محدد. إن احترام ميعاد العودة إلى المنزل أمر مقدس بالنسبة لك أولاً وأخيرًا يا عزيزى المراهق، لأنه يوضح بما لا يقبل مجالاً للجدل أنك إنسان مسؤول عما تقول، وهو طريق متميز لأن تكتسب ثقة من هم أكبر منك. قد تعتبر أنت أنه من السخف أن يعتقد الكبار أن الإنسان الحسن هو الذى يعود فى الميعاد وأن الإنسان السيئ هو الذى يتأخر عن الميعاد، ولكن ماذا إذا ما أخلف أحد الأصدقاء موعدًا معك؟ إنك تغضب منه وتعتبره إنسانًا غير مسؤول، فلماذا تجرد الكبار من هذا الحق الذى تعطيه لنفسك؟ ثم إن إخبارك للكبار بميعاد يعطيهم الثقة فى أنك إنسان مسؤول بشكل أو بآخر.

ولك أن تتذكر، يا عزيزي المراهق، أن الوالدين يسعدان بحسن سلوك المراهق معهم، والكل فى هذه الحالة يعامل المراهق حسن السلوك بأدب، ويسعد الكبار أن يعاملهم المراهق برقة وحساسية ويفرحون بذلك؛ فيعاملون المراهق بود أكثر.

وهناك خلاف جوهرى ينشأ بين الكبار والمراهقين.. إنه خلاف التصور للأمور، ولا أنسى فتاة كانت تشكو لى من أن والديها فقدا الثقة فيها تمامًا، ولم تعد تستطيع أن تتحدث على الهاتف مع من تريد من صديقاتها، ولم تعد تستطيع أن تخرج إلى لقاء صديقاتها فى النادي الاجتماعي، وطبعًا كان حديث الفتاة يمتلئ بإظهار عدم قدرة الوالدين على استيعاب العصر الحديث.

وعندما التقيت بوالدي الفتاة بعيداً عنها _ وكانت تنتظر فى غرفة أخرى _ شكا الوالدين من أن الابنه لم تعد تتحدث على الهاتف مع صديقاتها، ولم تعد ترغب فى الخروج من المنزل يوم الإجازة الأسبوعية، وهما فى غاية القلق لانسحاب ابنتهما من الحياة الاجتماعية.

لقد وجدت التناقص بين أقوال الفتاة وأقوال الوالدين، وبطبيعة الحال لم أصب بالذهول؛ لأن اختلاف نظرة الوالدين عن نظرة الفتاة إلى الوقائع هو الذى أوصل كلا منهما إلى هذه النتيجة المتناقضة، وبتوضيح وجهات النظر بين كل من الطرفين، عرفت الفتاة أن والديها يرفضان استخدام الهاتف للدردشة الطويلة، وعرف الوالدان أن أسلوب نقدهما المستمر للصديقات يجرح إحساس الابنة.

والمراهق الشاب _ وكذلك المراهقة الشابة _ تعيش تحت ضغط الرغبة فى إثبات أنه على دراية كاملة بكيفية التعامل الاجتماعي، وأنه يسيطر على واقعه تماماً. إنه يعلن ذلك مع علمه بأنه يفقد بعضاً من المهارة فى كثير من المجالات، وهو يحلم يومياً بأن يكون منتصراً وقادراً، لذلك يكره تماماً أن يعلن أنه يعاني من افتقاد المهارة فى مجال ما، ولذلك فهو يكثر من اتهام الآخرين بأنهم السبب فى فشله فى المجال الذى فشل فيه، وأول هؤلاء "الآخرين" الوالدين بطبيعة الحال.

فى حالة الحزن التى تصيب المراهق فى بعض الأحيان، نراه يلقي باللوم على والديه؛ فهما السبب المباشر _ من وجهة نظره _ فى رفضه للتفاعل الاجتماعي مع الآخرين، مع أن السبب المباشر هو حنينه إلى الأيام الطفولية التى يفتقدها، ولكنه لا يجرؤ على مواجهة نفسه بذلك لأنه يكره أن يسلك سلوك الصغار.

وأحياناً يرغب المراهق فى رفض دعوة ما لحضور حفلة أو للذهاب إلى رحلة، ولذلك يجد العذر الفوري بأن يقول: "لقد رفض والداي ذهابي إلى الرحلة أو الحفلة". إن سيطرة الآباء عذر جاهز لدى الأبناء، ولو أن الابن أراد الحضور فعلاً ومنعه لملأ الدنيا بالتذمر والضيق.

وهناك خوف آخر لدى المراهق.. إنه الخوف من التحدي، فها هو ذا أحد الشباب يذهب إلى والده ليقول له : "إنني أطلب الإذن بالذهاب إلى البحر الأحمر لتعلم الغوص. إن المدرسة سوف تذهب إلى هناك، إلى نفس المكان الذى افترس فيه سمك القرش أحد الغواصين فى العام الماضي".

وبطبيعة الحال فإن الأب سيرفض، والحقيقة أن المسؤول عن هذا الرفض هو الابن

الذى اختار كلمات معينة تدفع الأب إلى الرفض. لقد ذكر الرحلة منسوبة إلى حادث افتراس سمكة قرش لغواص!!.

ويظل الحديث عن الأمور العاطفية والجنسية أمراً شائكاً بين الآباء والأبناء، والنظريات تقول إن من مسؤولية الأب أن يحدث الابن بمنتهى الصراحة والهدوء، وأن يختار ألفاظاً واضحة وصريحة فى كلامه عن العلاقة بين الرجل والمرأة، والمسؤولية الناتجة عن تلك العلاقة، وعندما واجهت هذا الأمر مع ابني طلبت منه أن ينقل لى تفسير آيات سورة النساء، التى تضم كل التفاصيل المتعلقة بالعلاقة بين الرجل والمرأة، وأن يجمع هذا التفسير من أكثر من مرجع، وهكذا أعلمت الابن بكل أسرار المسؤوليات التى تقوم وتنتج عن علاقة الرجل بالمرأة، وفى الغرب يفترض العلماء أن يحدث الأب ابنه، وأن تحدث الأم ابنتها، ومعظم الآباء يجدون صعوبة فى فتح مثل هذه الموضوعات مع الابن؛ لأن الحديث عن العلاقة بين الرجل والمرأة مليء بمحاذير اختيار الكلمات المناسبة، كما أن الابن قد يشمئز فى أغلب الأحوال من أن يتحدث إليه والده فى مثل هذا الأمر؛ لأن الابن يعيش وفى عقله الباطن روح التنافس التى كانت بينه وبين والده على حب الأم فى الطفولة، وهو يخاف أن يكشف لأبيه أي شيء متعلق بسلوكه الجنسي، كما أن المراهق يقاوم بشدة فكرة أن والده قد احتضن والدته وأنجباه. إن الآباء فى نظر الأبناء مخلوقات لا علاقة لها بالجنس، وهذا بطبيعة الحال ليس من الحقيقة فى شيء

والأب الذكي هو الذى يتخذ من مائدة الغداء فرصة للحديث عن العلاقة بين الرجل والمرأة، وكيف يجب أن تكون، يتناول ذلك من خلال القصص المنشورة فى الصحف أو من خلال أخبار الجيران أو العائلة.

والأم أيضاً قد تجد صعوبة فى التحدث فى مثل هذه الأمور مع ابنتها، ولكن عندما تختار الأم الكلمات المناسبة، وتعلم الفتاة كيفية الاهتمام بنظافتها، والحديث عن الدورة الشهرية؛ فهذا يعطي الأم الفرصة الكاملة لتناول كل الموضوعات بمنتهى الصراحة.

وعلينا أن نعرف أن آذان الأبناء والبنات تكون مفتوحة عن آخرها لتلقي التعليمات التى تنزلق أحياناً من أفواه الكبار عن العلاقة بين الرجل والمرأة.

وعلينا أن نعرف أن الأبناء يكتسبون فى عصرنا الكثير من المعلومات من خلال الكتب العلمية المباشرة، بالإضافة إلى تبادل الأحاديث مع الأقران.

ويظل موضوع تنظيم الأسرة مجالاً خصباً لتعليم الأبناء والبنات كافة أسرار العلاقة بين الرجل والمرأة، وهو مجال للتربية الجنسية فسيح بلا أدنى شك.

ولكني أريد أن أقول إن أعم ما يتعلم منه الأبناء هو السلوك العلمي بين الأب والأم، فإذا كانت العلاقة بين الأب والأم مليئة بالمحبة والتفاهم رغم ظهور بعض من المعارك فى بعض الأحيان، فإن الأبناء يتشربون روح الأسرة بلا أدنى شك. إن الحديث عن الأخلاق والقيم أمر سهل، لكن الأبناء لا يتشربون القيم من الكلمات فقط، ولكن يتشربونها ويطبقونها فى حياتهم إذا ما رأوا ذلك فى أسرهم. وإذا كان العصر الحديث قد أكثر من المعلومات عن التشريح، ووضع أمام الشاب والفتاة أكثر من فرصة للتعرف العلمي على الجسد؛ فإن الأسرة عليها _ من خلال سلوك الأب والأم _أن تعلم الابن الكثير من القيم من خلال السلوك اليومي. إن التعاون المتفاني الذى يمارسه الأب الحنون والأم الطيبة هو خير معلم للأبناء.

إن حديث الأب مع الابن بشكل مباشر عن العلاقة بين الرجل والمرأة قد يكون به بعض من الجمل المفقودة، لكن الابن يجمع هذه الجمل من مكان آخر.

وحديث الأم مع الابنة بشكل مباشر عن العلاقة بين الرجل والمرأة قد يكون فيه بعض من الجمل المفقودة، لكن الابنة تجمع هذه الجمل من مكان آخر.

وباختصار، إن الأساس الذى يبني عليه الابن والابنة حياتهما هو السلوك اليومي بين الأب والأم.

إن الحياة المعاصرة تزدحم بالشكوى، فنحن فى آخر القرن العشرين الممتلئ بذكريات الحروب والتنافس الشاق والفقر المدقع فى بعض البلدان ، وارتفاع نسبة البطالة بين شباب العالم تقريباً، وهوس امتلاك المخترعات الجديدة، وتلوث البيئة، واستغلال الإنسان للإنسان، وكل ذلك يجعل الشباب فى حالة من الشوق العارم إلى التعاون البشري من أجل نشر حالة من الصفاء النفسي.

إن الإنسان كائن يحب الأشياء المادية، وقد أنتج منها الكثير، وكائن يحب القيم المثالية وهو يعرفها، لكنه ما زال يصبو لتحقيق جزء بسيط منها. وأنا أؤمن أن كل إنسان لديه موارد لا نهائية من الإبداع، والإخلاص، والحب، والكرم، والقدرة على الاستمتاع بالفنون والآداب، وهذا لا ينفي أن بداخل الإنسان أيضاً الجشع، وطلب القوة والقسوة .

والشباب هو القادر على تهذيب الجشع وتحويله إلى طاقة للإبداع.

والشباب هو القادر على جعل القوة فى خدمة العدالة.

والشباب هو القادر على تحويل القسوة إلى سلاح ضد هؤلاء الذين يبددون كرامة الإنسان.

صدر مؤخراً فى سلسلة
الأصدارات الخاصة

62- بعض ما يمكن قوله.. أوراق ليست شخصية .... محمود الوردانى

63- شخصيات وتجارب فى المسرح العربى .... رجاء النقاش

64- الحركة العمالية فى مصر .... د. رؤوف عباس

65- مواقيت التعرى .... هدرا جرجس

66- سمير عبد الباقى.. طفل السبعين فى عيون الآخرين........................

مجموعة من الكتاب والباحثين

67- مدخل فى الموسيقى.............................. محمد قابيل

68- ثومة حكاية فيلم لم يكتمل .... الأمير أباظة

69- بوابة جبر الخاطر .... محمد مستجاب

70- الفن وأحواله .... أحمد فؤاد سليم

71- الصعيدى والصعيديات.......................... عدلى رزق الله

72- الزحام .... يوسف الشارونى

73- قصة السد العالى.............................. طاهر أبو فاشا

74- المسرح الإقليمى.. مسرح المستقبل .... عبد الغنى داود

75- رءوف عباس.. المؤرخ والإنسان .... مجموعة كتاب

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)

يتعرض هذا الكتاب بالشرح والتحليل لكافة الجوانب التى يحيا وسطها المراهق، ويقدم التفسيرات العلمية للعديد من النزعات التى قد يستهجنها المجتمع، كما يسعى للغوص داخل عالم المراهقة بكل تفاصيله، ويقدم منهجًا علميًا للتعامل مع هذه السن الحرجة.

الغلاف للفنان أحمد الجنايني

شركة الأمل للطباعة والنشر

فن الحياة مع المراهق فن الحياة مع المراهق فن الحياة مع المراهق فن الحياة





www.ibtesama.com